

حيدر حيدر

رواية

الزمن الموحش



حيدر حيدر

الى الاصدقاء في منتدى ليلاص
مع النخبة
bader

الزمن الموحش



دار أمواج

- الزمن الموحش (رواية)
- المؤلف: حيدر حيدر
- الطبعة الرابعة شباط ١٩٩٣
- جميع الحقوق محفوظة
- الناشر: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع -
هاتف 802389 - ص.ب 13/5264 - بيروت - لبنان .
- التوزيع: مكتبة بيسان -
هاتف 865126 - ص.ب 13/5261 - بيروت - لبنان .

- مراسمُ دفن -

لأنَّ الزمنَ يقهرُ الزوايا الحادة ،
ويخلقُ الجراحَ
أريدُ أن أنسى الزمنَ العاريَ والقاتلَ ،
زمنَ العصورِ الأولى
زمنَ تتراتِ الفضةِ المتآكلة ،
ومفتَّتِ العظامِ
زمنَ القصاصِ بين السَّرقِ والتاريخِ
زمنَ الإبرةِ المرتعشةِ يحنون
في ساعةِ الصفرِ
زمنَ الصَّلواتِ المشتتةِ
زمنَ الحياةِ الزائفةِ
زمنَ الخجلِ من التمدُّدِ في تقطُّعِ البلاءة ؛
الزمنَ الذي حُثِرْنَا فيه داخلَ القفرِ
كما يمتلئُ المرءُ بالغازِ والكهرباءِ ؛
الزمنَ الذي انعكسَ فيه الخلودُ رأساً على عقبِ
والذي لم يعدْ فيه صولجانُ الموتِ ينقرُ أدمعتنا .
الزمنَ الذي كنتُ فيه أسمنُ بوحشيةِ

وَأَتَفَتُحُ نَحْتَ الشَّمْسِ ؛
زَمَنَ الدَّمُوعِ وَالْقَلَقِ
زَمَنَ الْمَشْيِ خِلَالَ النَّوْمِ ،
الزَّمَنَ الَّذِي أُرْغِمْنَا فِيهِ عَلَى اخْتِرَاعِ أُذُنٍ ثَالِثَةٍ
لِكَيْ نَصْغِيَ بِهَا
إِلَى مَا يَقُولُهُ قَضِيبُ الزَّمَنِ
وَهُوَ يَدُقُّ رُؤُوسَنَا
بِقُوَّةِ الشَّرْسَةِ
وَالَّذِي انْتَدَبَهُ الْأَبَدِيَّةُ لِيَكْسِرَ ظُهُورَنَا .
وَلَكِنْ ...
لَأَنَّ الزَّمَنَ يُشْفِي تِلْكَ الْجَرَاحَ
وَيَسْوِي الْجَرَاحَ ،
فَإِنِّي أُرْغَبُ فِي تَشْيِيدِ دَعَامَةٍ لِلزَّمَنِ ،
أَنَا الْمُنْغِي عَنْ الزَّمَنِ
وَالْمَطْرُودُ مِنَ الْعُصُورِ السَّالِفَةِ .
أُرِيدُ الْآنَ أَنْ أُعِيدَ إِلَيْهِ الْكَمَالَ ،
أَصِيرُ وَتِيْنَةً الْمُقَدَّسِ
لَأُرَى كَيْفَ تَسْعُ أَمْلاَكِي ،
وَتَسْتَنْقِظُ أَرْضِي الْمَلِيئَةَ بِالظَّلَالِ
وَتَفْرَغُ نَفْسَهَا كَمَخْزَنِ بِلَا حُدُودٍ ،
يَنْتَظِرُ جَمِيعُ الْعُصُورِ ..

«شاعر من أفريقيا»

الفصل الأول

ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفاً باتجاه المدن. في عيونهم غضب. وعلى جباههم غبارٌ وعهدٌ مُتَظَر. في الرياح تخفق راياتهم وأصواتهم الجلييلة تملأ سمع العالم. تحتمل ترتمش الأرض، ونفوسهم مفعمة بالأمان والنعطة.

بخطى واثقة، كما يتقدم موج غضب نحو شواطئ مجهولة، يتقدمون. لواء فرحهم معقود وأنا حاديه، ومعنا مَسَرَّة وبنادق، كتب وسجلات فقر، زحفاً باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الأولى.

بلهف حار نتقدم، ومعنا أغنيات واطفال. معنا اشواق كانت محتجزة، غير مُبالين بسياسات الرياح والنبوءات العتيقة، مُمَّكِّدين بأشعة شمس جديدة هي ذي تشرق من خلف المضارب الرمادية المنسية، مباركة الفقراء والرعاة، المبتدئين والحفاة، الصُنَّاع والمظلومين وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فينبؤوا شطره فجر ذلك اليوم المدهش.

الآن يبدو العالم صحواً أكثر من أي وقت مضى. صحو يشبه هدوء بحيرة غبٍ أعصار أُرِّم اقترَب ثم هبَّ بكل عفوانه ووحشيته، وأخيراً توارى. كل ما بقي هو آثار أعصار غيَّر داخل النفس محلِّقاً الحطام والسكينة وبعض غبار الحزن الطللي.

إنني أتذكر الآن بهدوء تام كيف نفخت الريح في تلك الأودية، كيف ضربت بكل شراستها وأنيبها المجمع أبواب الكهوف المتناثرة والمظلمة، فأيقظت السبات الدهري العميق لآلاف الأحاسيس التي كانت غافية، ثم فجأة لم يبق غير الصدى النائح فوق البوابات التي عاودها صمتها القديم.

مثل سراب خادع يلمع فوق سهوب بعيدة. سراب يمتد ويمتد، هكذا يبدو الآن ركام الحكايات، شفافاً، لا ممّاً، عصياً على اللمس، عصياً ربما على الادراك. حكاياتنا التي أفلت في غروب يوم كتيب مع شمس دمشق تويي بلا استئذان خلف قبة قاسيون الأجرد.

سبضي وقت طويل قبل أن أستطيع ادراك كنه تلك العلاقة الأثمة والطهرانية التي يخيّل إليّ الآن أنها قد جمعتنا. إنني أستمع كلمة الجمع لا الالتحام، لا لأن ما حدث كان محض صدفة عابرة. إنما لأن الانسان يبدد عمره باندفاع حار شوقاً الى حالة دائمة من الاندماج الكامل مع شيء ما، ربما مع نفسه. لكنه يكشف في النهاية أنه قد خاض حرباً خاسرة، أضاع خلالها شيء ونفسه، وأن العالم ليس أكثر من أصداء تتردد كالنواقيس في كاتدرائية النفس المصدّعة.

الآن. وليس هناك غير صحراء بلا شجر ولا ماء ولا أنس، علي أن أكون متأسكاً كقدسيس يستبطن في أعماقه زنديقاً، وأنا أغنّدر الموننا عبر رمال سرابية مسكونة بصمت الاصغاء ورياح الخاسين الجائعة، للثبته.

عندما كانت بقربي في أصياف وشتاءات الأيام التي تصرّفت الى غير رجعة، كان يخيّل إليّ أن حضورها مَنَسِمٌ بخاصية الخلود، ومن أجل هذا الاحساس الخفي كانت المشاهدات تمكّر صفاء دقات الزمن التي حوّمت في سائنا، دون أن يضع أي منا في نفسه معادلاً سلبياً لذلك الاحساس المتفائل. وهكذا كنا نفرّق طولياً، ثم فجأة على غير موعد نتقابل وجهها لوجه عبر شارع ما أو بيت، واذا بكل غفران الأرض المُسامح يشع حزناً ولهفة من عيوننا، فتغيب في عناق حار، للذيذ، عائب.

لقد رحلت. غابت كحلّم هاجس النفس في ليلة صافية، ولم يبق غير الطيوف والتهريمات تهبّ وتهتر مثل زلازل عميق عميق يرحّ الاغوار السحيقة فترتمش الذرات الباطنية التي فتتها هبوبها السافي الحزين عبر فصول النفس.

هل كانت حقيقة؟ هل كانت وهماً؟ هل كانت ريحاً؟ هل وجدت بأبعاد مادية أم ان الذاكرة هي التي خلقتها ولولتها؟ أم أنها كانت مزيجاً من الحلم والحضور والزمز؟

عندما سألتني: لماذا قلت جدار الزمن؟

قلت: بملك دائماً كنت أحس هذا الجدار.

كانت تجلس بقربي على الخوان المزركش، واذا راحت تحكي عن طفولتها، وحياتها الماضية المتعبة والحزينة. كنت أشتاف لحمها المحروق بشمس صيف دمشق الحار.

مذ عرفتاً امتلكتني طفولتها النقية. كان لها شقة سفلى رائحة الوميض، مومنة، وكان وجهها مسكوناً بالأسى. وهي تحكي لم تكن تسألني، بدت غير معنية بسماع شيء مني. واستمرت تتحدث عن نفسها: الطفولة والمعاشرات اليومية، والناس الذين تخلّوا عنهم عرفوها.

واذا سألتها فجأة: اسمعي. هل أنت حُبلى مني؟

تابعت تروي حادثة أوشكت على نهايتها كأنها سؤال لم يُلق، وعبوراً قالت وهي تزّم شفتيها: ليكن. سوف أريه لك! واستمرت في حديث آخر.

الى ذاكرتي وثبت قصة طفلتها التي رمتها في القاهرة من زوجها الذي مات. قلت في نفسي: ربما هي الآن حقيقة أكثر من أي وقت مضى.

قليلة هي الاشياء التي كانت تعرفها عني. وفيما مضى كان هذا الاهمال الزجسي يسبب لي أذى خاصاً، لكن هذا الإحساس بدأ يتبدد بعد أن أدركت مركز إصابتي الداخلية. وبعد اكتشاف أن الإنسان يختنق وحيداً في هذا العالم. أشياء كثيرة كانت مستورة علمتنيها دمشق: على الأقل ان ما في رأسي مختلف تماماً وان علاقت البشر تشبه إلى حد كبير كتيبات الرمل.

شعرت بشيء من السخف وأنا أبداً الثثرة عن طفولتي.

كان الحديث قد انتقل إلى المطر، وبيرومانسية مهجة قلت: المطر يخلق إحساساً بولادة الحياة بعد موتها في الصيف. لم تُرثرت أشياء أخرى عن زين المطر على الأسطح، والتوافد في الليالي العميقة، وإحساس الإنسان الطفل وهو يسمع ذلك الزين.

وقالت: أحب المطر.

واذا أوغلتُ في الحديث عن أيامي في الأصيف التي مرّت بين قريتي وسهولها البحرية، وأبي الذي مات، وخيام الصيف التي كانت تهجم في ذاكرتي، وتعب الفلاحين الفقراء، شعرت بنوع من الذعر: «ها أنت ذا تتحدث أخيراً عن نفسك!»

- تحدّثي أنت!

كانت تستلقي على الفراش، رافضة أن تتحرى تماماً وأنا متكىٌ بنصبي فوق جسدھا المدد، أغلب شهوة لامتناص جذعي ثدييھا الصليبين المتقلصين، الثافرين خارج قيصھا الداخلي.

- ندياك كالملط. قلت ذلك بمجانبة غير مرتقبة. ثم داهمني صمت مفاجئ إثر هذه العبارة غير المقننة. واستطال الحديث منها.

إنني أذكر الآن كيف كنت أنصباها داخل كهني القديم، متوهجاً برائحتها التي تشبه رائحة الزيزفون البري، مدركاً بعد لحظات بأنني مقبل على الانفجار في جحيم جسدھا، مولدين شرارة تشبه الموت الفجائي، يتصب بعدها حائط الزمن بيننا.

في نفسنا وعبر جميع الأيام، حاولتُ كسر ذلك الجدار، أو إحداث فجوة فيه، نفلتُ من خلالها على معنى العالم المتناقص للموت واللعل، لكن محاولاتي معها لم تجر. لقد بدا عالماً مستعصياً على الإدراك أن أخرجها من سجنها النفسي، الشديد الإظلام.

وتابعتُ حديثاً كانت قد بدأتها عن حياتها. فجأة توقفت ونهضت عن الفراش متكة بكوعها، ومن وجهها أطلت شراسة.

قالت: لست أدري لماذا أدخل غرفتك وأنا أعلم أننا سنفترق قريباً.

- هل قلت: نفترق؟

- أجل. قالتها بثقة مطلقة كقرار حاسم بدا أنها اتخذته منذ زمن قريب. واستطردت: أنت تعلم أنني مطلقة فقط. أليس كذلك؟

- وأعرف أن زوجك مات.

- مات قتلأ يا سيدي. هل تعرف هذا؟ أجل. وأثر ذلك أصابني قرف لاحدود له من الرجال جميعهم. لهذا كنت أسأله منذ لقائنا أول مرة لماذا أدخل غرفتك وأنا مأك؟

وكما يرُنُ صنْجُ نحاسي وهو يقرع بعنف، رتت كلمة القتل في كل بقاع نفسي. يبدوه سحبت كوعها وأراحت رأسها على الخدّة: ولكن كيف حدث ذلك؟

- قتله أخوه بطعنات خنجر من الخلف ليستولي عليّ وعلى ماله.

فوق اللحاف كنا مستلقين الآن. ثلاث مناطق من جسدھا عارية، وزندي يجتري عبقھا، ورائحتها تهب متغلغلة عبر مسامي، بينا صدرھا المرمرى يحتاجه نذير تشج.

كانت رائحة الموت الكريهة توج على حواف رائحتها المثيرة، وكان واضحاً في تلك اللحظة أن النفس تجاهد لإبعاد رائحة الموت، وأن القرف الذي شال وعكّر الصحو الذي كان، قد أحمّد على مهل نار جسدھا.

راحت عيناها تجوبان بعض مناطق السقف، وصورة القتل تتناوب مع صور أخرى ما عدت أنذكرها بكل تفاصيلها، فقد كانت سريعة الانحاء فوق سطح السقف الكامد، وكانت تلك الصور تأتي تباعاً وخلافاً تظهر «منى» وتختفي، تارة في ثوب العرس وتارة منتشحة بالحداد، تتناكب أكتاف بشر قلقت لا ملامح لهم. ظلت هكذا مسترخية عذفاً في الصور الغريبة والتي تتوالد بلا أي ضابط، وهي ملتحمّة في تنفس بيّط، حتى غفوت.

□

- منذ سنوات قررت التلذذ بعذاب نفسي. لم يعد بإمكانني الانتباه إلى أحد: الحب هيه. قل هل تستطيع أنت أن تحب؟

- قادر أن أحبك طبعاً!

- إسع لا اريد أن أسبب لك جرحاً. يكفي ما في النفوس من جراح. بالنسبة لي انتهت هذه الحكاية السخيفة.

كنا نجلس الآن متواجهين هي على الخوان وأنا على كرسي، وفي ذلك الوقت كان الرجل حاجسها الأيدي، ولم يكن يبدو أن موت زوجها هو الذي يقلقها، وتناولت من عفتها صورة: أنظر. كم هي رائعة!

وحدثت في الصورة. تذكرت أطياف السقف، وأن هذه ربما عبرت وعومت في ذهني. صورة أخي التي ماتت بالربو وهي طفلة وحزن أمي المرير عليها، وتوضح لي أن أخي قد عبرت بين الأطياف: تشبهك. ما اسمها؟

- ميبالينا.

- أين هي الآن؟

- في القاهرة.

واستعادتها. ملياً حدثت فيها، ثم ضمتها إلى صدرها: لا أحد في العالم يستحق حيي إلا ميسالينا.

- لماذا لم تأتي بها معك؟

- أخذوها عتوة بعد موت أبيها.

بعد صمت قليل سألتها: هل تشعرين الآن أنك ما عدت منى الماضية؟ وتنهت. لفت ساقاً فوق أخرى: بل صرت أشعر بلا جدوى أي شيء.

في ساعات الصحو أتساءل: ما نفع الإنسان من كل حياته ومن كل الإخلاص الذي يُفني عمره فيه. لقد عشت حياة صاخبة عرفت خلالها أنماطاً مختلفة من البشر. عاشرت الجميع في محادهم السرية، معهم سرت في الشوارع وتأملت لآلامهم عندما جاعوا وطوردوا وسُجنوا وضربوا، فإذا كانت النتيجة؟ حياة طويلة بدت ككذبة. كنت غدوعة ومُهانة. هل تصدق لو قلت لك: أتمنى أحياناً لو أنني ولدت خارج هذا الوطن؟!

بهذه كنت أستمع إليها، وقد ارتدت فستاناً معرقاً ربيعياً يحبك كلية جسدها، كانت وهي تحكي تداعب ذوائب حزامه.

قلت مازحاً: فستانك رائع. لكن جسدك أكثر بهاء. هل سمعت هذا في الماضي؟

في عيني ثبتت نظراتها. وبطفولة مزدهرة، مفعمة بالسخرية، ابتسمت ولم تُجب.

كان الناس يعمرون فوق الأرصفة، وكنا نراهم من النافذة، والريح الصيفية الجافة تحرك أعالي الأشجار.

بهذه تقدمت نحوها. بين راحتي رفعت وجهها المنكب على الأرض: لماذا تبكين؟

بين أناملٍ انسابت قطرات ساخنة. مسحت عينيها بظاهري، وبحركة عذبة خفيفة دغدغت شفتيها: هيا ابتسمي منى. ابتسمي. لست وحدك الجريحة في هذا العالم.

- ٢ -

دمشق لا أروع ولا أحنن. كينلوب تبدو في هذه الأيام الحبل بالتوقع. وحيداً أعبر الشوارع. متفرجاً على القامات وراصداً الضمير التحيي هذه المدينة العجائية. المدينة الشبية بصندوق الدنيا.

ها قد مضى زمن لا بأس به بعد أن طوّحت بقدملك فوق أرض الشام، وعبرت تحت الأقواس العارية من الباب الشرقي للمدينة. لقد تمّ الدخول بلا أية مراسيم إلى الوطن الذي توهّج زمناً في مسرح الذاكرة.

التحدث عن القهر الداخلي والدروب المتوترة، يحتاج كثيراً من الشجاعة، ولأن الأمور ما عادت تسير على النحو الذي تريد، صار الخيط الفاصل بين الشجاعة والقبول معرضاً للاحتراق في أية لحظة.

- والمهم أن تحتفظ إلى أكبر مدى بالتفاسك واستمرار الرصد بسرية خاصة.

بلا أي تخطيط مسبق كنت أضغط بعنف زر الجرس. فجأني وجه مسرور التايوتي وقامته الحورية: أهذا أنت؟

- ملعون دينك مضى أسبوعان ولم نرك!

وإذ أنهى احتفاله البالغ، علقت له ابتسامة نبتت على شفتي وأنا أنحدر على الدرج نحو قيوه.

- مرحباً. ودخلت.

الفرقة رومانية، في جدارها مكتبة، محاطة بأرائك وطنافس: وعلى الجدران لوحات كلاسيكية، وفوق النوافذ ستائر من طيلسان برتقالي.

- أين كنت؟ سألتني.

- في دمشق.

ونبهه ضحكة عفوية لا تعرف الخبث. ثم اغتال خارجاً من الغرفة. ودخلت زوجته.

- هاه... مرحباً. عاش من شافك. كيفك؟
وسلمتُ.

استمتُ. رفعتُ إصبعي عيياً: وسط.

هدلت شفها السفلى الرقيقة وهي تجمع ثورتها الضيقة، وجلست. أمداً يدي ومن جبي أنتش لفاقة. أذكر أن علي أن أقدم لها سيكارة: خذي من هنا. نشعل لفاقتين ويرتفع خيط من دخان.

تعبرني حالة ركود. نسيان خاص. توقع جديد لأشياء جديدة. ويقبل مسرور.

ملأاً نتحدث. قليلاً جداً عن الأدب، وكثيراً عن الوطن والثورة والناس. ثم نصمت.

خلال ذلك تتحرك زوجة مسرور قاطعة صحراء الصمت.

رويداً يثقل الجو فيزحف صمت مفاجي، فيستلقي مسرور بطريقته البدوية ممدداً فوق كنية عريضة.

- لماذا تتصرف هكذا؟

تقول ذلك بجنتى امرأة تحب أاثها.

ويرنو إليها هازأ رأسه، ويتسم.

- النساء هن النساء. أقول ذلك بطريقة مازحة.

وهي تميز غيظاً تقول: أي نعم. النساء هن النساء!

أبتجج هازأً: لهذا أقول دائماً أنا عدو النساء الحميم. وتقهمه فترج ضحكها العفوية البلهاء في سماء الغرفة: معلوم. كلكم يقول ذلك. وأي منكم يشتهي حتى طقات كموب النساء على الأرضفة.

من الجيد عبر الليالي الدمشقية الساحرة، يوقّع رنينٌ خاص. ضربات موزونة: واحد. اثنان. واحد. اثنان. وأنت وحيد تعبر في سحر المدينة وسكونها الجليل على إيقاع الرنين يستيقظ توحذك وحنينك لسرير دافئ فيه امرأة سخية كالطر. حلم. مجرد حلم.

إذ تعود ديانا حاملة القهوة تَمُحي الصور التي عبرت. أقول: هو زوجك الذي يشتهي، أما أنا فأترفع عن هذه الكيثر.

وترمقي وهي تقدم القهوة: أنت طبعاً لا. نبي مرسل.

وأنده: ليتني نبي مرسل. كان للأنبياء أكثر من أربعة نساء و... ينهض مسرور من ضجته وهو يقهمه قبل أن أم الأعداد العشرية: ملعون دينك. لا تكفر يا أخي في هذه الأيام العصية.

أقول وأنا أمج سيكارتي: مسرور. هل نسيت أنك ثوري؟

فيسأل: وهل الثوري كافر؟

- الثوري علمي.

وترتفع الضحكات.

منذ أشهر تعارفنا. حدث ذلك إثر زواجه من ديانا، وبعد أن تحولت دمشق إلى محطة ثابتة للذين هاجروا من حيفا وانطاكية، والذين قديموا من الصحاري والجبال فجر ذلك اليوم.

ومن أعاق صدرها تخرج ضحكة حقيقية. يطفى الفرح على وجهها فيورده.
تباعد ساقها اليمنى: إياك أن تلامسني هاه. نحن شرقيون والبنيت قيمتها بشرفها.
أسأله مازحاً: هل باستطاعتك أن تشرحي لي أين يتمركز السيد الشرف؟
مواربا أهدق في حضنها كأنما بسمه على وشك الانفجار. بعينين خجلتين
اقتعلت ملاحظتها تنظر نحوي: أنت إنسان إباحي. أخلاقك مشبوه فيها ولهذا هددوك
بالطرد من وظيفتك.

- ٣ -

- وأنت يا مجدلية العصر؟
بحرارة تتحرك في المقعد، تكاد تثب عنه، تحس كأنما طعت. تدافع بجمعة
امرأة شرقية تقمصتها فجأة: أتحداك. العربية الحرة تموت جوعاً ولا تأكل بلديها.
- اسمعي لا جوع ولا عطش ولا يطبخ. الجنس ألح من الظمأ والجوع،
والتي تتحدثين عنها خرافة صحراوية انقرضت. في هذا العصر وجبة وفتان بركار
وعلى الشرف السلام.

وفي جيبي أسل أصابعي فتصدم مفتاح البيت. ألوح به أمام وجهها. تستبشر
عينها: هذا لي. هاه؟

- مرحباً يا عربية حرة. وتنفجر ضحككتنا. وإذ تحطف المفتاح، تكون غيمة
المزاح قد وُت.

عبر زجاج الباص يلوح حي السبكي الضيق. عربات الفواكه والخضار،
حوانيت البيع المتلاصقة، وبائع العرقوس، وبينتا القديم.

- وأنا أعبر هذا الشارع في غيابك يغمري حنين دافئ.
بين أصابعها تقتل مفتاح البيت الجديد، ثم تدسه في حقيبتها: لم يبقَ منه
غير الذكريات.

- لو نعود!

ويتجاوز الباص الحي الهاجع في قرارة الذاكرة.

□

الماضي. ذلك التوق المغمم لم يبقَ منه سوى الروائح. نهب الآن خارجة من أعاق
بحيرة الزمن، راسمة تموجات أثيرية فوق سطح النفس. أي ألم خاص يحتاجك
وأنت لا تستطيع خلقه من جديد بعد أن تصدع!

أقصى الساعات صيفاً في هذه المدينة، من الثانية ظهرأ حتى الخامسة.
ساعات الزمن الميت. خلالها تحس بأرتعائك العضوي والنفسي، تكاد تخترق نقي
عظامك حرارة هذا الصيف الجاف، وأنت تنسحب فوق الأرصفة مثل جثة أتنها
العرق والصجر.

كل شيء مكروه ومُعاد: الناس والأبنية، أصوات السيارات وواجهات
المخازن. وأنت.

وحدهن النساء يشعنك بالطراوة، يخفّفن من وطأة هذا الجحيم الخارج من
الأسفلت والجدران وضوضاء السيارات.

رائحة مني تلتفحي عبر الهواء الساخن، أشم رائحة جلدها من اندياح عرق
ابطليها. متجاوران في الباص وساقانا متلاحمتان، وحوار خفيف سرّي، غامض
ولذيذ، تحمله الساقان مع حركة الباص الزتبية.

- فرح لأننا معاً. أمهس لى. وبساقول عينين طفلتين تنظر إليّ، وتبسم.
أشعر بأنها لم تلتفت ما قصدت إليه. أوضح لها باقتضاب أن الحب في بلادنا لص
يتوقع المداهمة.

وتضحك ثم تعقب: ولكني الامسك بلا خوف. هل تريد أن أقيلك داخل
الباص من أجل التحرر والتقدم؟

أرفع حاجتي كرد فعل مباده. أذكرك حركتي فأعود لأرسم مشروع ابتسامه.
إذ ذاك تمتد أصابعي وأقرصها من فخذها فتنبه بداية ضحكة تقطعها قبل أن
تتكمّل. همس: سأنده. يا عباد الله يا غيرة الدين. هذا الفاسق يقرصني!
- إياك وحق شجر السبكي والكهف لو سمعوك لرجعوني.

غير أن الأسئلة تبدو غير مجدية، ولا الحشرات. لقد انكسرت فقرة من فقرات العمر. تمّ رسم ذلك في فصول متعاقبة.

الفصول التي تلتب فيها الأزهار لم تذبل لم تسقط، ولا شيء آخر. الغرفة باردة وصغيرة تحتوي سريراً وخواناً وطاولة حديد عليها بعض الكتب. بعد أن تناولت شيئاً من الخمر ارتفعت على السرير وفتحت الراديو منتظراً قدومها.

ولا أخفق القلب أو أرهق من انتظار امرأة في غرفة ضيقة. الزمن يشبه قنصاً متروياً في مكان ما، ربما في الحركة أو الصمت أو في وقع حذاتها على البلاط، وربما في جيب من جيوب الرأس. وأنت مرهف كحذّ الموسى تسمع دوي اللحظات، تكاد تلتقط ديبب نملة تعبر في الخارج أو الداخل، وحول نفسه بعد أن اختزل العالم وتقلص إلى غرفة معزولة كالبحر، يدور الوقت. هنيات تومض، تحسّ أنك تعبر أرضاً ملفومة والانفجار متوقع في أية ثانية. وفجأة يدوي، يتفجر ممدداً من رأس المفتاح الذي صدم القفل الآن إلى رأسك.

إذ ذاك ينجلي كابوس الزمن.

معها يدخل فرح العالم. تبدأ الجدران والأرض والسرير مزهوة بوجودها.

— إنقض لا تنغاف. الوقت قصير.

وبعنف تهزني من كني، رامية للحاف نحو الحائط. أتملأ فأراها واقفة على أرض الغرفة. بجوية تتحرك. قلب الكتب. تدبر إبرة الراديو. تشعل لفاقة. وأخيراً ترمني قربي: أرسلتك أمك من الضيعة إلى الشام لتنام؟

أطوقها فيقع ظهرها فوق صدري، أطوي رأسي وأغمرها بقبلة: متى تنتهي هذه المطاردة الزمنية؟

— هيا. هيا. لا وقت لدينا. تتخلص من ذراعي وتبدأ طقوس الترية.

□

— حلمت يوماً أن نلتقي ليلة بكاملها منى!

— لماذا؟

— في الليل أنت مسرة عذبة. جسدك ضوء. والليل في غيابك بارد مخيف.

— أخاف الغروب!

— بل تخافيني. أشعر بك تتزلزل مني كسمكة في بحر.

وتصمت.

— هكذا أنت لا تبدلين.

— ماذا تعني؟

— عندما نحاذي حافة جروحنا الداخلية تهربين. يخيل إليّ أحياناً أن العالم في رأسك مشدوخ يشبه أرضاً شققها صيفٌ قاس.

وتضحك.

— لماذا تضحكين؟

— لولك بالتحليل السخيف.

— كيف نفهم الآخر؟

— ولماذا تريد أن تفهمه؟

— كي أعرف طريقك إليه.

— لا تتعب نفسك. حلق كطائر في أية مساء واسقط فوق الشجرة أو الأرض التي تختارها. إزرع العالم بمخاحيك لأن الزمن يتقدم لاختلافنا.

كانت تهرب عندما نوشك على الدخول من بوابة المدار المفقود بيننا، خائفة أن يرى أحد ما دخيلة نفسها ويطل على جراحها.

نزلنا من الباص. طوقتها بذراعي ونحن نعب شارع أبي رمانة. كأربنين كنا نشب، أصابعي تتزلق تحت ثوبها وتدغدغ ظهرها الأملس، والناس يعبرون.

لم تقل شيئاً. واجتازنا الشارع. صرنا في فني الصفصاف المدلى فوق بردى. وفجأة قبلتنا خطفاً. كان الظل الذي تغلغلنا فيه قد أثار رغائبي. ضغطت خصرها النحيل، وتجاوزتنا سيارة مرق نورها على وجهها. انعطفتنا في الشوارع الشجبة الصوه، وبين حين وآخر كان عابرون يجتازوننا، ولم أفك الطوق عن جسدها الملتحم في، وبدا ذلك لذيقاً وعذباً، يعطي إحساساً بالملكية رغم التوجس من كلمة: دعني.

فتانان أجبيبتان مرتا. قلت: هما فرحتان لا شك!

- الفئتان وهما ترياننا مطوقين. هكذا العشاق في بلادهم. حب في وضوح النهار والليل.

زفرت ضيقاً: لا تقسر نفسك بشئ من أجلي. وحاولت التلصص.

في التو سقطت ذراعي، كأنما أصيبت بطلقة.

دمهي حس الانخفاف والعودة، فكأبرت. كنا نسير بعيدين قليلاً.

- متى...! وتوقفت.

في الظلال كانت تسير، وحيدة، لا مبالية. لخطواتها إيقاع بطي مكسور.

وددت أن أمزق الظلال والحزن بصوت يرج المدينة: لماذا أنت هكذا؟

لكنني قطفت ورقة خضراء، فركتها بعنف حتى صارت كذرات الرمل.

فردتها على سطح كني وقذفتها في الفراغ المظلم.

استندت على ظهر جدار، فأحسست شيئاً في نفسي يتهاوى، فتهاوت ببطء

على الرصيف.

- والتكوين الإنساني، لماذا هو معطوب؟ أين يكن الخلل في تلك الخلايا

البشرية التي تبدو محصنة ومستورة؟ ثم أنا لماذا أسقط هنا بالذات أمام علوقة

اشتبهت قبل لحظات الانفراد بها تحت سلم عارة مظلمة؟.

كانت الآن بعيدة. وراحت تباطأً. فجأة انكأَت على جدار بعيد في ظل

غيبضة ياحسين.

ضمدت إحساسي، وسرت منكفي الرأس أعد مربعات الرصيف، مصغياً

لخطواتي وهي تدق إيقاعها المتعب. حاذيتها. تحللت مقاومتي، وفي جسدي سرى

وجع شهوي غفور. وكبرق، اجتاحني إحساس اقتيادها والغياب في ظل مر قريب.

فجاني صدرها الذي كان يحشش فانطقاً البرق.

- ٤ -

تلوح دمشق وجعاً متشحاً بالأسى يغطي سهول النفس، ينعكس على وجوه الناس وعلى الأيام التي مضت. يخرج من العلاقت الثابتة بين الآخرين وفوق هذا الوطن المخبئ.

أي جيل موسوم هذا الذي ارتقى هنا، فوق أرض تنمخض قبل أوانها:

بالثورة، والفكر، والعشق المراقب؟

تُرى كم هي المسافة النفسية بينه وبين ما يريد، في وطن ما يزال منشداً نحو

تراه وارثاً كاساته القبلية والدينية؟

سمه ما شئت. هذا الطالع من كهوف العالم القديم، تحت شمس العصر

الجامع الذي سبقه، مطلوب منه أن يستشهد أو ينسحب.

في الحالة التوأمية بين الشهادة والانسحاب، كنت أقم. وفي هذه النقطة

الحرجة كنت أبحث مع مني عن شيء آخر في دمشق. فقط لم أكن أبتغي مجداً.

وفي دمشق كنا نحيا معاً في ذلك الزمن. كنا عاشقين من نوع خاص. وقبل

أن تستيقظ من رومانسية الصلة التي توهمناها راسخة، فامتدت شعيراتها المأصاة إلى

أعناق تراب النفس، كانت دمشق ما تزال تحت ملاءة الكشف. نظرياً كنت

أصور أشياء غامضة عن المدن المركزية، حيث العالم يحشش بالعظمة والعانة والفهم

الخالص. وعملياً كان الريني المقيم في، يبدو في وفوده على دمشق مذعوراً،

صغيراً، لا يعرف بعد كيف يعوم.

بين هذين الصّورين كانت أرجوحي تتحرك، محاولاً أن أعرف ما أجهل.

أن أصل إلى التوازن والسكينة الداخلية التي أنشدتها من خلال ازدحام نوايا العالم في

رأسي.

واذ جلسنا إلى طاولة الخمر في النادي الصيني، شعرت بقربي من تلك النوايا.

كانت خمرتنا العرق. ووجهانا متقابلين، وبيننا كانت الحرية. ولما رشف قليلاً من الخمر قال: عيناك نفاذتان.

وقلت: لكن وجهي كما ترى يعمل نشأً.

وإذا كما وجهه فوق الطاولة ليقطع الرغبة منهم: كلنا عمولون. وانقض على الطعام كنسر مجموع.

- غريب!

رفع وجهه سائلاً.

- إنك تأكل يجوع من يرى الطعام لأول مرة في حياته. من يراك الآن لا يصدق أنك أديب.

غصّ باللحمة وهو ينفجر بضحكة مفاجئة وسعل: الأديب لا يأكل؟

- بهذه الطريقة؟ غير معقول!

- على أية حال أنا لدي جوع دهري يعود إلى الطفولة. قل لي يا غاندي العرب كيف تنظر إلى الأكل؟

أقول: مهمة قسرية ينبغي إنجازها بسرعة.

يردف بشوشاً: يكفي تصوفك بمنى. هل وصلت صوفيتك حدود الأطعمة أيضاً. الأكل كالمزاة ينبغي الإقبال عليه بالشبهة ذاتها يا قدوس. ألم تقرأ كيف كان أبطال همنجواي يقبلون على الطعام؟

وامتنعت من هذا التشبيه السمج. لكنه استمر يناكد: الطعام. الطعام. المذكور في القرآن والإنجيل والتوراة من الأسماء الحسنى. صلوات الله عليه، وعليه السلام، وكرم الله وجهه، كانوا يقبلون على المائدة كما يقبلون على الصلاة والنساء. أشعلت لافاة وناولته فرفض: مع الخمر والطعام السيكاارة تستر الشهية. وتذكرت مزاجه الحاد.

□

تلك الليلة الغريبة. كم تبدو الآن بعيدة لا بالزمن الموضوعي الذي مرّ إنما بقسوة الأحداث التي انشترخت في رأسنا. شظايا من الزجاج تتراكم جارحة مسنة على طول درب الزمن بين دمشق التي كانت، ودمشق الآن. انهيار في وضع النهار ثم بلا استئذان.

كان وجهي ينضج بالبشرى وأنا أواجهه، وكان هو شبيه طفل سرح من بيت حوصير فيه منذ وقت طويل، فانطلق عبر مرج من الأعشاب والزنايق والفراش. بجيوية لعب وضحك واحتسى عمراً، واذا اكتفى سرحنا في تلك الليلة. ذلك السريان الليلي الخدير يحتاج الخاطر الآن، يخلج كقصيدة دندن المقاطع الأولى منها على أنغام شبابه التي شجّت وانتجت عبر غربة طولها بطول العمر كله.

لم يكن القمر قد سطع من خلف التلال القاعة من الشرق، لكن النجوم راحت تنوهج بكل طفولتها. كانت القرية قد هجعت كقتيل متدثرة في تابوت الصمت خلفنا. ونحن ندبّ على الدرب المقفر نحو البراري، لم يكن يسمع غير صوت الخطوات والصرير المتواتر لجنادب الحقول، وذلك التدبّ الرائي للناي.

كنت أعتقد أنه مسحور بالعالم الغامض الذي أحاطنا بالأشجار الكثيفة وعمم الوديان، وبين آن وآخر كنت أتوقع كلمة ما تحرق صمتنا الذي امتد طويلاً وسط هذا الظلام الأصم.

كسهل أسطوري ونغن نرتقي هضبة مطلة، فجأنا البحر. أمانا استوى، متوجاً بكل الهابة والاسرار كإله لا نهائي واثق متفرد، وخلقه أفق مسدود.

في الظلام شبه المضاء لحت عينيه منفرستين في ذلك السهل المراتح هناك. حرفاً واحداً عن ذلك العالم الطقسي، لم ينس. واذا شعر بأننا قد صرنا وحيدين التفت الي: هنا لن يسمعا أحد طبعاً؟ وإبستم: إلا البحر وهذه السكينة. وأفضى بالسر.

كل ما أذكره في تلك الليلة أنّ الدهشة امتزجت بعدم التصديق. كان بودي أن اصرخ وأبكي وأسأل. لقد ولد في داخلي شيء خيل لي أنه مات منذ عهد قديم. اليعازر من جديد يبعث: الثورة على الابواب إذن!

- الشمس تشرق من جديد كما يقول بابا منجواي. هاه. احفظ لسانك وصنهُ حتى يأتي ذلك اليوم. هكذا تقول تعليمات الحزب. بإمكانك أن تسر للبعض. أنا متأكد أنك فرح.

- من كان يصدق أن محرقاً للحزن مثلك يأتي بكل هذه الغبطة القاتلة ويقذفها هكذا فجأة. اجل انني فرح يا عزيزي. فرح ومسحور كهذا البحر ولكن...

- اعرِف. اعرِف. كنّ متأكدًا واحفظ بالسِر. هذا يكلف غاليا.

بعد أن سرنا في طريق العودة انحلت عقدة المفاجأة والدعشة. سأنته كيف صمت كل هذا الوقت. كان قد اكتسب حالة مريضة بعد انكسار طوق الصمت، فبدأ منشراحاً وأفهمني بأنه كان سينفرد بي في نهاية السهرة بعد أن تكون صبايا القرية وشبابها قد ناموا مع الدجاج. وأذ سأنته: لماذا أضفت شبابها؟ قال ضاحكاً: تمويهاً يا كاشف الأستار. العياذ بالشيطان من نوابك الإيليسية.

في البيت كان الاصدقاء ينتظرون عودتنا. لم ييال بهم. سألوه بعض الاسئلة فأجاب بشكل فظّ وأردف: معذرة أنا نعى ومتعب. على عجل ارتدى منامته واستلقى على السرير. شيك كفيه تحت رأسه وراح يحدق في السقف. بعد حين تناول الناي. توسّد معه ورمى بالآخرين في قاع النسيان. لقد تصرف في تلك الليلة كممثل يُقنّ دوره تماماً.

كان النادي محتشداً، وفي عبّ الأشجار المنتشرة على حوافيه علّقت مصابيح كهربائية صغيرة بألوان مختلفة راحت الريح تهزها، وفوق الأشجار انفسحت سماء مضادة.

أفصحت له عن رغبتني في التعرف على المثقفين، فانا أسمع عنهم وأقرأ لهم فقط. فقال وهو يلكر الزاوية اليسرى من فمه: سريعاً ما تملمهم. أنانيون وعدوانيون ومنقسمون. دعك منهم.

قلت: أنا لا أعرفهم. وابنده غامزاً: لكنك تعرفني.

في الايام الاولى من تعارفنا توجست منه. كان لا يُجاري في المباحكة والقذرة الخارقة على اصطفاء الكليات، وكان يمتلك طاقة خاصة للفذاء نحو الداخل. منذ الدقائق الاولى للقاء كان يجهد في استقطاب قراءاته وتجاريه ويبدأ لعبة التحليل.

وسواء أكان مصيباً أم محظناً فسوف تسمح له وتنكش أمام طغيان أحكامه المتميزة. كان في صوته وطريقة حديثه رنين مقنع يرغم على الاستجابة له.

بعد أن انتهى من الطعام مسح أصابعه بقطعة خبز. تجشأ وهو يتناول لفاقة وطلب أن أشعل له. سأنته لماذا يتهم المثقفين على هذا النحو وهو منهم، فنهز رأسه قائلاً بأنه لا يتهم أحداً وإن المثقفين في البلدان المتخلفة يعيشون عائلة على المجتمع: حفنة ثرثرة تتحدث في النظري بعيداً عن واقع وآلام الناس. القراءات الضحلة حولتهم الى ممثلين كاريكاتوريين وأدعياء يرون العالم من أعلى. أنا لا أدينهم ابداً فقط أشرح حالتهم النفسية وأنا أهوى علم النفس التحليلي، هذا كل ما في الامر. قلت: وماذا عنك؟

واخترقني بعينين فيها بريق غريب، ثم انخفضت عيناه مغطياً ارتياحه بضحكة تحمل إيقاعاً مؤسباً: نخبك. ورفع كأسه. بعد امتصاص الخمر امتعض: أية خمرة رديئة وسامة هذه!

- العرق أقل المشروبات مضايقة في النهار القادم.

- منذ متى تشرب الخمر؟

- بالتحديد لا أذكر.

- تبدو سكيراً أصيلاً.

- بالوراثة ربما.

- هل كان يشرب الخمر؟

- بالخمر مات. ظل يحمسي الخمر طوال أربعين عاما حتى تسمّم الدم.

- كان خائياً في حياته لا بد!

- اذكر له كلمة لا تنسى: حياتي ليل طويل لا فجر له. سأموت ولن أرى يوماً أبيض قالها منذ زمان طويل في خيمة قرب البحر. يومها كنت صغيراً لكنها انخفضت في ذاكرتي كموته.

- يبدو أنك ورثت ذلك الليل. وأردف: حياة الانسان في العالم- كما يقول ماكبث- حكاية يروها أبله مليئة بالصخب والعنف.

كانت الجبلية في باحة الحديقة تزيد ثقل الجو المحيط الذي طوقنا، واقتزحت أن نخرج الى الشوارع هرباً من هذا الضيق.

في شوارع دمشق المضادة والمعتمة، ترنحنا. قليلاً تحدث، وكثيراً بدت الجهمامة والالاسي في روائي وجهه المحروق. وبشباته توجع بأحزان دمشقية سكنته منذ أيام الجامعة.

كان يسير قربي، لكنه كان وحيداً كفصن مقطوع من شجرة ماتت. ولكنه كان عاشقاً.

- عندما تصبح المرأة وطناً ورواية وأماً. بكتابة رمى جملته في الفراغ. وهو ثمل بأحزانه، ووجع خيباته الماضية التي ركعها الزمن داخل كهوفه.

- وعندما لا تطال ذلك الوطن!

كان السكون يوشع دمشق. وانعطفنا عبر الأزقة الضيقة.

مد نال شهادته الثانوية فقد بيته وهاجر. حتى الاصدقاء والمدن ظلوا غرباء. وقليل من الامان نما في نفسه، ولقليل من صحابه ركن، واحتوته المدن الغريبة، لكن دمشق ظلت عشيقته السرية التي لا يظالمها. كانت موئل حكاياته القديمة، والمدار الذي يصحبه بعيداً عن وطن طفولته بعد أن ماتت أمه وانطوى أبوه في تراب الذاكرة.

- مذ ماتت وأنا أعشق جميع النساء بحثاً عنها. نادراً ما أرى أحلاماً، لكن جميع أحلامي كوايس.

- هل تراها في أحلامك؟

- دائماً أرى نفسي معها.

- وامتد صمت. قطعته: لماذا يحدث ذلك؟ أنا أيضاً ما أزال أرى أبي الذي مات منذ أربعة عشر عاماً في أحلامي. وقال: أرى نفسي داخلها فيها.

- وأنا أراه ينهض حياً ويعود إلينا. نادراً ما أرى أمي.

- ربما كانت أملك سينة. أما أمي فكانت ملاكاً.

- وابوك؟

- كان أصماً.

□

لبالي دمشق مرايا وأشواق ومكن أسرار. بعد الثانية عشرة يهيم صيفها الياسميني الليل، فيورق الجسد بالحوية والحركة، تتنظّل النفس بالالاسي ويعشق وهي منتظر، يشيل في النفس شوقاً لامرأة وحيدة في غرفة يانعة بالضوء الباهت ومسررات الجسد. حلم. مجرد حلم.

ها هم يعبرون. يتنعمون فوق الارصفة وفي عرض الشوارع. محمورون. عشاق. مقامرون. وحزاني، يضرمون النار في هشيم الزمن فيتألق ظلام دمشق بالذكري والوجع السري.

- دمشق مدينة الوجع.

- دمشق مدينة ألف ليلة وليلة.

وانفعل نحو بيت اخيه.

صمت خطواته تدق الدرج بايقاعات موجهة، بينما كنت أنكفي وحيداً نحو غرفة «امينة».

ثلاث نقرات على خشب الباب الموصد. أن السرير لم يمد، ووهنت خطواتها الفزعة. صرّ الباب يوعل، وزمقت في العم. عانقتها والخمرة في رأسي وهج ودوار.

ضمتها بقوة فانطوى لحما مضغوطة تحت وطأة جسدي. تحت ثوبها الليموني الناعم، بحركة غريزية، أدخلت ساني اليمنى، تغلصت من وحشيته الشهوية، وابتعدت قليلاً وهي تهمس: لم ينم بعد. على مهلك.

- ما زال ساهرا يشرب؟

وأومت برأسها، ثم قادتني نحو الحوان الملتصق بالجدار. جلسنا متلاصقين. لحما الطري تحت يدي، وفي الظلمة انطلقت كلماتها الجهورية: كالمعتاد أنت محمور أبداً.

وقلت: أحترق شوقاً إليك.

- دائماً في جسدك حريق.

- ما ذنبي إذا ما كنت شهية كفضط البراري يا أميرتي الجميلة.

وقرصتني مبتسمة بعدوبة من تتلقى عشيقاً في أواخر الليل، لن يلبث أن يلهب جسدها الغافي الحزين.

في الغرفة المقابلة كان زوجها يسكر ويسعل. نور غرقته يرمي رشاشاً من ضوء
نفس نحو غرفتنا.

□

وغبّ جميع الليالي التي جمعتنا، كنت اشعر بالذنب. لا لأنني اعطي
جسدها المهجور القبضة والحياة، انما لانطفاء حي لها بعد موت الحيوان الناعل تحت
جلدي.

وفي القرارة ما كان هناك أي ام ديني رادع؛ كنت أبقي كحجر بعد أن
ننتي، احدث في فضاء الغرفة والظلام، والطفلة النائمة، لم أنطفئ الى نفسي،
كأنما رغبة لعينة تيبب بي أن اهرب عارياً في شوارع المدينة، بعيداً عن هذا
الاسترخاء وعن هذا الزمن الذي تحجر بيننا.
واذ اعجز، يصرخ بي وجع غاف: لو تعود الى الثواني الاولى، الى لحظات
ما قبل الموت. ونظّل هناك!

في صمتي وبعد ان تمحي اللغة على تحوم الجسد، تحضر مني، فيظل ذلك
الانهدام القائم بين عالمين متنائين عطشها الكوني عصي على الربّ. تتحول الاسئلة
والحوارات الداخلية الى نوع من صكوك الغفران والتائب.

هي ذاتي رم العالم القديم، والشموس الجديدة، وروائع القيم المضادة
للرغبات، تحاول ان تطل من مداراتها، فتتحول النفس الى ساحة حرب.

أأنت تخدعها اذ تقول لها: أحبك؟ وأنت تود أن تقول: أنت تأري
الخاص. وبطفولة امرأة سحقتها الزمن، تحكي لك انها هجست بك منذ اعوام
طويلة. منذ دخل البرد والوحدة وهجسا في سريرها. وانها كانت غريفة تقفص نحو
القاع يوما اثر يوم كحجر منسي، وفي الاحلام كانت تراك مقبلاً عليها فاتحاً
ذراعك لتضمها الى صدرك العاري وتسحب نحو سطح الحياة، الى الدنيا المضادة
بكل افراح الانسان.

- كنت احس انك مسافر ولا بدّ أن تعود.

- أنا؟

- أجل انت بلحمتك ودمك. عينك نفسها وشفتاك وصوتك الدافئ.

وتمسح وجهك بأصابعها الرقيقة، تغلغلها في الشعر والصدر، ثم تمسح
وجتيتك وتهمس: حبيبي متى نتزوج؟

- انت شهواني.

- وأنت مثيرة.

- تلتذد معي؟

- احس بالموت.

- وماذا تشعر ايضا؟

- بدوران الارض واهتزازها.

- وبعد الدوران؟

وضغطتُ ما بين سابقا مبدداً الجواب. رفعتها ومددتها على الخوان. همت
مُحرجة وهي تلتفت نحو السرير: انتظر ما تزال مستيقظة؟

كانت ابنتها مستلقية على طرف السرير وقد دفعت اللحاف وطوته تحت
قدمها، مستديرة نحو الجدار كأنما تفسح لنا عن غير ما قصد.
- خائفة.

- متى يرحل خوفك؟

- اخاف حتى الموت. عندما تنزوج تصبح خلالي وأماني.

بعيداً أوغل اصابعي. أدعها تسوح عبر مروج حريرية عذراء، ويدي
الآخرى اجمعها صوبي ثم أغور فيها. كلها ملكي. كذلك الليل والعالم. في جميع
ذرات جسدي يرتقي شوق طبيعي يطلب الثلاثي. كنت مسحوراً معمداً بالبهجة.
بمركزاً في هذه اللحظة التي تشبه الغياب المطلق.

وما كانت تملك مشيئة.

منذ عامين سقطت ارادتها في بيت آخر قائم في الضواحي بين الاشجار
والنهر، عندما ودعني الى الباب.

في تلك الليلة قبلتها فقط، بجعي متوحشة على فمها وعنقها ووجعها وتلف
أذنيها وبين ثدييها. وفي ذلك المساء عرفت أول ذهول جسدي كما عرفت فيما بعد؛
بقيت اسبوعاً مذهوشة لا تصدق ما حدث، وفي نهاية الاسبوع استفاقت عارية بعد
ان اعطت جسدها ونفسها بجمرة امرأة لها زوج مخمور منس، هجر مخدعها منذ
اكثر من عشرين عاماً.

على الارض مارسنا الجنس الانساني العذب، وكامراً مهجورة، جسدها
لم يتفتح بعد، كانت حارة وحيوية.

كالصفحة يهوي السؤال. اسأل مني السؤال نفسه فقصمت تدير ظهرها وتضي.

لحظات وأتخلص من طوق ذراعيها، ومن اصابعها المرمية. أنجيه بهدوء نحو الباب وهي تودعني. خطواتنا واهنة والليل داخل جسدنا خرابة مهجورة: قبلي. مع الجسد كان الحوار. حدث ذلك تعثراً. حرف واحد لم يكن له معنى بعد طقوس الخرق. ولو قلت لها الاصحاء وحدهم المؤهلون للزواج ونحن عارض مرضي، لاعتقدت انني اخاتل هرباً منها.

من اجل ذلك استمر احساس الخيانة وتمعنّ الاثم. وعلى مدى الزمن ظلت منى وريثة الله في أعماق نفسي وظلت أمينة الجرح.



وفي زمن ما كانت أمينة صبا مشرقا كشمس تولد في صباح شتوي. كانت تخرج برغبات تنزع لتسرح تحت الشمس: تخرج متى شاءت. تتراد السينا والبراري المعبدة. تحب من تنقيبه في الامامي والتهارات في الشارع والمقهى، في غرفته الخاصة وفي بيتها. واذا تمعب منه وتضجر، تهجره وتبحث عن مسرة اخرى.

لكن أمينة كانت تعيش في عالم يراقب بصيص سينيا، ووقع قدمها، وتسلل خصلة من شعرها خارج حجابها الكالنج. طفلة سقطت خطأ في بيت متعصب يوما، في وطن متعصب، وكان الرعب الذي ساح مع دهما منذ الطفولة، هو الرجل الذي صوروه لها. الرجل الذي يفترس الطفلات على دروب المدرسة وفي البراري والسينا. لذا كان عليها ان تتوارى داخل بيت تقوب نوافذه كخرم الابري، توصوص منها في ساعات الغفلة بانتظار بلعها للشهم.

وقالت: عندما نَوْتُ وأقممت الرغبات الصغيرة جسدي ونفسي، اختارت لي أُمي زوجا يزيدني عشرين عاماً. رجل تافه، غبي يعيش العاهرات، ولا يعود الى البيت إلا تملأ.

وتضيف: لم أعرف اللذة الا معك. لم تردف عبارتها بضحكة ماجنة تخرق طبقة الحياء.

وأقول: في البلد مانئت

- حياتي جبل من خوف.

- لكلك امرأة بديعة التكوين.

- زوجي حار.
- لماذا لم تفصحني مذ عرفتني؟
- المرأة لا ترتني في حضن رجل ولو عبدته من الوهلة الاولى.
- ولكن لماذا لا يتخطى الانسان خوفه اذ يرغب؟
- المرأة هنا لا تستطيع وأنت تعرف هذا.
- أليس الحرمان أفسى من جحيم الخوف؟
- دائما كنت أرى عين والدي والتي تراقني.
- قلت: ما الذي كانت تقوله؟
- الحرام.
- اليس حراماً أن تموت حياة انسان مثلك في مغارة مظلمة ليس فيها غير

الاصطبارات والام؟

- الدين يقول ذلك.
- والانسان ماذا يقول؟
- الله يقول: اياكم والغواية انها من عمل الشيطان. امي علمتني ان اقرأ آية الكرسي عندما يوسوس لي الشيطان.

- وهل كنت تتأمين بعد ان تلعي ذلك التعس السيء الخط؟

تضحك. واذا أسألتها ان كانت تعرف من هو الشيطان؟ ترفع كتفها نفيًا: لا أدري!

- انا ادري. من سجنوك وقوسو حياتك وحرقوها عن مجراها الطبيعي هؤلاء هم الشيطان. اعني اسرتك المحترمة ورعب النبي.

- انت شيوعي كافر. وتضحك بخوف باطني.

أهم بها حاضناً جذعها العلوي. أضغطه بعنف. وانا ألتحم بها أودّ لو أقول لها شيئاً عن سوية الصلات البشرية والحرية التي تنبع من الداخل وتعطي الوجود معناه. لكنني ادرك أن مفردات اللغة بيننا هي محض حركات عضوية موقوفة.

- انا اربك وهذا كل ما في الامر. وأهجع جوارها.

في غرفته انطفأ النور فانتبتها. وعلى غرفتنا الموسومة بالحرام، خيم عم له رائحة الخيانة. في الظلمة بدونا شبحين. توقع خوفها ان يطرُق باب غرفتها. وخيل الي انني اسمع خفق خوفها الراعش. على الباب وفقت منصتة لصدى الخطوات. كنا مصلوبين على خشبة الصمت في حركة الزمن القلق.

مضت لحظات كحّ خلالها بصوت مسموع. ثم خمدت الاشياء وغاب الخارج.

في الظلام التام، داخل ليل دمشق الرخي، عامّ البيت. كالحجارة كنا نفوس في بحر الليل، فجأة دقت ارض الشارع خطوات قرب النافذة. تنصتنا. راح صوت الخطوات ينأى. ويحذر شقت النافذة المظلة على الشارع ثم أغلقتها: الحارس الليلي. قالت الكلمة بهمس.

فوق رشاش الضوء الشحيح المرتمي من المصباح الاحمر، وقفت. وبمركة أمان وشوق جديد ازهرا فيها، رمت ثوبها. كانت تقف الآن في رشقة الضوء. جسد للحي مرشوم بالظل والوهج. كان الجسد ينادي الآن. وبجوانية دافئة، تمددت على مسار الضوء، فوق سجادة الغرفة، وراحت تتلوى وتثن.

قالت النفس وهي تقبل: «هي ذي المرأة الشرقية المزدهرة في ليل عبق عندما يسكن خوفها التاريخي وتشتعل».

- ٥ -

قد يكون هذا حلماً أوحقيقة، لا يهم. زمن العربي يمضي بينها. لكن السؤال الايدي الملح: لماذا نولد ناقصين؟ واذا لا نجد جواباً، نمضي عبر دروب ملتوية، حافلة بالانكسارات، والشكاوى، وإيقاعات الائم.

خلال ازمة متعاقبة، نبي جسوراً. أحد ما لا يؤدّ أن يكون الضحية عن قناعة، وأبدأ نصطدم، تنشبت نحو جميع الاتجاهات، صوب كل الرغبات ونقول: لعله الدرب الذي ينجينا فنصل!

ونحسر. يربح الزمن ونحسر. تظل الدروب كما كانت، ويتيه ذلك الذي من فرط ما حُرّم، يستمر باحثاً عن النجاة واليقين مفتشاً عبر جميع المنطفات عن نفسه التي عطشها التاريخ والوراثة والتأمل المثالي الأغرّق.

عندما كنت اعتقد انني اتخطى، كان يخيل الي انني اخسر عمري في كل خطوة، شبيه كرة تضرب جداراً صلباً وفي كل ضربة تنقص المقاومة، يتشم جزء من الكرة بينما يظل الجدار قائماً لا يتزعزع.

ورغم التساؤلات عن امكانية خرق هذا الحائط الناهض داخل النفوس منذ آلاف الاعوام، كان الاستمرار في محاولات التخطي يعطي تبريراً لاستمرارية الحياة نفسها ضد الخدع وضد هاجس الانتحار.

وفي تاريخ الوطن والتاريخ الشخصي لن يسألك احد: ماذا تريد؟ واذا ما سأل فليتحدى. نأشراً في وجهك زنيخ فردية التي ألقيها وألغها خلال الاعوام الطويلة العريقة، خافياً في ظلها كل عجزه وكل سقوط قومه: ما تريد ليس ما يجب ان يكون. ما يجب ان يكون هو ما أراه أنا.

وفي ذلك الصباح والفرح قر ساطع ينير كل سهول النفس ومنحدراتها، سألت

تلك الام الوحيدة : الى اين تركتنا وترحل؟ وفي ذلك الصباح أجابها فرحي : الى الشام.

وقالت عجة : الشام ! وماذا لنا في الشام؟

قلت وانا اودعها : طلعت عليا شمس الفقراء التي لن تغيب بعد اليوم. وتمتمت وهي تدمع : ليكن الله معكم. يا بني لا تنس نفسك في تلك البلاد. تذكر يا بني أن الغربة غدارة !

وقبل ثلاث سنوات أذكر كيف كان العالم في رأسي نقياً، مفعماً بآمال بلا حدود، وكيف كنت أحلم بمنى : حريتي ووطني وزوجتي وطعامي وشوقي للمسررات النهارية والليلية.

آه. كم اشعر الآن بالمرارة. وكم يؤرقني الجرح وانا أرى الشمس وهي تميل مكسوفة وقد لوّثها غبار الاعوام، لظّنها الزمن حتى كدت انكرها، وانا ارقبها في حجرتي المغلقة عاجزاً عن مسح ركام الغبار عنها، قاصراً عن ردها الى طفولتها الاولى التي أسرّني فاستوطنت أشعثها اعصابي.

ولكن ما فائدة كل هذا الأسى. كل هذا الانتخاب الذي تحول الى نوع من الممارسة السادية لأجيال تسير مقهورة محبنة يسوطها ماضيها وإرثها البالي. الاجيال التي وسّمتها منى بانها ملوثة بلا استثناء؟ التصدع حدث وكفى.

ولكن هل كان ذلك في أعماق النفوس؟ ام أن التجربة هي التي غصّنته بحكم النقص؟ ام انه محض تشوش ذهني نتج عن استطالة المثال الكبير في الرأس؟ ام هو العجز التاريخي؟

زفيف الريح في الخارج. كل الابواب تلوح موصدة. ودمشق كعبة المثقفين والانقلابات المفاجئة وقطب العالم، صامدة تحت ضربات الريح، بعد ان هاجرت منى من النفوس وانطوت تحت غبار الذاكرة.

وتحت الريح وطنٌ ما عاد كما كان، كما لونه الاحاسيس ووشّته بألوان الحرية والخبز والمجد والأفراح الدائمة. مقيم هناك في أماكن غريبة، سرية، متربصة، يخفي تحت ابطه مدنية ودرصاصة. في عينيه ضجيج إدانة وتوجس، وعلى وجهه سبأ دعر وإرهاب.

توقع انفجار سيحدث اليوم أو غداً.

[]

على شرفة بيت أخيه كنا نسهر. تحننا الشارع وفي مواجهتنا عبارات متلاصقة. وفي الطابق المقابل راحت حركة دائبة لصبية وأختها الصغرى، تستهدف انتباهنا. وفوق المدينة تقوست سماء مبهجة.

صامت. وهو في أمم حيوته يتحرك بين الشرفة وداخل البيت.

- راقب نازك.

ورفعت رأسي. كانت عيناه مفعمتين بوميض خاص.

قلت : كم تقدر عمرها؟

- أحد عشر عاماً.

- والأخت؟

- تجاوزت الثامنة عشرة.

- من تشي؟

- الأختين.

- في سرير واحد؟

وشالت قهقهة : كل نساء العالم لا تكني الجلياع.

وناولني لفاقة ثم أشعل لي ولهُ. كانت اللفاقة مغروسة في زاوية فم البسرى.

نزها ونفخ الدخان فانتعاً فم كعصفور جائع : اللفاقة تعويض عن الثدي.

كخامة عبرت منى. صبوة حادة ارتسمت على محيط العمر فوشمتها. عصية على الأخذ، عصية على الهجر، وأنا من الداخل وحيد كذئب في صحراء.

- أنت حزين.

واخضت الغامة. كان يقرر جملة بثقة.

قلت : المثقفون هنا كطحالب البحر.

غرغر ضحكة مبتسرة : بالتأكيد لم تكن تفكر بالمثقفين.

وقلت : ليس ذلك مهماً. المهم ماذا تقدم نحن. خمر. ثرثرة. تحليلات

اندفاعية. حفرٌ مضى عن الحرية والمرأة وأشياء أخرى لا تظال. آه. أي سخف !

- نقدم الحزن المختمر أليس هذا كافياً؟

في الفراغ قذف اللفاقة. وهي تهوي وتقع محدثة بعض الشرر فوق

الاسفلت. ظل يراقبها حتى خمدت. وإذ حرق في الأفق الشاحب رأيت كآبته:
نحن مقدوفون في فراغ.

وفي ذلك الغروب ندخل في أول نقاش حاد حول الفرد والحرية، حول
الثورة والمجتمع، وحول التنازلات الخاصة والعزلة وبداية الانهيارات.

يبدو «راني» ملاحكاً كعادته. من خلال وعيه الشخصي يفسر الثورة رافضاً
التنازلات التي تؤدي إلى الإصلاح تحت غشاء من الواقعية المناقضة للثورة، محتجاً
على هذه المقايضات البويمية الموسومة بالخوف من التغيير الجذري: الثوري يحرق كل
المشيم الكاذب ولو أدى ذلك إلى إحترافه في النهاية. إذا لم تتغير العلاقات القديمة
فتنحى نهر في سفينة مصدعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم والنتيجة هي الفرق.

- نظرياً هذا صحيح. ولكن هل نستطيع؟
- لا نتحدث عن الظروف الموضوعية. هذه مقولة الجبناء. هناك خريطة
رُسمت عبر الماضي بشكل خاطئ وأنا أملك القلم والصور الذي ينبغي أن يكون.
ما الذي ينبغي من رسم هذه الخريطة على النحو الصحيح؟

- الناس ليسوا خطوفاً. والمجتمع ليس تعبيراً في مرتبات الخير!
- اسمع حتى الآن لا أعتقد أنك إنسان تبريري. أنا أخاف مثل هذه الزمرة
إن لم أقل أنني أرفضها وأستقهرها. قد تحتاج العملية تضحية ومخاطرة وأنا أرى
الثوري فداثياً ونبيّاً. أنا أرفض السياسي. المناور.

يهمد راني. يبدو عليه أنه بذل جهداً طارئاً استقاه من عالمه التجريدي، ومن
باطنه النفسي وحققه على تراكمات الكتب، والكذب المشوبه بتاريخ العرب فأصابه
منه رذاذ. نحو نازك يرنو بينين ترميان سترها الخارجي. يتناول شبابته وتتنامى
موجعات الحزن.

ليس سهلاً أن تعمر صلة، ومع راني يبدو ذلك رهيفاً كحرف الشفرة، وكما
تبرق وتتداخل ألوان قوس قزح، كذلك كان يبدو طقس نفسه.

بعد أن تعب من العزف، تناول سيكارة واستدار بعيداً عن مرمى الصغيرة.
عن روايته التي يكتبها، حكى أشياء مثيرة وحميمية إليه. تحدث عن الإبحار
العميق نحو داخل الأشياء، عن المواجهات والكوابيس وكشوفات اللاشعور، والمعاني
المستنبطة من خلال الضعف البشري والعلاقات السرية.

وإذ علقت أنها على ما تبدو رواية سوداوية. احتج غاضباً: بل هي رواية
قومية بطريقة الالتزام النفسي عبر الخلل الإنساني.

واستطرد: الوحدة العربية لن تقوم إذا لم يستطع اثنان ابتناء وحدة بينهما.
بيننا لم تكن مسافة. كنا ندخن باستمرار وبجوية، وإلجو مترع برائحة
صمغية.

كانت العلاقة معه ذات نكهة خاصة. نحس من خلالها أن العالم خصب،
واسع لا يحده. وريداً تبدأ حواجز التوجس والإحباط بالانهيار. وفي مكان سري
من الداخل تحاول تلك الصلة أن تزغف كما ينمو الفجر.

- «حياة الإنسان متاعه والنفس فصول». قلت ذلك كأنما أهمس لنفسي.
وبدا ذلك احتيالياً يخص من اختاروا الإبحار إلى ما وراء الظواهر، الذين أسماهم
رامبو «الملعونون»، والذين يدترون أحاسيسهم للوصول إلى العالم المحي المتغير.
كذلك حياة مني، كانت تبدو لي حالة زرقية عصبية على الركوب والسكنية.
جيشان دائم.

[]

لعبة الكلمات والنفس، والرصد المرهف الشبيه بخافة مدنية للناس والعلائق
والأحاسيس الخاصة، والهجرة الدائمة تحت جلد الأشياء. لعبة مسلية ورائعة، تخلق
إحساساً متجدداً برؤية العالم، معمداً بالدشنة والامتياز. تعطي العمر طمعاً
خصوصياً يشبه دينامو يولد باستمرار شحنتا ما أسماه لوركا «الروح المبدع».
معاً كنا نحس نبض الحياة المتدفق في عروق النفس، كنّا كلونين في قوس
قزح.

نزلنا الدرج وفوق اسفلت شوارع المدينة، سحناً.

دمشق مدينة ككثير من مدن العالم: عارات من حجر، وشوارع يعبرها
الناس والسيارات. أماكن خاصة وعمومية، بيع وشراء، لكن الوجه الآخر يغفو
تحت الجلد الظاهر. يشف ذلك الجلد إذ يغيب الإنسان عن سطوح أشياءها ويهم
في ليل صامت شفاف.

من خارة قرية تناولنا خمرة. وإذ ابتعدنا عن أبراج المراقبة قال راني: إفتح
يا عزيزي الشبل.

بأساني ففتح السدادة وقذفت بها، وناولته. شرب فامتعض. تناول شيئاً
يؤكل من كيس ورق.

شارع وشارع، ثم آخر وآخر. نسوح ونشرب ونثرثر.

- جيل خرع نحن. قال.

- لماذا لا نقول محروم، لم يرتو من حليب الثدي.

- والعصر إن العربي لني خسر.

- ألسنا احتجاج العصر؟ قلتها بدراماتيكية ساخرة.

- ضد من؟

- ضد أنفسنا.

- أنا أرفض الإدانة. الإنسان مسوِّغ أمام نفسه.

- أنا لا أدين. لكن الإنسان حرية.

- إنساننا صفر.

- والوطن؟

وقال يترق: يا أخي مصاب أنت بعقدة الإهم؟ لوثك السياسة.

- أبداً. فقط أود لو أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل وطني. وكنا قد انتقلنا

إلى ساحة الجدد.

وقال غضباً: كيف تفعل وأنت معزول. وأنت لا شيء في حساب الزمن

والوطن والتاريخ؟

وقلت جداً: ينبغي أن نغتصب الحرية.

قهقه وهو يدفق الخمر في جوفه: الوطن امرأة ورواية وصيوات تتحقق.

وقلت: وهو أيضاً اغتراف في عمل قاتل. (كنت جداً أكثر. الداخل تحرك

واغترقت طبقة اللاشعور).

ونغر: موت مغامر من أجل لا شيء. نحن مفتيون يا سيدي الثوري. خريف

عابر في فصول الزمن العربي!

غمرني حزن وشررت بحصار. كان رأسي موشكاً على الانفجار.

عن سياج حديقة الزرعة وثب وصاح: هيا أيها الفدائي!

على المرج الندي استلقينا. كان القمر فوقنا قطعة من نارنج، والحديقة مضادة
والشجر ساكناً.

- نخب الأحية!

وعبّ طويلاً. تترت الزجاجاة من فة: تريد أن تقتل نفسك بطريقة
سخيفة!

- ماذا بقي لنا غير الخمر؟

أشعلنا لفافتين: أحلم أن تنشرد سوية ونجوس كل مدن العالم. تصور. أن
يمضي عمرنا هنا في هذا الكهف النتن!

- هنا مكاننا.

- ما الذي نفعله؟

- الحفر في جدار الكهف حتى الإدماء لفتح كوة صغيرة للشمس. (كنت
أرد على سليلته ولولني الخاص: في قوس قزح) وصاح وهو يقهقه: الوطن: ها. ها.

يا للوطن المسكين الموطأ. قال ذلك يحزن فاجعي، فدايمتي رغبة نجيب.

بشبابته أمطر لحناً رقيقاً شديد الكتابة سائر الصمت وأوقد الحزن. كنا ندخل
الآن نسيج الليل والوحدة النفسية. تذكرت طفولتي النائية، وأصدقاء الطفولة الذين
ناهوا. قلت: غنّ لنا هيات يا بو الزلف.

غبّ الكلمة أمت دمة حارة. سالت حتى شارفت في. دقت طعم وطني
الخاص. على غير توقع أيقظنا ظل الحارس الليلي مرتسماً على العشب.

[]

منى. مدينة السلام المبنية في الدهن بعد أن انفجرت مدن الواقع فصارت
شظايا. بواباتها الملحمة ممرات للريح.

ومنى سلام مفقود. سراب أثت وراه قبل هبوطي دمشق.

عرفتها قبل أن أراها، وفقدتها قبل أن أكتشفها. لكنّها علاقة مجتنة ومتصلة
في آن. ابتدأنا من نهاية الأشياء وانتهينا في لحظة البدء.

عندما كان علينا أن نعيد تركيب صلتنا على ضوء حالتنا الجديدة، بعد أن
بدأنا نفهم الحدّ الفاجعي الشبيه بشفرة الموسى، كانت منى قد استأصلت من نفسها
كل أمل بإصلاح الأمور، وهكذا بدت عاجزة عن إعادة أي تركيب آخر. كانت

تقول لي في ذلك الوقت: لا بد أن الإنسان يتشظى كلوح زجاج بيوي من الطابق العاشر. هذا ما يحدث في النهاية.

لشد ما أشعر بالمرارة الآن وأنا أحاول استحضار الصورتين على شاشة ذاكرتي: منى الحلم ومنى المبددة.

المرأة التي كنت أنصورها مقتلة من أدرا ن قومها، بعد أن تمردت بكل صنوف العذاب والآلام التي طهرتها فكانتها من جديد. كنت أعتقد أنها أقوى وأكثر تماسكاً أمام الصدمة، بل كنت أذهب إلى أبعد من ذلك متخيلاً أن هذا الانتهاك هو الوسيلة الناجمة لشفتائها وإعادة خلقها على نحو إرادي، تلعب فيه علاقتنا وحواراتنا الصريحة دوراً أساسياً.

لم يكن باستطاعتي أن أعتقد أنني سأخسرهما يوماً رغم إلحاحها الدائم على هاجس الرحيل، وإذ كنت أقول لها أنك تهربين من شيء هو معمول في المسام والدم، وأن هذا الشيء سيعود إلى الظهور في أي مكان آخر، وهذا الهاجس ليس أكثر من وهم في لعبة قديمة حاولها الآخرون وخسروا فيها، كانت تردّ بأنني أريدها لنفسني، وأن الرجل هنا مهما بالغ في محاولة انتقاؤه من قيود قومه، هو في النهاية يريد المرأة له. يرغب أن يكون ماضياً نقياً وأن طعيه كعبد. إنها عقدة الآباء والأجداد القدامى الذين ورثوا أولادهم وأحفادهم فكرة الطغيان. وأضافت وهي تدبر إبرة الملبأع: أنا أعتقد أن أي رجل إذا لم يكن طاعية لا بد أن يعمل في دمه ببعض صفات الأثوثة. وهكذا ترى أن الذنب ليس ذنبنا. أعني لسنا أحراراً كما ينبغي. لست أدري لماذا كنت معها وضدها في الوقت نفسه. ولكي يتوضح هذا الإبهام المختلط علي، كنت أطمح بالخروج معاً من هذه المدينة التي بدت لي وكأنها قد ضربتنا بلا شفقة في مركز من مراكز الإحساس فأفقدتنا بعض صوابنا.

كانت فكرة الرحيل معاً ذات حدين: الفوز بها لأنني أصبحت أحبها على نحو شبه مرضي تأنم حدود الهوس. وثانياً لتحقيق ذلك الوهم الملح وهو أنني ومنى نستطيع إعادة بناء كوننا بشكل جديد خلّاق.

كان التصور الثاني شبيه حلم أسطوري. يحمل الكثير من الرومانسية في جانب من جوانبه، وفي الجانب الآخر منه - وهذا ما كان يؤرقني - كان يبدو لي أميلاً وحقيقياً. كنت مأخوذاً دائماً بهذه الفكرة: كل ما هو غير متحقق، يظل حلمًا.

رومانسياً حتى يتحقق، لا فرق في ذلك بين تناول فنجان قهوة أو الصعود إلى القمر.

في هذه الحالة الخاصة والصعبة، كانت منى هي الضمير الثاني الراقد تحت طبقات التلج خلال الأعوام الممضة من السيان وممارسة الألعاب الشخصية.

كان الوقت غروباً ونغن في الغرفة التي لا تعرف الضوء. منى تدخن بجيويتها العvisية وأنا أحسني بعض البيرة المزوجة بالرق. طلبت منها أن تشرب قليلاً فرفضت. قالت: ساعدت بعض القهوة. وخرجت إلى المطبخ.

مع الزمن تحولت هذه الغرفة المعزولة عن العالم والشمس إلى ما يشبه المبد لنا نحن الإثنين فقط. وفي أصائل عديدة كانت تأتي إلى هنا في غيابي. نقرأ أو نكتب شعراً أو تستلني، وإذ لا أعود تترك بعض العبارات القصيرة أو زهرة ياسمين في صفحة كتاب، وأحياناً تكتني ببعثرة الكتب على الطاولة أو السرير.

عندما عادت حاملة القهوة، رنوت إليها. بدا وجهها في لون الشفق وعيناها ترسلان بريقاً كانت أشعته تضئ الغرفة وتضيئي. وهزني فرح غامر: أنها هنا ما تزال!

وهي تصب القهوة حاذى وجهها وجهي فطوقني وهجها ورائحتها. على خدها الأيسر لثتها فلم تبدر منها أية حركة. وبهذه استمرت تصب القهوة.

وضعت لي فنجاناً قرب كأس الخمر ثم تناولت أخرى لها وراحت ترشف: سيكارة. أشعلت لفافتين وناولتني واحدة.

كانت الغرفة ترسو في محيط من الهدوء، تقطعه رشقات خافتة، وإذ استطل الصمت سألت: أيه. لماذا لا نتحدث. أنظف مبحراً؟ ولكرت خاصرتي بطرف سابنها: عندما تكتئب يبدو وجهك مائلاً لوجه رجل يساق إلى ساحة إعدام.

- بدأت أحس بالني.

بدت الجملة وكأنها سقطت سهواً. كأنما شيء فافض هوى فلم يترك أثراً. تناولت منى الرايو الصغير وفتحته. كانت الموسيقى هي الرد اللاشعوري على جملي. أحزني برودها. هذه اللامبالاة التي تنقصها في لحظات الشدة. قلت: أعتقدني أنني أياأل؟ وأكسي وجهها بغلالة ألم. ضغطت بطرف أسنانها شفتها السفلى ثم تهتت: لا بد أننا نعدب أنفسنا دونما جدوى.

أوضحتُ لها أننا لم نقرر شيئاً منذ التقينا. فقط نلهو بعواطفنا ونبدد الزمن بهذه اللقاءات التي تشبه المخدر. لورقنا فقط أن نكون معاً، أن نظل معاً، لكان من الممكن تخفيف وطأة المنفى: هذا ما أشعر به على الأقل.

ضحكت بمرارة: أعتقد جداً ذلك؟

خيل إلي أنها تترأ من فكري، فسألتها عن وجه الغربة في الموضوع بعد أن تصعدت الآمال وأبدت التزع داخل النفوس. رمعتني بتركيز. أغلقت الراديو: إسمع أنت أما حالم أو مجنون! هل سمعت في تاريخ حياتك أن باستطاعة اثنين أن يبنيا العالم من جديد؟ ثم أنا وأنت من الذي قال أننا نملك كامل حريتنا؟

كانت تتحدث بصوت طباقته وصلت أوجها وهي تسأل سؤالها الأخير.

في ذلك الغروب الذي أذكره الآن جيداً، اجتاحنا حوار عقلي حاد ومرير حول الحرية والهجرة واللوات الدخالية التي راكمتها سنوات الطفولة والاضطهاد والارث. وكانت وجهة نظرها مركزة حول ما سمته البقع السوداء التي تلتصق بالنفس. البقع التي استعصت على المحو.

لقد أوضحت لي يومذاك بأن تلك الندوب العميقة تتحول مع الأيام إلى أصفاد زمنية تأسر الإنسان وتؤطره داخل قواقع لا يقوى على الخروج منها، وهذه القواقع تتحول بفعل الاعتياد إلى قوانين نفسية معترضة، قوانين مستترة تمرد على المادي والرياضي في الحياة أحياناً. هذه القوانين قد تعطب الوجود البشري وتخلخله.

وأذكر أن فكري في الرد عليها يومذاك كانت تتلخص بأن الإنسان يلقظ الذي يجاز ذاكرة وقادة لا تلتطفن، هو الذي يبقى في مواضع الخطر حفاظاً على حيوية التغيير. ليس المغامر بل الثوري، ولا بد من التفریق بينهما. ومن أجل أن نكون هكذا لا بد من خرق اليومي والتاريخي بلا خوف. لا بد من عبور النار الدخالية في محاولة تطهيرية، بذلك تتألق النفس وتظل في مركز الوهج. وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكر القديم.

كانت منى تبسم على نحو طفولي. قالت: إنك تتحدث كشاعر. هذا إذا لم أقل أنك تنسى الوضع الفردي والظروف التي تحكم حركة كل إنسان. وسألها إن

كانت تعتقد أن القوانين النفسية التي أشارت إليها، هي التي تحكمنا فقط. وكان ردّها بدور حول ردود الأفعال الآتية والزمن المستغرق في تفرغ الرغبة الذاتية. ثم

ختمت فكرتها بأن الزمن الذي نحيا فيه ربما كان حلقة بين الانحطاط والتألق الذي أشرت أنا إليه، وقالت بأن التعثر قد يستغرق أكثر من جيل.

كنت أشرب بهدوء، وكانت الخمرة تتلاشى عبر هذا الحوار العقلي الذي اشتبكنا فيه، وقد نسي كل منا أن الزمن الحقيقي بين رجل وامرأة في غرفة سرية يُبدد في أمور أخرى ربما كانت أكثر جدوى.

لكن منى كانت قربي. بيننا بضعة ستيمترات وقد لفت ساقاً فوق أخرى شايكة أصابع يديها الناعمتين تحت ركبتيها، فبدت بوجهها وشفتيها الكرزيتين. وهذا الانفصاح العالي من صدرها وساقها، امرأة يشتهي أي رجل ولو كان قديساً أن يركع أمامها مبتهلاً لهذا البريق الخاطف، الخارج من كل جسدها أشعة وروائح. أه. الجنس الطاعني ليس إلا. لكن منى الأخرى كانت هناك. تنأى كقطار ينشر عوره في المخططات دخاناً يمتصه الفضاء، غملاً صغيراً داوياً حزناً، تردد صده الأودية والسفوح. قطار بعد أن يغيب خلف المنطقات لا يظل منه في قرارة الذاكرة غير ذلك الرجع الحزين المصدي.

□

هوذا الزمن بيننا. سيف من صوان مستون، لا هو يفرينا ولا ينكسر. كنا نبدو منفيين داخل قلعة، شبيه حشرتين متتايتين في نسج عنكبوت، وأية حركة لمحاولة الخروج كانت في النهاية التفاف مزيد من الخيوط حول عقبتنا.

كان بودي أن أشرح لها هذه الفكرة. أن أقول أن العنكبوت يقترّب وعليها أن تفعل شيئاً ما ولو أدى هذا إلى الموت، غير أن الفكرة بدت غير مقنعة، ومن خلال حس المنفى والصدوع الداخلية، شعرت بأننا أصغر من الحياة التي قدنا فيها، أو أن قدرنا لعتنا، كنت دائماً أرفضه، بطوقنا، وبينني والثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين، ذرات هذا الحائط الوهمي الصلب الذي يقوم على أنقاض عمرينا.

وفي زحمة طغيان هذا الشعور القاهر تتسائل: كيف تنجو من هذا الجحيم؟ امرأة لم تقل يوماً أنها تحبك وعبر كل ثانية تمر تشتهي أن تتحلّ فيها وتتحلّ فيك. نفتتها إلى جواهرها الأساسية الأولى، ثم تعيد تركيبها من جديد صانعاً الصورة التي تريد.

ولكن من الذي يملك القدرة على الخلق وبث الروح في الشيء الذي ولد بطريقة خاطئة، من نقطة حملت كل ذلك العطب الشرب به الدم؟

لشد ما يبدو ذلك طويلاً ورغم أنه يبدو وكأنه الحركة الأساسية لتزيين شبكة العنكبوت والخروج!

ليل دمشق مسرة خصوصية. داخله تسوح. تحلم. تتذكر وتغزل. ترسم في فراغه الحميم ما نشأ من الصور مشيداً جمهوريات من فرح وعدل، وعلى مدى كتبنا الأماني ترتفع عبر هذه الليالي في صحاراك وصحاري الآخرين.

إنه الزمن يلف ويدور. تارة كالخيل حول الرقاب، وتارة كالاعصار. كلمات. كلمات عما ينبغي أن يكون ولا يكون، وسباق حار من خلال التصورات. لهفاً صوب أشياء لا نجيء. ارتسمت في الذهن يوماً إثر يوم، تخرج من الداخل فتصطدم بالفراغ والجدران ووجوه الآخرين، لكنها لا تلبث. أن تنكش مع بداية أول ضوء لنهار ساطع آخر، منتظرة هبوط ليل جديد لتغذف مرة أخرى.

هل هو زلزال فردي وجماعي هذا الذي ترتعش به تلك الأراضي البور بعد أن انتظرت طويلاً موسم الأمطار وليس غير الشمس والظما؟

□

وفي ذلك العصر الملحمي، كانت تلك الإرسامات والإشارات المبهمة، تبدو وكأنها نوع من هتك السر، في حين أن رموزها الخفية وسرها المغلق، كانا يلوحان كبقعة زيت أخذت تنتشر فوق جميع السطوح مشيرة إلى الخطر، نازعة في الوقت نفسه إلى بلوغ نوع من السكينة والخلاص اللذين طمنا قبل سن البلوغ. في أعالي كنت أحس ذلك البطء في النمو. كان ذلك الشعور الكسيع يحتاجني بعد لقاءني مع منى، كذلك عندما كنت أنتهي أنا وأمينة من الفصل الجنسي متشددتين كجربحين في مستطيل الصمت داخل فراغ العالم الموحش.

عندما كنت أنجم إلى غرفتي في سحر الليالي الدمشقية الساكنة، كان رأسي الدائخ المشوج بهجس في أنني ربما اكتشفت نقطة ارتكاز على خريطة جسدي. وأنا أمضي، تنحل في ربيع وسكينة المدينة غلالة من أمل حان، فأغفل عن لمعان الضوء فوق الشوارع، وحيف الشجر، وهذا الصمت السحري، ثم لفتني وتلك المربية الصامته لفجأة نفسها أثر انتهاء لعبة الجسد.

ها هي ذي. تقف في الحجرة، وقد ارتدت غلالة شفافه. مجد صباها الغارب قر على حافة الغياب، تسبح في نهر من الضوء البرتقالي، هو جسري إليها، مادة ذراعين يضاوئين مزغين في ملمس الحرير والعشب. تتلفاني وتقودني إلى سرير أخضر، لوقع جسدينا عليه صوت أخضر، ولحركة جسدها ورانحتها إيقاع أخضر، ونغيب. تنتهي منى بالولوع الجنسي. فأدافع عن نفسي: لا ليس بهذه الدرجة. أنا أحس في أعالي عرقاً من الصوفية. منى، ألم تشعر يوماً بذلك؟ تقول: لكن الصوفي لا يشتهي الجسد. وتبدأ مشروع ابتسامه. وأقول جاداً: أبداً. صوفي عصرنا يشتهي الجسد والنفس معاً. أنا عنيت بالصوفي الاخلاص حتى التلاشي.

— ها. متصوف مودرن. وتبسم. أنعم جملتي: ولكن وأسفاه ما أنا بظائل أيها. أفكر أحياناً أنك ككلام عصية على المسك. تنهض وعلى وجهها سباه كآبة. عارية تماماً على حافة السرير. تنزل قليلاً قدمها تأرجحان. تتوقف الحركة ثم تمد طرف سبابتها تحط خطوطاً فوق بشرة فخذها. أراقبها مستنداً بظهري على الجدار: تكئين شعراً أم تحصين من اضطجعت معهم؟

انزلت نهاياً عن السرير فلاح كفلها يتر. اشتبهت مرة أخرى. عندما هممت أصبح بها: عودي. كانت قد تناولت ثيابها وبدأت ترتديها بانفعال باو.

قبل أن يموت أبي بالتسمم الخمري في الدم، كان يسمي النساء بالعلق: هؤلاء اللواتي يمتصن دم الرجل من ظهره!

أترأه كان يدرك أن زمناً غريباً بلا لون ولا طعم ولا رائحة، سيقبل. زمن له كل الألوان وكل الروائح وكل الطعوم وقد اختلطت بكونيتك غريب. فقط كان يتنبأ بالحرب لأن الكتب السرية كانت تقول ذلك. ولكنه كان يشف ويصفو كينايه القمم عندما تخترقه الخمرة.

□

هذه الفرقة الجانبية التي تظل على الشارع فيها امرأة بعمر أمني. وجهها قريب من وجه أمني. دائماً أرى ذلك بعد أن تنتهي، وفي هذه الفرقة أيضاً طفلة في الثانية عشرة. عالمها المدرسة والعالمها. إنها تصنع ألعاباً ودمى ولوحات ولا أبراً منها. تقول: انظر إلى هذه اللوحة! ثم تريني الأصل: قطعة توسد حضن طفلة تطعمها. تحذثني سميّة عن قطها الصغير. تناديه فير وهو يهرول واثباً إلى حضنها. تمد شعره

الأسود قيموه: فريد بنام معي لكن أُمي تتزعج منه. صنعت له فراشاً هناك في الزاوية. ثم تسألني بغتة: عمو. إننا لا نراك إلا لماماً لماذا؟

- العمل سمية.

- نتمنى لو نراك دائماً. لو تسكن معنا. ثم ترنو خجلة نحو أمها.

- وأنا أيضاً حبيبي أرغب ذلك من كل قلبي.

- تعال إلينا. ماما تريد ذلك. أليس كذلك ماما؟

أمنية تتند. تحادث بكلمات مبهمة مع سمية. أقول لأمنية أن سمية طفلة رائعة فتقول: لكنها بلا أب.

هو هناك بين الحيطان العالية. ذئب جريح في قفص ضيق. الخمرة وحدها تبدو المفتاح الوحيد إلى الصحارى والواحات. افاق بلا مدى تمتد، وفوق المشب غلمان وحوريات وأصداء الزمن المنقرض.

وكان لأيوب عصر وفورات تشبه غضب البحر. مزارع وخدم وأحصنة وأسفار. الأرض بطوها وعرضها كانت في ركاب أيوب السرحان. من أجله تشرق الشمس وتلألأ القمر وتغني فانتات (الأوريان بالاس) وهو يدفع ويدفع ويدفع. يشرب ويصرخ، ومن فندق إلى آخر. من مدينة إلى أخرى مع الشلة التي اختارها واختارته. كان أيوب سيد الزمن القديم.

كذبت على أمينة: أنا مريض. الطبيب قال: لو تزوجت فستموت. أنت مصاب بروماتيزم القلب.

وكما نحو أم النصقت بي وطوقني. قبلتني على خدي وصدغي وشعري. تناولت رأسي وأراحتته على صدرها، وراحت تمدد شعري. كنت أحس وجيب قلبها تحت رأسي. سألتني: إذن لماذا تفعل الجنس بهذه الغزارة؟

وسألتها ان كنت أفعله أكثر مما ينبغي، فرفعت أصابع ثلاثة وهي تنهه ضحكة: كما يفعل الفحل.

- ثلاث مرات في الليلة الواحدة. آخ لو رآك الطبيب! واندغمنا في ضحكة خافتة مشتركة.

طوقتها بحبوية ضاغطةً بلاطة ظهرها. ورحلت أمرغ أني تحت ذقتها وفوق جلد رقبها وبشوة قلت:

أنت أعظم امرأة في العالم.

فجأة ردت: عندما أكون عارية. هاه!

أجبت: إذا كان سيدك عفيفاً أنا ما علاقتي؟

- وإذا كنت يا مهذب شهوانياً أنا ما ذنبي؟

هكذا كنا نكتشف اللعبة. كل منا بطريقته الخاصة لحظات السكينة والهبوط. اللحظات التي تبدو لامعة وهادئة كسطح بحيرة اصطناعية.

الجيشان الباطني الذي لا ترغب في الافصح عنه، بعد ان بدأت تترك شكى بعلاقتها المسترة مع الآخرين.

كانت بجاني هذا الموضوع تسبب العذاب والراحة معا لكيها. فحتى ذلك الوقت وبعد أن خرجت شكوكي الى دائرة الضوء، لم أكن مقتنعا بمدى مصارحتها. وفي لحظات وحدتي بعيدا عنها كنت افكر: من أين اوتيت تلك القوة لخلق هذا التوازن بيني وبينهم؟ ولماذا ترضي ان تكون لنا جميعا دوما حس بالإنم؟

كنت أهرب من الحاح كلمة: بغي، لأنها لم تكن كذلك، انما لانني كنت ارفض لها أن توطأ على هذا النحو الخسيس باجساد الكذبة والشهوانين والحمقى والمراحمين، هؤلاء الذين عشقوا رغباتهم العابرة في طفولة جسدهم البراق. لقد زرعوا في ارضها الخصبة بذور الشوك والصبار فلم خانوها بلا ندم. عندما كنت أصل الى هذه المنطقة من حالتها، أتذكر وضعها المنشطر، لحظة تزحف رائحة الجنس الى أنفينا متسرية من احتكاك مباحث الليدين أو الفخذين. اذ ذاك تنطلق شرارة من مكان، فتتوهج العيون ويبدأ القلب ضرباته المتسارعة. كتيار تجتاز الجسد عشة تتلوها رعشات، وتحول الغرفة الى غابة والسرير الى عشب، ويبدأ هطول المطر والروائح، فالنار.

في ذلك الوقت الفاصل بين الموت والخلود، بين الحلول بكل ما هو حي وجامد على سطح الارض، والغياب داخل طيف ملون هلامي وصاق، تنقسم منى متحولة الى شهيد في حالة نزع كأنما يستل روحها ملاك معذب بينما ينتصب جسدها شيطان.

[]

من أطرف الامور ان هذه الافكار السيئة والحزنة، كانت تتنامى وانا أغادر حجرة امينة في اماسي دمشق الأسية، غائراً شارع الصالحية وحي المزرعة المظلل بأشجار السنسريت وغياض الياسمين، والمهجور من الناس بعد ان يخمد وجيب الجسد. اثر ذلك كنت اتساءل: هل كانت افكاري نوعا من التيكيت؟ وهل انا سيء في علاقتي مع امينة؟ والذي بيننا هل هو حرام ام شظية نأر؟ كانت احساسات الخلق حادة. ان تصنع شيئا وتعلق به بعنف قائلاً: هذا خلقته انا. انه لي.

أنت شهواني ليس للجنس فقط، إنما لكل الأشياء التي تفسج في أعماقك. تلك التي ضيقت بمكبس الزمن والتي ترسم الآن كسرابتك عبر طرقاتك فلا تصل إليها.

آه هؤلاء القوم. انك تفكر بهم كثيرا وهم متخلون عنك منذ زمن. لقد بدأت تهتر وتقطع علاقتك الجدلية معهم. انها علاقة من طرف واحد. ولكن لماذا دفنوا حياتهم الخلاقة على هذا النحو المضجع واستعاضوا عنها بما يشبه الحياة؟ ولم يكتفوا بذلك. ها هم يتحولون الى قضاة وجلادين. ولكنك تتقدم. يخيل اليك انك تتقدم. تقول: ليكن. سأحيا كما أريد فحياتي تعني وحدي. تريد أن تسليخ اذن منسحباً الى طرف قصي. ولكن أين يقع ذلك الطرف المضيء؟

ومن غياية الذاكرة تحضرها. نحاول ان نشرح لها لماذا العربي في المنفى. كانت تسمح في الوقت الذي تبدو فيه غير مهتمة. بين حين وآخر تعلق على الحديث بكنة او ابتسامة قائلة: انك تعقد الامور وتبالغ اكثر مما ينبغي. العربي مصاب بعقدة استحلاب الالم.

لكنني اقول: بل انت متفية اكثر منهم جميعاً وترفضين الخروج من منفاك. رحيلك هذا الهاجس اللعين يسد كل أبواب التفاهم بيننا. كوني معي مرة واحدة. منذ سنوات وكل منا يحكي بلغة مختلفة. لغة منفصلة. لكنها كانت تصمت. فقط تنحرك. تنقل شيئا من مكانه. تفتح كتاباً او تقوم بحركة رقص مبتورة او تمشط شعرها القمحي القصير باصابعها الوردية منلمة رأسها الى الاعلى والخلف. لم تكن تستطيع التوقف عن الحركة كأنها مسكونة بألت جني. كان ذلك يعوّض قليلا عن

وان لا تنفد فقط وتطوك الاوامر وانت منح كقصن تحت ربح ، رافضاً
الذين طفوا على سطح التيار وانجرفوا.

ثم ، مسراتك ، حريتك ، أرضك الصلبة ، أين هي في ربح الضجيج
الأعمى؟

وكرد فعل ربما ، كنا نبدد حياتنا بالخمير والكلمات ، في محاولة يائسة للتعبير
عن الحرية ، ومع تساقط الزمن تشتت طاقاتنا ، ويسخّ جين الخلق والفعل ؛
تلاشيه وتهرس قطارات الأيام السريعة .

في «الالبزيم» القينا صدفه . عرفه راني علي . وانا أصفاحه تملّيت قامته
المديدة ، وصدره العريض ، ووجهه الناضح صحة وشهوة : الشاعر العذري سامر
البدوي .

وضحك راني : شيلي عبد الله .
فجأة أطلق سامر/شيمه . تناول كأسه ورفعوه : نخيل ايها الربيعي الخجول .
وغب .

بافتضاب ابتسمت . وانطلق يتحدث بعفوية وفصائح . كنت صامتاً وسط
مجموعة من المثقفين ، بينهم شعراء وروائيون ومسرحيون ، شبيه دودة انكشت امام
خطر حدسته . مذ قدم الى طاولتنا ، هيمن على الجو بالسخرية والسياسة
والضحكات المشرعة ، وبدا حوار راني معه مباحاً وهجولياً . قلت لنفسه : أذو
الجثة هذا شاعر؟

كحيوان صحراوي مضى عليه دهر بلا طعام ، هجم على المائدة . كان
يشرب ويأكل ويتحدث بنقة لها طابع الاجتياح ، كأنما العالم ملكه والحاضرون
حاشية .

وسأله راني : أراك وحيداً على غير العادة ، أين حريمك سامر؟

وبهت وجهه امتناعاً : اسمعوا . اخونا يريد ان ينكت . يا اخي انت تصلح
لكتابة قصة وتشبية ناي وبس .

ورد راني : وأنت لا بد انك تصلح لجمع اسماء عشيقاتك في دفاترك
الشعرية .

ابتلعها : اضحكوا يا اخوان ولو كانت سخيفة .

وقال آخر : سامر استعاض عن الاسماء بأرقام الهواتف .

وعقب آخر : رأس سامر مقسم .

قال رابع : مهلاً يا جاعة . سامر تحول الى عاشق رومانسي . عشيقاته في هذه
الايام دون الخمسين .

وشالت ضحكة مثقفة . نشق بأنفه ثم نهّد ثم بصق على الارض : لا بد ان
السيدة والدتك المحترمة قد باحت بالسر اخيراً .

واذ شعر انه مركز الهجوم ، قل الحديث باتجاهي : راني . السيد . شيلي
صديقك الزميت لماذا يبدو صامتاً على طريقة همنجواي في باريس؟

وقال راني : يستمتع بطلاوة احاديثك الشعرية .

أشعل لفاقة «كنت» بقداحة «دويون» أنيقة ، ثم زفر الدخان وتوجّه بعينه
الشهوتين نحو : أخي لا تفعل البراءة ولا تحم بها . أيام قليلة ونفّض دمشق
بكاترك . تلوثك ولو كنت المسيح . هذه مدينة الخمر والسياسة والموت والنساء .

طبعاً النساء بتحفظ .

وابتده راني : منك !

- يا اخي ما قصتك انت . محارم عنه ؟ لسانه بطول لسان الكلب ويستطيع
أن يحجب .

ضحك ثم استطرد : عفواً اذا كان التعبير فجاً . أنا لا اعتذر من أحد ولكن
باعبارك ما تزال بغواً لا بأس . انا هكذا .

وعقب راني : افضل من ان يكون بغياً !

جو الكهف اسباني ، ذو طعم حار ، يفيض عذوبة ووجداً . في ساحة الرقص
امرأة تلوى برقصة إيقاعية لها سريان شهوي مؤلم في اجساد الرجال . سامر البدوي
متشرب بالحديث والشرب وتعلق زمرة المثقفين حوله ، وانا افكر : «كيف قذفت في
هذا العالم الغريب؟»

أية وحشة واي ضيق لا يمكن الافصاح عنها . أحسست اني ضئيل ، مرمي
في متاهة . عبرتني فكرة المغادرة بعيداً عن العيون والناس والوجوه المخيفة : ولماذا
بي زعر من البشر الشديدي الملامسة حتى لا كاد أشعر بهم يهبطون بثقلهم علي؟

تمكنتني رغبة الجري في الشوارع والخروج الى البراري الموحشة، وانا أحقد في المرأة التي تتلوى كأفغوان.

كانت الرغبة في كل مكان، وكانت لها رائحة تُشم في العيون والاجساد، في جدران الكهف وفي الخمر، وفي وجهها المتأرجح. كانت تلبس فستانا مشمشيا محسوراً فوق الركبتين، يظهر بلاطة ظهرها الياقوتي المحروق، وييدي قليلا من أرومة ثديها الموقعين بارتحافها علاقة تمتد منها الى أعماق الرجال.

وهي ترقص حافية، بدت تواصل لعبة نرجسية، فيها مهارة، وبين فينة واخرى كانت تغطي عينيها بأصابعها بذلك الحفر الأثوري المفتعل.

كان الضوء شحيحاً. ثمة غلالة صفيح تلتفح الوجوه والجلد العاري.

وهذه الموسيقى التي تنشر الروائح أكثر. النقاش مستمر في عالم صاحب ملغم بضباب خمركي بينا سامر البدوي سيد هذا العالم، مستمر في تأكيد وجوده الاعظم.

عن الشعر والصدافات والنساء والخمر، حكى. كان يتشم بعدوبة حيناً وحيناً بمرارة، وهاجموه، وإثنا عليه.

وقالت النفس: «ماذا يحكي انسان خائف مثلي في محيط يتقن بكاروه العم وهو لا يتقن السباحة بعد؟»

وانضم الى الحلبة نساء ورجال. وهمس لي رائي: رقصة التانغو الحاملة!

كانت الموسيقى حنونة، وداهمني حزن خاص. حزن رجل وحيد. كم كانت منى بعيدة الآن. مذ عرفتها حلمت ان نلتني في كهف ليلي هادئ، وحيدين داخل زاوية مظلمة وصامتة، احداثاً وتهمس لي، اضمها بجمان بعيد عن الشهوة، نبوح وتعلمني رقص ناس مدينتها، ثم نبحر عبر الليالي الدمشقية المفعمة برائحة الياسمين ورائحتها. نخرج الى الضواحي وتترعرع فوق الشعب ثم نتيه على غير هدى نحو لا مكان محدد في هذا العالم.

وحضر رجل مثقف ومعه امرأة عرفنا بها سامر البدوي. سلمت وجلست قربه. ناولها كأسه فاحتست بأناقة، وبوداعة مفتعلة راحت تتحدث.

كف سامر البدوي عن الثرثرة، فبدت الارض وكأنها قد توقفت عن الدوران في رأسه، وراح يتعلم المرأة باحتفال متعبد. طلب لها خراً وقدم سجائره وأشمل لها. وضمر الحضور.

لكزني رائي هامساً: ما رايك؟

— امرأة اساسية. قلتها بغفوة.

وغنم ضحكة لكلمة اساسية: آه يا كاهن اللغة. يا فاسق!

أولها جميعاً اهتماماً مركزياً. وسألوها عن كتبها وماذا تكتب الآن ورأيها في القصة العربية المعاصرة ومدارس الادب، وردت باقتضاب وهي توزع ابتساماتها على الحاضرين. تحدثت عن الادب الفرنسي بشكل خاص، وعن حياتها في باريس وإنها تكتب الآن رواية باللغة الفرنسية. كانت تتحدث بعدوبة امرأة تعرف ضعف الرجال وتهالكهم، وتعرف نفسها جيداً. واحتدم جدل حول مدارس الادب وحول الالتزام، وأقصحت عن رأيها بانها ترى في الالتزام فخاً وهي ترفضه إن كان يعني القسر.

وسألها سامر: ماذا تعنين بالقسر؟

— التصف الايديولوجي.

وقال مثقف بيجاجة فوقية: الحرية مفقودة. فرد سامر بتزق: نحن نفكر بعقل اوروي.

رد رائي: عندما تمتلك قدرة التحليل تمتلك قدرة الكشف. الادب مغامر يرود بمجاهل النفس. انسانا العربي يقيم تحت ركام من الدهور المتشظية الناقصة، والمأساة تكن في اندام الرضى. في النقص الكوني لأن نطال الاشياء الطبيعية وهذا يبدو مستحيلًا. الامور الصغيرة مستحيلة. ثمة سدود وموانع ممتدة من ساء آلاف السنوات متغلغلة حتى الاشعار المأصاة في نفوسنا فكيف نكون اسوياء ازاء هذا الحجر الوجودي؟

قالت المرأة: هذا صحيح. لسنا اصحاء.

واذ اشمل سامر لافاقة ونفث دخانها، تمللم يريد ان يقول شيئاً.

خلت الحلبة بينما استمرت موسيقى كلاسيكية مريحة، واذا قال احدهم: معظم المثقفين معزولون عن الشعب ونحن لا نفهم الشقاء الحقيقي. شقاء ابطالنا شقاء ميتافيزيقي.

نهد سامر: ليست عزلة بقدر ما هي عجز. انا اوافق رائي الى حد ما،

ولكنني انظر الى الموضوع من وجهة نظر الخيانة احيانا. لماذا انتحر ماباكوفسكي
ابان الثورة مثلا؟

قال راني: لأنه خاب. تحطم مثال ماباكوفسكي بالثورة فلم يعد لوجوده في
عصره اي مسوّغ.

لقد قال يسين قبل الانتحار: «يبدو ان شعري ليس ضروريا هنا ويبدو
انني لست ضروريا انا الآخر ايضا». هذا ما اراد ان يقوله ماباكوفسكي قبل لحظة
انتحاره.

انهم زمن الكد، بانث على وجه سامر كآبة وملل. شعر بأن عليه أن
يتحرك. كان محاصراً بضيق ظهر في حركاته. جرع ما تبقى في كأسه. شكرتنا المرأة
ومضت. وفي اثرها مضى سامر دون ان يقول كلمة.

□

عندما خرجنا الى الشوارع كانت دمشق تغتسل بصحوها التام. مفعمة
بالصمت العذب، لرائحة جسدها العجري طعم رطب.

قال راني: يا لدمشق الرائعة!

تحت ظلال الصفصاف الياكي سرنا محاذين لأحد فروع بردى الراكدة. دندن
راني حزناً شفافاً وشى برائحة انسان يكدح بجنا عن الطمأنينة. في الغسق الدمشقي
الموحش رن نداءه المبحوح، طالبا أنساً لا يجيء.

وانداح صوت نايه مغمّساً بالأسى والمرارة القديمة.

خلال برهة صمت سألته: راني هل انت كتيب؟

اجاب ملوْحاً برأسه وتابع اناشيده الجنازية الخاصة.

كنت أتملّ النجوم والشجر والشوارع الممتدة المرشوقة بالاضواء. تمنيت ان
تكون منى معنا.

قال: ألم تعجبك المرأة؟

- قليلاً.

- ألم تنزّ اهتمامك؟

قلت: ليس كثيراً.

لكنها امرأة مدهشة سبّيتها أساسية. هل نسبت؟

وثبت نحو شجرة سنسرخت. شمعت رائحة الورق الذي قطفته. عبرتي
رائحة الطفولة ورائحة أوراق خضراء قرب ساحل بحر مهجور.

قال أي: من يجا في البراري تصفو نفسه كهذا الفضاء. ومن يجا في البراري
يرتاح من ضغائن الناس.

وعلى شاشة الخمر والتذكر عبر وجه أمي الشبيه بوجه أمانة.

قال راني: لها زوج في باريس هجرته وتعب شاعرا في بيروت.

وارتجى ظل أمانة على ساحلي. في حجرتها الآن ترتقب يقظتها قدومي الطارق.
انا المخمور الناشد نساء العالم في حفصتها المبهج.

- «الى متى يستمر ذلك النشدان».

وقال: أنا اشتيتها.

وبدا أسأنا لعنة وقعت علينا منذ اعوام طويلة، ربما لا يعرف بدؤها. لست
أدري كيف خطر لي أن العربي يستلقي في تابوت محكم الاقفال، ومن داخله يحلم
بالشمس والنساء ونفث الغبار ويخيط العنكبوت التي نسجت حوله. بعنف أتفيله
يدق الجدران للطلوع من العمى. تدمى قبضته وهو يقرع لكن سمعه يظل موقراً بالقهر
والصلوات والقوانين التي استنت لزجره عن الحرام. القوانين التي وضعت من
خارجة.

ويرج صوت راني سمع الشوارع: لتسقط أخلاق السائمة. الموت للشوارع وليعيش
المارقون.

واقول: لو سمعونا؟ انتبه!

وصاح: السجن أشرف من الحياة الموسومة. أنا من انصار باكوتين والموت للدولة.

قلت لنفسى: اصرخ يا عزيزي راني وتوجع فالعالم أصمّ كاليبك.

في الشوارع والازقة طوّفنا. غنى راني بشبابته ومَرّ صمت وكلمات حزنة.

تبعثرت الحشرات الصحراوية في فضاء مدينة تضم اكثر من نصف مليون

بشري يعيشون اكثر من مليون فاجعة ؛ يسكرون ويتزوجون وينامون ليدهدهوها.

- «نام يا حبيبي نام تادخلك فرخ الحمام».

فجأة داهنا فجر دمشق البفسجي ، خجولا فنيا كطفلة تنفتح ، فهرم المساء
فينا. رفع رائي اصبعه مودعا ، وانكفا.

- ٧ -

دمشق وليالها ، حزني والوطن الجريح . ثم منى .

- من كل الذكريات التي احملها ، انت ومواطن طفولتي . هذا ما تبقى .
قلت ذلك وانا اقدم لها حفنة ياسمين حوشتها من غيضة وانا اعبر ارصعة المدينة .
شئت رالحتها ووضعتها على كرسي مجاور . كنا نجلس يومذاك في ساحة بيتنا ،
والقمر يتسلل من الشرق فارداً ضوءه على جزء من الساحة والجدار ، ولم يكن في
البيت سواها .

من داخل غرفة نومها كانت تأتينا موسيقى خفيفة ، وبين لحظة واخرى كانت
تدخل الى البيت ثم تعود ومعها متفضة او تربيضة ، وكان يبدو عليها انها قصت
شعرها منذ أيام ، وطلت قسماً منه بطلاء مذهب راح يلمع تحت ضوء القمر .
كانت هي المرة الاولى التي تقدم فيها على تغيير من هذا النوع ، وتوجست ان اراها
في مرات قادمة تظلي وجهها وشفتيها .

خلال غدوها كنت صامتا ادخن متكئا بكرسي على الجدار ، محدقاً في
الفضاء المتأر وشجر الشارع . عندما جلست ربت يدها على ركتي : هيه . الى أين
وصلت ؟

وانتهت . كان معها دفترها الصغير ، فتحته وراحت تقلب صفحاته : كبيت
قصيدة وداع . هل تسمعها ؟

وأومات موافقا بدأت تقرأ بصوت حار ما لبث ان خفت وراح يرتعش .
وهي تقرأ توزع بصري على وجهها المنور الاسيان ، وعلى اناملها وهي تقلب
الصفحة بين اصابعها المرتجفة .

في ذلك المساء احسست بالحزن يكاد يرشح من شقوق الجدران ، ومن الضوء

النهر فوق بلاط الفناء ، كانت القصيدة لميسالينا ولدمشق ولجميع الذين عشقوها
وتاجرُوا بطفولتها . وللذين لم يدركوا لماذا سترحل .

بعد ان انتهت تناولت لفاقة واشعلت لها . عن التريزة تناولت الدفتر . أعدت
قراءة القصيدة واذ وصلت الى عبارة «متعبة تبدو الشمس فوق مدينتي . إنها تسير
بترهل يشي بالموت . قلبي مرهف وعيناي تبحثان عن عينيك في صحاري مجهولة
المدى بلا ماء» ، تصورت مدى فجيعة بنا هذه التي انسكت يوماً فوقنا كمطر
شثائي خصب قبلتنا ، ثم مضينا عنها ، فحُضت وهي تدبنا جميعاً .

في تلك الليلة فاجأتني بانها سترحل بعد ايام ، تاركة دمشق نحو مكان اعتبرته
احد اسرارها الخاصة ، ولكنها وصفته بانه مريح وعذب ولن يكون عملاً على اية
حال . وسألنا: أهو الملل أم الالتك؟ فابتسمت بهزء . ربما كلاهما معا . ومرة
اخرى دارت الاسطوانة القديمة بيننا ، عن عبث الهجرة والزواج ومعطات الحلم
المفقود . واذكر انني شعرت بالرعدة وبشيء من العار وهي تقول : انك تنسى انني
ارملة واسمع يوماً الاصوات القذرة وهي تنالني . عالم دمشق ما عاد يتسع لي . في
كل ليلة اشم في عذتي ونيابي رائحة الاقدار . لقد تلوث وتسمم كل شيء هنا .

كان شعور الوحدة في غيابها يطغى علي وانا مستلق في كهفي المقفر ، فأتخيل
مرارة هذه العزلة . وضعني في هذا الزمن الخائن . لم تكن الكوايب تنفادني في
تلك الليالي . كوايب طاغية خائفة أرى فيها اني محاصر في شعاب ضيقة وحفر
لا قرار لها . واقف على حافة منحدرات عميقة مزروعة بالصخور ، وخلفي مطاردون
وانا لا استطيع ان اجري . ثم ارى ابي بوجهه الاصفر المحروث بالثلام الموت يناديني
كهي اعود الى سهول الطفولة وخيمة البحر وانا عاجز عن العودة ، أمضي عنه عبر بحار
مظلمة مليئة بهوام البحر ، احاول ان اصطاد اسماكاً بشصوص هلامية ، فأهوي في
البحر وأوغل في الاعماق وورائي حيتان واقراش جائعة . وفي تجاويف الصخور
اعلق . فينتقل الكابوس الى صحاري وبرايا لا عشب فيها . حيوانات ميتة . وعول
وغزلان وأرانب وطيور سود تلتق في سماء حادة . تطاردني الطيور فأسمع انفجارات
واتعثر يقتل فأسقط . عبر الصحراء اشعر بجثتي تنجر وأنا منكب على وجهي
وخطوط دم غند كالافاعي ثم تتحرك . تطير الافاعي في آفاق رمادية وصغراء .
فأذكر في الحلم بان هذا الاق المغير يذكر يوم من ايام الحرب . مذعوراً اصبح :
منى . منى . أين أنت؟ يضع صدى صوتي في الغبار . وتستمر المطاردة . واصحو .

بعدوبة شهوة كنت أتملئ الرغب الثابت تحت سالفها المرشوق بالضوء . واذ حاولت
أن أرحح صخرة الحزن للمقاء فوقنا بكلمة : سيفتقدك القمر ! نظرتُ لي في الم الى
القمر الذي بدأ ينحدر خلف احدى العارات : تعلمون اكثر مما ينبغي .

— ستبعدين لكننا لن ننسك !
باستخفاف تهر رأسها وتقول : لا شيء في هذا العالم لا ينسى . الناس هنا
يفوصون في آبارهم بما فيه الكفاية .

أقول : نحن ناقصون . لا بد لك ان تفهمي ذلك .
وبعيني وعلة مقهورة ، أصيب قلبها بيم مبرك . تنهد . لا تحب . بهدوء أمد
يدي . أنيم نصفها الماحول فوق حضني بينا النصف الآخر يتمدد على الكرسي .
يتصالب وجهانا . تتسلل أصابعي لتسح خديها وصدغها ونحرها . وأنا أفرد
خصلات شعرها القمحي ، اقمعتني رائحة انفاسها وقد عكرتها رائحة الصباغ :
لم يكن شعرك يمثل هذه الخشونة فيها منى .

مسدت حاجبها وأنفها الصغير : وستفتدك دمشق . منى !
في الضوء التمع بريق راح يتفرق تحت الحنئين ، تمر لحظة ، ولما رقتُها انحدر
خط متعرج احسست بدفئه يعبّر رؤوس انامي .

لقد عاد الحزن يشعل المكان بينا انطفأ ضوء القمر وغاب .
وانا اخرج ، كنت ما أزال لبللاً بالكآبة . وثياً اجتاز الشارع . وجهي مغروس
في الارض والناس يعبرون . نحو جميع الدروب التي عبرنا : «الى أين؟»
ودمشق تيه . كذلك منى . صحراء من العطش والجوع واللهفة . تضع فيها
ولأحد يسأل : من أنت؟ كيف ولماذا جئت دمشق في هذا الزمن الضيق؟
منذ قامت هذه الحجارة ، وشمخت ، كانت ممراً فقط .

مقبرة للذين حكوا ، والذين عشقوا ، والذين جاؤوا من الاقاصي . خطر ذلك
في الذاكرة شبيه ومض قاتل .

هي ذي حديقة السبكي مزدهرة بالضوء والمجران البشري . هنا لم يبق الا
المكان والروائح وهبوب الزمن القديم . وفي كل غروب كانت تأتي ومعها مفتاح .
وانت مستلق على فراشك تصلي لقدومها الاصلي ، صلاة المغرب . هوذا صوت
حذاءها يضرب بلاط المرمر . ويشن الباب .

— منى !

بها كان يمثل المكان. نعر الحجر بالفاتنة الدمشقية الموردة كالشفق.
فتزدهر الاحاسيس وتتلون. تهب بقدموها كل أفراح الحياة مشتعلة في النفس
والهجارة.

وتهزني. تغذف اللحاف: أيها الكسول المتغابي.

في غرفة معزولة عن ضجيج العالم يورق نشيد الفرح والتملك. أتململ نافضاً
غبار النوم الكاذب، ثم أتب مسحوراً لألقاها داخل هذا الحجر الصغير الذي
يؤوبنا. تتحرك. تقلب الكتب ثم تتناول زجاجة بيرة، وتفتح الراديو.

- انا جائعة.

تحضر الطعام وتبدأ المسرة.

تقرأ شعراً بدايتاً. تسألني: ما رأيك؟

ابسم اغاضا. ندخن. أقول: لديك امكانية.

- سأكون شاعرة هاه ؛ احلم بوطن من الشعر.

- بل بوطن من الانس. أنت مستوحشة.

بمحادة ظاهرة تضحك. أتملى بشرتها المعجونة بالطلع والنار، ثم شفتيها وهما
تضآن اللقافة بعصبية وتوق.

اقلها بعبودية خاصة، ويقي وجهها الساكن بلا تعبير، فأطوق خصرها
واضغظ بعذوبة: نخب... نخب ماذا مني؟

- نخبنا.

- ومن نحن؟

ورفع كأسينا. يضيغ السؤال. تتحرك حركة مقصودة مفلة خصرها من يدي.

وتدير بحري الحديث نحو عالم آخر.

- «لماذا يحدث ذلك؟»

أنسأل في سري، رانياً الى تعابير وجهها بحسرة خائبة.

هذه المرأة قائمة قرني، تلامسني، داخل اربعة جدران، تحت سقف، فوق
فراش فيه رايحتنا الآن وقبل. أشم رائحتها في الحجر، وفي هلام الغرفة، في
الكتب والاولاني، وعلى الحصىر والمخدة. ألسها، أسد شعرها كما الام للطفل
وأحتسي الرائحة من النحر والتدين والابط، ومن مرج ظهرها اللامع الفسيح
المهدد.

مرة ايضاً، وايضاً، لا الجسد يجيب، ولا النفس.

تنفّس فقط كمن يُحتضر. بمحرجات قسرية تشملل كأنما تستشهد.
دونكيشوت السهول الباقوتية، البحر عبر جحيم الجسد، والموت اللذيذ، ينكسر
طليعاً في ساحة حرب.

- ألم تعرفي الجنس مني؟

-

- قلني ما الذي تحبيني؟

باشمئزاز: هيا... يجب أن تنتهي من هذا القرف!

وتتملص كمن يختنق بجبل مسموم.

وهي ترتدي تنورتها على عجل، تبسم هزئة من كل قيم العالم. تصمت ثم
تقول: لماذا تسأل؟

- لماذا تخافين الجنس؟

- هل ينبغي أن أقول أنكم مختصبون؟

- هذه الأنتم القذرة. كم هي مؤذبة!!

- بيننا مليون سنة ضوئية. أنت لا تفهم أحياناً كما ينبغي..

- بل بيننا الطلخ الداخلية.

محزن وجه مني المظلم اذ يتعثر بالجنس. أقتل مع نفسي كي يُضاء. ومع
الايام كانت كاللائم تنحرف في ذاكرتي، واشمّة ممرات النفس بعلامات لا تسي.

يكاد صوت رعددها يدوي فيك، فيه، فيهم: أحد ما ليس في مكانه الطبيعي.
أحد ما لا يستطيع ان يكون ما يود أن يكون!

وفي سري احببت سامر البدوي. وفيها بعد حزن من أجله ثم أكتأبت أكثر
لأنني لم استطيع ان أحبه كما أريد.
لم يكن صعباً اكتشاف فسحة بؤرته المركزية التي تمتد لتطال الآخرين،
ولا حاسته لخلق إشعاعات مغناطيسية، تقول ساحة الانا فيها: مني تصدر قيم
الأشياء والي تعود.

لكن هذا التدرن الأعلى لا يترقّ علاقتك به بعد أن تفهمه جيداً. سيتمّ
ذلك بعيداً حتى لا تصبح شاشة يعرض عليها مغامراته ومهرجانات أعباه الصغيرة.
في بيته سقانا ويسكي ناشفاً بلا أي مزج، وأسمنا موسيقى، وشعراً له.

قيل ألفجر انسحب رائي، هارباً من الجو الجاف الثقيل. واذ عرفت ذلك
متأخراً، أحسست بالغربة والحق. حتى انبلج الصبح، وأنا أدور في شوارع الطرف
الشمال من المدينة. في رأسي المصدوع طنين لا يتوقف، وفي عظامي استوطن كل
برد الفجر. ألف الشوارع ولا أعرف كيف أعود إلى البيت. وفي دمي شهوة غمورة
لامرأة تنتظر وحيدة في حجرتها.

- متى تكتب الشعر؟

- عندما يتعني السكر. آنذاك بصير العالم طيفاً ورؤى فأدخل هلام الألوان
والصور المتراثة.

- لعل هذا يفسر ضبابية شعرك.

- ليست ضبابية. أنا أكتب بالرائحة واللون والوجع.

- الوجع الخاص!

- ومنى كان الشعر غير وجع رؤيوي شديد الخصوصية؟

- لدى معظم الشعراء العرب القدامى على ما أعتقد.

- أبداً. في شعر طرفة إحساس أبدي بالموت، وصبوة ذاتية للخروج
والرفض لعصره. أمرؤ القيس كان صوت الفرد الذي يرغب امتلاك العالم من
خلال رغباته. التواصي أيضاً. الشنفرى وعروة، ذؤبان العرب ماذا كانوا غير ذلك
الصوت الخاص الذي ينمو في النفس وبعد حين يصدي بوجهه.

في دمشق تبدو الاشياء حادة كحرف السكين. ثمّة نذير تنوقه يحدث في اية
لحظة. وفي جميع النهارات والليالي تبتلع تلك السكين الواقفة في الحلق. السكين
التي لا تسقط وتنهنا.

ودمشق ليست كما اشتيت وتصورت: اوقيانوساً مزدهراً بالنبطة والكشوفات
النوبة.

أصوات البيع والشراء. النساء الشبهات ينتصن امام عينيك ورغباتك المكبوتة
بقامات كالفصص ثم يختفي كحلم. الخارات، والمقاهي، والسيارات المجنونة،
والناس غير المهومين ما بقي البيع والشراء. ثم هذه التي دُعيت زوراً: الثورة.
الحياة تجري باسم الله مجراها ومرساها.

ووحده تعتقد انك حامل هموم العالم، تبحث في المداخل والمخارج، في
الزوايا والنكات، وفي الكلمات والوجوه، عن شيء غبّ تزومه امانك الخاص.

محطات. محطات. ولا امان. والقبطة الروحية تبدو وهماً خادعاً. مدينة بمجارة
وبشر، وأبنا يُوجد البشر تنوخ الاحزان. وتبر. تتوقف قليلاً ثم تمضي. القطار
يمضي، ومن التوافد ترى الزمن. الناس والاشياء تمحوهم سرعة القطار، وبمضون.
والربح تحمل الروائح فقط. وتتساءل: «ما معنى هذا الجسد ان كنت لا تصل؟»

وينفجر الشوق لامتلاك العالم. يتبدد داخل حوافي الجسد. يضوّع وتشم
الروائح فقط. وسامر البدوي وحده يتمدد خارجاً من منطقة الروائح.

زمن قاس بيده سوط. يسوقك من بوابة البيت الى مستنقع الوظيفة، ثم الى
الشوارع والامكنة الاخرى. مهرولاً تحت غمامة كثيفة توشك ان تمطر كذباً وتخدائع.

- كانوا استثناء!

- هؤلاء هم شعراء الأصل. لقد تخلصوا من سرطان المديح والهجاء والوصف السخيف المتمثل في مدرسة البحري وجري والفرزدق إلى آخر القافلة المعروفة.

- لكنك تبدو مغرماً في الذاتية. يخيل لقارئك أحياناً أنك تهلوس.

- ربما. الشعر رائحة وطعم وموسيقى. تماماً كما تنتشي بموسيقى موزارت لأول مرة دون أن تعرف عنه شيئاً. الشعر لغة سرية. نوع من الغيبوبة الصوفية تبحر على منها دون أن تسأل إلى أين.

كان الآن على نخوم حالة كتابة الشعر. وجه دام يتألق بحمرة خاصة، وعينه تلمعان كميني قط برياً متأهب. وراح صوته يقرع كصنج من نحاس بينا يدها تتحركان في الفراغ حركة اقتراسية، وفي ردى وجهه امتزجت القسوة بالامتلاك. كان منعزلاً بصمت باذ.

وإذ سأله: في شعرك لا يبدو أي أثر للثورة، رجّ ضحكة واثقة. غبّ شيئاً من الويسكي واشغل لافافة «لوكي» ثم نشق: ماذا تعني بالثورة؟

- الالتزام بالجاهير. ألت منخرفاً في الحزب؟

- أحياناً تبدو خبيثاً رغم أن هذا لا يبدو عليك. يا عزيزي المثقف المتغابي من الذي قال لك أن الشعر صدى للجاهير؟

- وهل هو صدى نفسك؟ أنا ماذا تعني حياتك الشخصية المبعجلة؟ ثار. رفع صوته. ضرب يده المتضدة. اتهم. قدم تقارير مشوشة عن رامبو وبودلير وأبو لينير وبيرون. لكنه ظل منهمماً ففادته.

حياة مفعمة، مرتعشة غريبة. ارغى في جحبها يوماً، ومع الزمن صارت طفحه الأبدى. ققصه المحكوم بالعيش فيه.

ومن راني إلى سامر البدوي تمتد مسافة من العلائق البشرية. راني مسحها واستطال فوقها، بينا كان سامر يرعاها بوانبه لتصله بعالمه الفردي، وراثته الجنسي.

بحيانه فقط أقنعني. بهذا الاخلاص اللاتحائي لما يرغب جسده الفاشي الذي استعبده.

أسكتني يد. بصعوبة فحنت عيني. نشب الصداق. وجرتني أمينة إلى الحجره.

- أهكذا تفعل بنفسك؟ سمعت الجملة كطنين. نمتت كلمات ناشفة. وارتميت على الديوان: كم الساعة الآن؟

- الخامسة. أين كنت؟

- في الشوارع.

- أنت نمل.

- متعب وأود أن انام. متى يستيقظ؟

- منذ ساعة نام.

وباستسلام تمددت، غير عابئ بما قد يحدث.

بين النوم واليقظة سمعت سقافة الباب تسحج، وأحسست لحافاً ناعماً يغطي. لم لا شيء.

بعظمة الموت وكراهيته، قام من قبره. خطا نحو بيتنا القديم، خطوات وثيدة كمن يمشي في الهواء. كنت أراه وما كان باستطاعتي أن ألمسه. كان ميتاً وحيّاً في مكانين مختلفين. رأيت يطفو حولي ويرفرف بأجنحة شفافة. يقترب ثم يبتعد كأنما في وجهه كلام يود الافصاح عنه لكنه لا يقوى. وسألته لماذا مات هكذا بغتة وتركتني وحيداً، فأشار إليّ بأنه لم يتركني، وفهمت انه يراني أبداً ويشاهد حياتي. وبدا لي هناك على حافة الضوء والظلمة أسياً غير راض. وسألته ان كان راضياً عن حياتي وهل حياتي رديئة. وماذا تقول عني أوراق الباطن والظاهر التي ابتلعها فارتسمت ألواحاً أبدية على جدار جمجمته.

وقلت: ألا يكفبك أنني ورثت عنك الخمر وحب النساء، وأن عصور الرداءة الدونكيشوتية لا تنتج فرساناً كالذين حملت بهم وأنت تصبّ شهوتك فيها، وأنتي وقعت في المغريات وفي حائلات نفسي التي وصفتها بالأمارة بالسوء. وأنا لا أربغ أطفالاً من امرأة، وما عاد باستطاعتي أن أعود إلى البيت.

ورأيت يشر نحو امرأة قريبة تشبه أمي ونهاي أن أتبعدها عنها. وهلوست بأنها امرأة وحيدة تهدم بيتنا، وأنا أحاول أن أعيد لها بناء من أجلها وأجل. ودخلنا في حوار مشوش غير مفهوم حول الحلال والحرام، والخير والشر. وبدأت حالته

النورانية تشحب وتنسحب. كان متشاحاً الآن بألم عميق ويجراحه، وبدأ يغيب. وصرخت: لا تتركني. خذني معك. وهزني مني، ودنا نحوي فغطتني نظراته باحتقار شاحب، ثم استدار وراح يخطو في الفراغ. قلت: امض. أنا أكرهك وأكره أمي وأكره بيتي القديم. عد إلى قبرك. عد. وفي غمرة من ضباب اختفى وحضر وجه أمينة متعباً، ضارعاً، لم حضر وجه مني، ألقاً، حزناً. وامتزج الوجهان داخل عالم غريب مسحور. ورأيت مرجاً من عشب أخضر قرب ساحل بحر بعيد. استلقينا متعاقبين بين الأعشاب. كانت الأعشاب رطبة والمياه تجري قربنا. وكنت ظامناً كأني ابتلعُ صحراء. عندما أبظطني أمينة كانت تمد لي كوباً من العصير، واذا استفهمت بعيني منها قالت: كنت نصيح: الماء.. الماء..

- ٩ -

ذات مساء داهمني فكرة صياغة نظرية عن الانسان العربي، سميتها بيبي وبين نفسي: التعويضية. واذا قرأت قليلاً من علم النفس التحليلي وأدler، انكفأت وقلت: لا جديد تحت الشمس.

كانت الحياة في دمشق قد انخرقت عن مجراها الطبيعي، بعد أن تاهت مني وابتعدت. وتعثرت بأمية.

لقد حدث انحراف فردي تعويضي، نحو جداول فرعية اسمها: الخمر والجلد السرّي والبحث عن النساء والأرصدة وميتافيزياء الأحاسيس المنفية وسائر التثرّات الأخرى.

بدا ذلك رداً فاشلاً ضد التبريرات الواقعية الملونة بالكذب، وضد القصور. وفي الوطن الذي تغلغل في مجرى الدم، كانت الأنماط تحترق بهدوء وسكينة في عربة العطالة.

لقد تلوث الزمن.

وفي ذلك الزمن كنت أشعر بأنني متوحد ومنني كشجرة في قفر، في مهبط ربح سموم.

ولأنني صممت أن أكون نفسي، رفضتُ واثقاً التبرير، فكرة الضحية للأجيال المتقدمة على انقاضي.

في لحظات الصحو كنت أعمل كمن سرى فيه سم، سائلاً اللاشيء: كيف حدث ذلك؟

في النادي التقينا. عاتبته لأنه تركني في بيت سامر وحيداً. وفسر هروبه بملل الجلو، وكان حزناً في تلك الليلة.

- ضاجعت أمينة صباح ذلك المساء.

وزعن فرحاً: معلوم. عوضت أيتها الشبل اللعين عن غيابي. اشهد أنك قت بعمل ثوري عظيم.

وقلت: حدث ذلك صدفة.

ننه: في علم النفس لا يوجد شيء اسمه صدفة.

- إلى متى ستظل تظاردي بالرفيق فرويد؟

قهقهه لكلمة رفيق: علم النفس التحليلي يقول ذلك: أنت كذاب. ما سيحدث جاهر في اللاوعي. ايه. احك لنا كيف كانت أمينة؟

- لماذا لم تقل الرفيقة أمينة؟

وأشرعنا ضحكيتين تناسلتا في لحظة واحدة، ثم قرعنا كأسينا.

بصح جسدي عندما أضطجع مع تلك المرأة. أشعر وكأنني خارج من حمام بارد في نهار قافظ. في أزمة الرداءة تخنني الأشياء الجميلة. حدثت بذلك وأنا أسوح في بحار جسدها المجهول: كيف لم يكتشف زوجها الغني هذا الجسد الفائض بالنعم والخيرات الالهية؟

- أليس حراماً أن يهجر ذلك الجسد من أجل الخمر؟

قال راني: يا سبحان الله. يا أخني خُلقَ الانسان ملولاً!

□

راني بوجهه المحروق، بعينه العميقين، وكلماته المتنبشة من أعماق الفهم النفسي للسان، يعيد بعض الطمأنينة. يعطيك مسرة خاصة في عالم مقلوب يمشي على رأسه.

- حياتنا الطبيعية تحولت اسراراً بفعل التعامل مع المحرمات والتوق التابع من حاجة الجسد والنفس.

- يحيا التعويض في العالم الثالث.

وفي ذلك المساء يفيض شجناً عن التي يحيا. بولكه حكى بعد أن شرب كأسه الثالثة. كنت صامتة أكثر الوقت لهذا الذي تلوح فيه بشائر الضعف البشري المقدس.

كانت المرأة تنسكب نحو اغواره فتجني أحرانه النائمة في أرض مقفرة، واذ بغور حزنه يصير حيواً شفافاً كالدمعة، آنذاك يلعب الانسان فيه منبثقاً من خلال كل ذلك الوشل والركام الطافي فوق سطح حياته.

قرأ لي رسالتين في تلك الليلة، احدهما منها والأخرى منه. وتحدثت عن أزمة الرضى والاكتفاء. عن الطفولة المحرومة وحنان الأم، وعن الفشل صديقه الحميم، «ولينا» الخائفة الا ترضيه.

على وجهه تحت الرعب يمشي. قانع وخائف، لأنه اعتاد فقدان واختار الغضب النفسي، حتى أزمى النقص فيه، بدا موجعاً ومزعجاً من قناعاته الموبوءة بالشك.

ولست أدري كيف تحلل راني في تلك اللحظة الخاطفة، وامتد تحت سياتي الملعونة بالرصد حتى صار جيلاً موسوماً بلعنة دهرية تسحقه صخور الاحباط، يسقط ألف مرة ويقوم، وفي كل سقطه يخسر شيئاً من جسده ونفسه. عبرنا جميع الشوارع التي تحب خيائها العتي. غنياً أحراناً لدمشق الغلسة. جلسنا على الأرصفة. بكينا. صرخنا.

قال راني دامعاً: لو ان لنا معنا الآن!

صمت.

- أحلم بحياة مفعمة نعيشها سوية.

رنوت إلى النجوم الذهبية اللامعة.

- ستكون لك غرفة خاصة في بيتنا، تنام فيها مع أمينة ومنى. ما رأيك؟ تحركت الريح بشجن مسائي، تغفل في حشا أيامي النصبات. أرسلت صغيراً غامقاً امتزج مع أنين الريح. كنت منفطراً من الحزن.

وهاجس راني الليل بشبابته: «هيات يا أم الزلف. لنا يا عينيا».

قطفت زهرة ياسمين. ناولتها له: هذه لكينا.

في الفراغ قفز بطفولة غنائية وقيلبي: يا أعذب من في دمشق.

وسرخنا في الليل. صبيين فقدنا الهواء. رانين إلى الطمأنينة الهاجعة في الغرف النائسة الصو.

فجأة سأله: هلا حدثني عن المرأة الأخرى؟

ونفض. مشى نحوى مترجماً ثم تغطاني، وراح يدق بابقاع وجيع أرض الرصيف.

[]

بتهمة العطب ألتي القبض عليك. دمشق قالت لي ذلك وتاريخك الوراثي. ثم الحب المفقود.

— «أين يوجد المثال؟».

— في براري المنفيين الذين اختاروا مناطق الخطر.

ويوما وددت أن تجري الأحداث كما يجري النهر، بعيداً عن ردود الفعل والثرات.

كما الإبرة المغناطيسية تنجّه نحو الشمال، انجّه نحو غرفتها. الخمر، أم الرغبة، أم شوق حنان الأمومة، أم صوفية الليل، توجهني مأخوذاً نحو المرأة التي جرتحت جسدي؟

ضوء الغرفة يتشتر من خصائص الشباك، والمطر ينهر، كذلك ضوء غرفته هو الآخر.

لما تنم. هو أيضاً يكرج الخمر، وحيداً مرفصاً فوق جلد خروف منسج، قرب مدفأة حطب موشكة على الخمود.

تحت المطر أتوقف. ثم باسم العطب والتوق، ادخل.

الطفلة سهري. تحية محترمة. سؤال رصين يحمل أقصى النبل الظاهري.

— كيف المدرسة سمية؟

ثم جلسة متأسكة فخوره بالشرف والحياء الفج.

— نحن لا نراك إلا لماماً. قالت الطفلة.

— العمل حبيبي. أسافر في إجازات ومهات باستمرار.

— لكن نحن نود أن نراك دائماً.

أبتسم.

وفجأة تسأل أيضاً: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

بعينين حاثرتين أدور في سقف الغرفة. أسأل نسيج المنكوت المتللي من زاوية

وحكي يشجو: متزوجة ولها أطفال. فاجأتها يوماً وكنت مغلفاً بشوق حقيقي إلى امرأة: أريدك يا أنجليك. كان ذلك في ليل معتم وهي في ثوب نومها الشفاف، أصابها من من دخولي المفاجئ. ودّت أن تصرخ فكلمت فيها. سحبتها إلى غرفتها الخاصة. كان هناك سرير وأرض مفروشة وكنت ميللاً بالمطر. بعد صمت أشعل لفاقة وتايح:

تعرينا. أنا عربتها بيدي هاتين. كانت ما تزال في بحر ذهولها عندما انتهينا.

— ألم تحف؟

حرك رقبته يميناً وشمالاً. توقف فجأة: لم أخف؟ سمعت الخوف يخرج من حلمتي لديبها ومن أطافري. كان يختلج في الثواني وفي الأنفاس وعلى سجادة الغرفة حيث تمددنا، صار للخوف أرجل وعيون وآذان. تصوّر أن تقتحم بيت امرأة ضابط في غيابه: لقد تغمضي الموت لكن الجنس كان أقوى.

— كانت رائعة؟

الحجاب حزنه لحظة فسهل كمهر فوق مرج أخضر. مد ذراعيه في الفضاء وجرى مسافة، ثم توقف: أنسأل أيها الزنديق عن امرأة دمشقية ان كانت رائعة؟ كانت ذهولاً جسدياً يُسم ولا يلمس. أم... أم...

حمحمً وثانياً في الهواء، بكل انشاء الانسان، وفجأة سكن. ومن سهاوات خفية، انهم الحزن. شطر لحظة الفرح المباغت، ووُلدت اليقظة لماذا الفرح ناقص فوق هذه الأرض الملعونة؟

إزاء حديقة «المدفع»، رحت أسير ببطء، مُكيّاً نحو الأرض أعد مربعات الرصيف تحت الضوء. تحرك نسيم صيني رخاء هز سكينه الورق الأخضر فوق أشجار الحديقة.

— راني. أنت نادم؟

لم يجب. انكبّ هو الآخر فوق سياج الحديقة. فبدا مطوياً كجنين في رحم أمه.

وأنا أسير تذكرت حديثه عن الأحلام العارية مع أمه، والندم الذي يطارده مذ ماتت، وندوبه الداخلية.

— أنت تنتحب!

السقف أن يسعفني بحجاب. أقول كاذباً: أسكن مع أصدقاء في بيت واحد وأحياناً تأني أمي.

- لماذا لا تأني أمك وتزورنا؟

أمنية يكاد يغمى عليها. تود أن تصيح بالبنت: أن اصمتي. تهجم: سمية.

آتني بالساور من المطبخ.

وإذ تطبق سمية باب الغرفة، تثب أمنية كغزالة عطشى. تشرق ابتسامتها مغموسة بشهوة مستورة. تفتح حولي قليلاً، ثم ترتجى في حضني وتغرس شفتيها البارزتين في شفتي. تطوفني بقسوة جنسية ممعنة بالأموعة. ثم تدور بردفها في حضني. وإذ اعترضها نموء لم ترزق بدلال دمشقي: أووه. أنت قاس علي. تعذبني بغيابك الطويل. قبلني. وأمتص شفتيها بشهوة ولدت الآن.

إذ يقبل خوفها، تنهض. وجهها مود، وعيناها لتمعان ببريق مستسلم. تنفلت بعيداً عني وتغمز نحو غرفته، رافعة يدها الفارغة مشيرة إلى الاحتساء اليقظ.

- أعرف. اسمعي سآتي اليوم.

وتقول هساً: لكنه يتأخر. منذ أسبوع يسهر حتى الثالثة بعد منتصف الليل!

تهب في الجسد رغائب الطبيعة، وشهوات الدم المخورر فأصرخ فيها: اسمعي. سآتي ولو كان بنام معك في فراش واحد.

كهمزة صغيرة فرحة، تنقل سمية. راسمة ابتسامته أزلية لا تغيب. تنظ فوق سجادة الغرفة معلنة بحركاتها الترحيب بقدمي.

تفرد ذراعيها وهي قادمة: ماما..

تعترضها بعبوس: سمية!

- دعيا. لماذا تصرخين بها هكذا؟ الأطفال لا يصرخُ بهم.

تشعر أنني أمرها كزوج، فتصمت.

- عتو. لدي لوحة جديدة رسمتها في المدرسة.

- أرينها.

وأبدي إعجابي باللوحة. أشير بملاحظات هامشية عن اللون والمنظور بيننا أمنية تمدّ القهوة.

أنا وأمنية حالة هوس. قطبان: موجب وسالب يتجادبان. أفكر بالحرام الموروث، والصبوة الدمشقية الممتعة، وخسائر الحروب الطويلة، والتعويض. ثم أقول: «عبثاً تموّض بك زمناً المنقرض. لقد سافر الرضى إلى مجاهل نائية. وها هي وحيدة معك داخل زمن تبدو فيه حراً وهي مأسورة؟»

تقدم القهوة باجلال. أتناول منها وهي جاثية على الأرض قرب قدمي.

- أنت حرّ في زمانك أيها السيد.

وأغمر سخرية من نفسي، ومن هذا الزمان الذي أحيا فيه. زمانني المخصي. وأنا أحتسي القهوة أرثني الطفلة وظائفها. صحّحت لما بعض الأخطاء بعد الشرح. وراحت تحدثني عن غباء مدرّسة اللغة العربية، وقسوتها عندما تثير أية طالبة سؤالاً يخرجها.

كان وجهها مائلاً، قريباً من شفتي. شممت رائحة شعرها القصير الكستنائي. كانت لها رائحة أنثى تدرج نحو التضحج.

وداهمني إحساس آثم، جرثوم العطب نغل في الداخل رغماً عني. كان ذلك مرعباً ولعيناً رغم لذته الآتية. الام والأبنة معاً: آه. يا للهول!

- كانت أمينتك أن تختص في علم النفس.

وقال راني: سأحقّق هذه الأمنية في نيويورك أو لندن.

صحت بخيالة: في بلد الأميريالية العالمية؟

بدعابة قال: أنت جدانوفي. هكذا تبدو لي أحياناً.

وقلت: الذي سمع روابلك جدانوفي ومكارتني معاً.

نهيه: روابتي رواية قومية.

ابتسمت هزئاً: هيه. يا للراوية القومية المفعمة براحة الجنس!

- أيها العقائدي. اسمع.

- تفصل.

- أزمة الثورة مرتبطة أساساً بالجنس في جانب من جوانبها الاجتماعية والنفسية. أحد السياسيين الكبار في هذا البلد قال: لن تكون هناك ثورة في هذا الوطن ما لم تُحلّ قضية الجنس والدين.

بدهشة مرحة قلت: لو كنتُ مكانك وسمعت هذا التصريح لالتزمت فوراً بالحزب.

مرة أخرى انتفج: أنا عقائدي حقيقي بلا هتاف ولا صنوج.
تحت مطر دمشق الليلي أيضاً. متعة ذاتية بخاصية المطر والبلبل. في مكان ما امرأة تنتظرك، ستسرح عبر مروجها الخضفر الطرية بعد دوار طويل. إحساس يسكن قراة النفس، يبرر هذا الدوار المتعب.

دوران الشوارع في ليل بلبل. حبات صغيرة باردة تنقر معطفك، ثورث إحساساً شعرياً بالشرذ، إحساساً مبتلاً بالحزن الخفي، بالعودة البدائية إلى فرح الأشياء. ثم هذا الوميض السحري للجنس المرتبط بالأسى في أغريات المساء. الناس الأسوياء والناس الناقصون. النقص الهرموني والطفح النفسي. ما في الرأس وما هو قائم على الأرض.

عوالم بعيدة ساقطة في أغوار التاريخ. تشيل، تشم روائحها في هذا البلد الأمين الذي يباركه النبي لكنه لم يدخله.

- «أهذا ما كنت تعلم به يا عزيزي المهاجر من وطن الشمس والبحر إلى وطن الحب والشعر والثورات والبشر الأقياء؟»

- «وأنت ماذا تفعل الآن؟»

وقبل الآن وفي جميع الأماسي والنهارات.

الليل يدخل في النهار، والنهار يدخل في الليل، وأنت تدخل فيها، وهما يخرجان منك. أمانة فيك، وأنت في منى، ومنى خارجك، ورائي يعبرك، وسامر البدوي يحاذيك، وانت خارج من نفسك ومن أمانة ومنهم. مرثية معاصرة ينشدتها رجل ثمل، مفعمة بالحزن ورائحة الموت. آه. لو تدري ما تفعل! هم أيضاً لو يدرون!

- «اللهم اغفر لي ولقومي»!

- إفتح ياسمسم، إفتح. إفتح للعربي الناقص في المصور المنحطة.

وتتب أمام وجهي هامة: لما ينم بعد!

- ١٠ -

أختي ماتت بالربو في عامها الثالث. هكذا أخبرتني أمي بعد أن كبرت. وإذ سألت أمي: لماذا ماتت؟

تهدت وقالت: بإرادة الله. الله يحبي ويميت من يشاء بغير حساب يا بني. وظلت طوال حياتها محسورة عليها.

سألت منى: أريد منك صورة وأنت صغيرة. هل لديك؟

- سأبحث لك. ولكن لماذا؟

- أريد أن تراها أمي.

- أمك أم أنت؟

- أمي.

- ما علاقة أمك بصورتني.

- سأمرح معها قائلاً: أنظري. هذه كان من الممكن أن تكون خطيبتني يوماً.

- وإذا ما سألتك عني؟

- أقول لها هاجرت إلى بلاد نائية تقوت بالربو.

رفعت ضحكة عالية: بالربو. لماذا تمني بالربو؟

وابتسمت: نكتة عابرة. أنت مسافرة ويجب أن تفرحي قبل الرحيل.

كانت منى تعتقد أنها وجدت زورق الإنقاذ الذي سيحملها بعيداً عن دمشق بعد أن صممت أخيراً على الهجرة.

كان مساءً عذبا، بدا وجهها فيه متألقاً كقمر ناضج. وكنت قريباً منها في ذلك المساء. الإحساس نفسه لصديق اختلفت معه ثم غاب فجأة أو مات. لست أدري كيف اقتربت مني، وبدعابة مفاجئة طوقت عني مبتسمة: آه لو أخفئك!

كانت أناملها المساء الطفلية تضغط بحجارة، وانحدرت نحو صدري وراحت تدغدغه.

وجيها الملامس لوجهي يفسله ضوء القمر. وذوائب شعرها الفاتح يمس فوق شفتي. يومها كانت أنفاسها المفعمة تدخل في مسام جسدي كله. لحظتها تذكرت أحلام المراهقة عندما كانت تذكر دمشق هناك.

«أية آمال حملت بها قبل أن تدخل دمشق دخول الفاتحين للمكسرين؟» وأملت وجهي فالتصق بخدها. رمت ثقيلها وحملها إلى الفرقة المجاورة وفجأة تذكرت أصابتنا.

من جيبي أخرجت علبة التبغ، ثم قفزت بعيداً، وبحركة مرعشة أشعلت لفافة، مجّت منها ثم ناولتني.

ثمة صديق يموت. يقوم بحركات وداعية في لحظة مزج بين الحياة والموت. هكذا كنت أشعر. لحظتها وللأول مرة أحسست أنها تحبني أكثر من أي وقت مضى.

«لو يموت أحداً وتنتي هذه الملهاة!» مصصت عقب اللفافة، فأحسست طعم شفتيها. كان كل شيء يتراقص كحلم في تلك الأيام العصيبة.

الشوارع أيضاً. قرع حذايي على الأرصفة والأسفلت. مطر. مطر. مطر. حزين، له طعم الجنس والشعر يلالي فوق رأسي ثم ينسكب في داخلي: أبو ناصيف. بطحة من فضلك.

ولا يبنس. أناوله وناولني. وأهمم فوق الدروب تحت السماء المطيرة. أذكر أحبابي وأشرب. أذكر أحزاني وأشرب. أذكر وطني وأشرب. أنمط في طرقات دمشق. أكرع وأدندن تحت المطر ولا عزاء. وفي الداخل يسقط مطر آخر.

[]

الضوء الأحمر يعقبه ضوء أزرق ثم أصفر، تلك هي الثورة. لا. هذا عالم «التيفولي» الصاحب، المقتل. نوازل كاذبة مدلاة من السقف، صنمها ديكوراني يتفنن اللعبة جيداً. ثم الرقص والموسيقى المحمومة. عالم مصنوع. عالم سامر البدوي المستلقي الآن في حضن إحدى عشيقاته

المسنا، يغيب فيها حتى يفرغ ثلمه، ثم يسترخي ويضجر، ثم يهاجر في ظلام دمشق مهزوماً مثلي الآن. ولكن من الذي قال انني عمور؟

أنا مضواً، مبحر في عالم سري نحو مواطن الأشياء. أريد أن أكتشف الذي لم يكتشف. هذه كذبة ضخمة صنعها المثقفون الموزلون. أريد أن أشم روائح الأشياء، وأن أضبط العربي في جلسة سرية. أن أقذف به عارياً في وجه مرأة. أريد أن أشرف عليه وهو يتزف لأول له: أنظر إلى دمك. أنظر إلى تاريخك. أخرج من العصور الوسيطة وانظر إلى شمس القرن العشرين.

وأقول له: أنت... أنت... أنت... ولكنه يعرف نفسه جيداً عندما يخلو في غرفة خاصة. وعندما يسكر. ها. ها. تلك هي طاقة الإخفاء.

مباركة أنت أيها الخمرة. طوبى لزارعي الكرمه وصانعي الخمر وسقائها. طوبى للإنسان الذي يكتشف أسرارها بالخمرة فيفصح عنها بعد رحيل الخوف وإنهدام الجدران.

ودمشق قطار مُحمل بالأمتعة، مُحمل بسراب ملطخ بالدمقس والبروكار والنوازل، والانقلابات التي تركب قطارات الثورة. وفي دمشق كل شيء يثلوث بعد حين. تاريخ رخي موشى بالدعة والمقايسة والكسب.

هنا الحياة هلامية. غيرة كسطوح المستنقعات وهذه مملكة السباح. جمهورية القتل والنساء البيضاء، يجتذبن برخاوة أصواتهن، وتهدجن ببحاثن، سامر البدوي: الثوري اليساري الملقح بشمس الصحراء، والحامل في دماه كل عطش العربي في القرن العشرين.

«عقب حتى ترتوي. هذه المدينة مباحة الآن ولك زمن عدوده.» - التاريخ لا يتراجع. ومن يمتلك ذاكرة كالبرق ينتصر في النهاية.

ولو حاول شاهد إحصاء خطواتي تحت المطر، لتعب. نامت المدينة الآن. أضواء حمر تشف من النوافذ المغلقة، والمطر بلل العائق الهيمان الذي صار كالخرافة.

«إلى متى؟»
وانعطفت.

حي المزرعة حيث تهجع حبيبة جسدي، متشح بظلام يوحى بالسكينة،
والخراس قد ناموا. خطوات في الشارع الفرعي. اللص الثمل الجمح بالجنس يطير إلى
مراقد الخيانة. لكنه لا يسرق مالا ولا مدنا ولا سلطة وتحت أبطه لا يخفي بندقية.
لا يطمح أن يكون ملكاً ولا قديساً. فقط يشتهي امرأة في ليل ممطر. في ليل
حزين.

خطوات. قلبي يبدق فرعاً ورهبة. مُشْتَت ومُتَوَجِّس. مرقور في ليل دمشق
أبحث عن كهف دافئ.

نقرات ثلاث هي كلمة السر. ويشق الباب المورينا.

- أهلاً وسهلاً. تفضل.

تحت الضوء النائس، وجه مدلى مقهور، حرته الزمن باليأس والخمرة. قامة
أحناها التعب والمرأة المضغوطة.

- كنت ماراً من هنا ورأيت نورك مضوئاً.

- جئت في أوانك.

وولخنا. قادني إلى غرفته، ومهد لي السرير:

- هنا. إجلس هنا. أنت مبلل. إخلع معطفك. وتدفأ. ورميت المعطف.

تناوله وراح يحفّفه: مطر عجيب لم تشهده دمشق.

- تصور من النادي إلى هنا. صرت هكذا.

وبصوت منع قال: طقس الشام معروف. بلدنا صيفاً محراق وشتاء مفراق.

وغزلت عيني أرجاء الغرفة.

- هذا كهف أيوب السرحان اذن!

سرير عتيق، وثياب وسخة مرمية بفوضى في كل مكان. كؤوس وزجاجات
فارغة. مدفأة حطب رمادها أكثر من نارها، ثم هذا الغبار فوق الجدران المطلية
بدهان باهت. وهذا الرجل المهتم.

في رأسي كان العالم ينقل، وخارج بوابات الخوف والمفاجأة، استقرت
أحاسيسي.

- ما رأيك بكأس؟

تجاوزت السؤال بمحايدة خبيثة وسألته: هذا البيت أليس كبيراً عليكم؟
صَبَّ كأساً من العرق مزجه بالماء: كبير ورطب.

ثم هز رأسه بتوجع: ألف مرة قلت لها لتجرحه ونسكن بيتاً صغيراً. السيدة
المحترمة لم توافق. محال. الحجر يفهم أما المرأة فالعياذ بالله.

ثقب صغير تفتحه في سد فيندفع الماء المحصور، هكذا بدا أيوب السرحان في
تلك الليلة.

تحدث عن طفولته وتاريخه وأملكه وأسرته التي كانت تحتاز السلطة الدينية
والمادية، وحكى عن "زوجه العتيبة: المرأة ينصف عقل تصدق ما يقال لها
بسرعة. أقول لها: ديكك من الناس يا امرأة. فتقول: أنت رجل خرف لا تعرف
من الحياة غير الكأس والثرثرة. ما عدت تصلح لشيء.

ويستطرد: إشرب أخي إشرب. اليوم ذكرتك والله. إين حلال.

ونشرب.

وهو يتحدث لا يرفع بصره إلى محدته. عينان خابيتان انكسرت نظراتهما،
تنفرسان من تراكم الحزن والذل في الأرض. تحت العينين الحمراوين نصف دالترتين
متورمتين، شادهما التعب والزمن.

- كانت لنا أراض وضياح ومواش، أكلها الناس. نصف السهول بالست
زنب كانت لنا. بيوتنا ومزارعنا في البطيحة أخذها الفلاحون. أنت تعرف
البطيحة؟

- خدمتي الإلزامية كانت في الحبية.

ويستند: الحمد لله. نشكر الله الذي أبقى لنا هذا البيت من كل الورثة.
تصوّر حتى أخوتي نهبوني. أكلوا زرعني وضرمي.

أقول لهم: لنقم بحصر الإرث لما تبقى فيقولون: الإصلاح الزراعي سيأتي على
الباقى.

ثم يستدرك: أمينة تذكرك بالخير دائماً وحمية. لم يعد لنا صديق غيرك. أخي
والله نحن نحبك وأنت لا أدري لماذا تحايفنا. تعال واسكن معنا. نخصص لك غرفة
مفروشة وكلنا بخدمتك. أنا أدري بحياة العازب.

وصيحت قليلاً. نحو شجاعته القديمة التي فقدتها، يحاول الإبحار، يريد أن

اختباء في كهف صخري. امرأة ريفية هاربة وطفل مذعور تركته تلك التي يمكن أن تكون أمه. وأنا عثي أرغيف من الملح. سحبت المرأة إلى داخل الكهف. كانت مذعورة تلهث. واذا لامستها أحسنا بقليل من الأمان. فجأة مارسنا الجنس بصفاقة وسرعة ونحن نسمع أصواتاً وحشية لأناس واقفين في ضيق. كان الكهف مفتوحاً من جهات متعددة وبدا ضيقاً. لم يكن هناك ظلام. شعرت بالقرق بعد العملية الجنسية. ثم لا أذكر شيئاً.

ونقر الباب. لم أتحرك، ودخلت بالفتور. حدثت فيها تحديقة رجل يعرف مواقع حبات ظهرها الأرجواني: صباح الخير. وبهدوء طقسي وضعت صينية الطعام قرني.

— لم لم تأني؟

— لم أعرفك أنك هنا.

— كذابة. قلنا بمحج رجل امضى ليلته متوحداً.

واستحال فرحها غمّاً: ألم تسمعي الدقات؟

وهي خارجة لحت كفلها يرتج. كان حوضها يثير شهوة الحجر وهو يرتزع

داخل الثوب الوردي الشفاف، والمطعم يشجيرات سود.

إذ توارت فارت الرغبة وخمد الحقن. وددت أن أصرخ بها: عودي عارية فقد غفرت.

لا بد أنني شربت بالأمس أكثر مما ينبغي، ومن كل خمور العالم. عرفت ذلك من هذا الجشأ والفراغ، ومن هذا العزوف العضوي عن كل شيء. موسيقى مبهجة انطلقت فجأة من الصالون، بدأت تعيد لي شيئاً من إتراني. وقفت أمانة الآن على الباب وفحت ثوب النوم الوردي لتثني ثم أغلقتها. صحت بها: أنت امرأة فاجرة!

— لو تجسد الله في كيان امرأة لعبدته. لو تفهم معنى ذلك!

سامر البدوي قال ذلك في الليلة الماضية، أو قبلها، أو ذات ليلة لا أدري.

— ذات يوم اكتشفت ذلك بطريقة طهرية. وقلت له: أنت تكشف الستر

عن العربي.

وقال: الجحيم الحقيقي هو التجربة. بالخمر والمرأة نتعرف على ما وراء

الظواهر ونصل إلى نسيج الأشياء.

وفي النادي صارت راني عن منى: قالت أنها وجودية تعيش الخطأ والصواب لتعرف على العالم والحياة الأساسية.

— هل قالت الحياة الأساسية؟

— أعتقد أنها قالت ذلك.

— هي أم أنت؟

— راني أنت رهيب. لديك إحساس بالتفوق. لماذا تعتقد أن الآخرين ضيلون حتى الصفر أحياناً؟

— لأنك بروشويس ملعون.

لما حوصر ذلك الرجل المتفقد حنان الطفولة، حاول أن ينحرف. وراح يثرثر بتناقض معطوب يثير الشجن والمرارة. شجو البنابيع البرية يأتي عمولاً على أثر موسيقى الصالون. صوت نهبة أمانة يأتي مغموساً بدمع القهر والزمن.

— امرأة أساسية يا راني.

ويضحك من رغباتي المغموسة بالشعر والتصفوف: امرأة فاقدة الحنان.

— أنت الفاقد حناناً لأن العالم مركب بطريقة مخلفة لرغباتك:

وانبض. آتي بها من غرفتي: كنت تنتحين؟ ها نأكل معاً. هيا. وأطعمها بعض اللقيات. شجوني أرميا في أودية النسيان.

أنقر أنفها: اضحكي!

ترفع كنفها رفصاً، وحول شفتيها ترغف ابتسامة. أقبلها، فتشع ببريق طفولي مفقود، ونمضي في الثثرة.

— أريد عصيراً.

بخفة امرأة مطواعة تتحرك.

— من منا الفاقد أبدية الفرح العظيم؟

— الفرح. ها. ها. يا للمهزلة.

ورغم ذلك أحببته كما أحببت أمانة ومنى وسامر وجميع الذين أحاول الاندغام بهم في هذا الشرق الكهنوتي.

كنت أمتحن نفسي على نحو تطهيري، محاولاً الخروج من الماضي، مكتفياً بعودته عن طريق الذاكرة. وكان رائي يذكرني أبداً بالجزن والموت والمستقبل الغامض. كان يخاف أن يموت العربي بموته، لهذا اعتنق الثورة من خلال قوانينه الخاصة.

داخل نفسه خُلف موت الأم صدوعاً عصبية على البرء، وخلال الزمن حدث تركيز داخلي على حواف تلك الصدوع، وترقت قوانين الخارج. ولم يكن غريباً أن يبدو في أحايين كثيرة، معادياً، متناقضاً.

وإذ كنت الملح إلى مزاجه الحاد، المُفْرِ، يخترقي بعينين غريبتين: أنظر إلى نفسك. لا أحد نفي والإنسان قانون نفسه.

ولما أقبلت أمينة، غربت مشاعر الأسى وراء أفق حضورها، وتوقف التحليل. شربت العصير الحامض، وسألتها عن أيوب فقالت أنه خرج منذ الصباح. حدثتها عن سهرتنا وثفته بي، وقلت لها: لو رأنا معاً في الفراش لاستدار.

وقالت بأنه ابن حرام فلا تصدقه. يخمن كل شيء ويقول انني أراك وأحتفي بك بشكل خاص في الوقت الذي أنفر فيه من كل ضيف آخر، ولا أرضى استقبال سواك في غرفتي.

وكعادتها بدأت تشكي في حياتها معه: لا ضمير ولا شرف. يأتي بالفرياء إلى بيته من الشوارع والخارات. يقدم لهم الخمر والطعام. بلا سبب يهبون حياته ثم يمشون. هل تصدق أنه يؤجر غرف المنزل لأناس من أي صنف ولا يدفعون الأجرة؟ ثم يقول لي: أنت السبب لولاك لما حدث ذلك. وتستطرد مكتئبة: واقه لولا هذه الطفلة لأحرقت نفسي!

خلال لحظة يهب عليها عمرها المنقرض. تطفر كآبتها فوق وجه أمومي آخذ بالإنحدار والتبدل، فتشارف الانتحاب: آه. لم يعذبني إنسان كما عذبني. ليتني لم أعرفك. مذ عرفتك وأنا أتمرر. أجبك حتى الموت. هل تعرف هذا؟ وتقرب مني. تطرقني وتنشج. أكفك دمعها حانياً، مجروحاً بمجزري.

تَهْنُ: في منام قديم جشني. كنت على حافة هاوية على وشك السقوط فحملتني بعيداً عن الموت إلى بلاد بعيدة، فيها بحر ومروج خضر. وها هي الأيام تمضي ونحن لم ننغير. في الليالي تأتي كطائر غريب. اللحظات وتمضي. أسبوع

أسبوعان. شهر أحياناً ولا أراك. لا أعرف عك شيئاً. حرام حرام هذه الحياة. كانت تحاذيني وفخذه يلامس فخذي، وكنا ما نزال بثياب النوم. وإذ بكت أحسست وخز الألم والكذب، وانا بتني رعدة غم. يرفق طوقت ظاهر رقبها. دب ساعدي على حرير اللحم قانجياب طيف الكذب. يرفق سجت ساعدي فشت رؤوس أنامل على مرج ظهرها الأملس.

رويداً رويداً راح نحيتها يتخادم. طويت رأسها في حضني، بينا خلخلت أنامل اليد الأخرى بإبجاء سفوح صدرها. كانت حلمتها قاسيتين كسنتات الصخور. وعلى مهل راحت الأصابع تضغط ضغوطات رقيقة تلال الهدين الناعمين المستسلمين.

تململت رافعة نحو وجهي عيين ضارعتين، وجِلَّتَيْن. رمقت تورد الخريف المكابر في خديها. وبعد حين بدأت أصداء الرياح تولول في غابات جسدينا.

[]

لا تسأل لماذا يعتكر عالم المسرة. ولماذا ينقضُ الحزن كالسكين من عالم مجهول. المدهش في عالم هذا العربي، لحظة الفرح.

ويتراى صوت منى مقجوعاً، ممدوداً من دمشق الى القاهرة: ميسالينا.

في وطن بعيد مجزوء، كانت تنمو كفسيلة كرمه اجتزت في شتاء قارس، وطفّت هناك.

- كم مضى عليك لم تربها؟

- أربعة أعوام.

- هل تذكرها دائماً؟

ويتمر وجهها بلهفة عشق مُسَلَب. تغني لها: ميسالينا قر مكتمل بنشر ضوءه في وديان نفسي، لكنه ناء لا اطاله. كل يوم أسافر إليها على أجنحة الشعر والنوق. تغمرني في الحلم والبقطة، وتظل قصبة، قصبة كنجمه نائمة. آه لو عرفنا

يا عزيزي. نسخة عني ميسالينا البيتية. لأب ولا أم ويوم نكير ستلتني.

وتهاجر بعيداً عني روحها. يخضبها أسى الفراق وأنا قربها عاجز عن فعل شيء لها. على فراشي، كشجرة مقلعة، مطروحة فوق رمال الصحراء، حلمت

بالعودة الى قريتي. الى امي. بدا لي ذلك، حينئذ هارباً، متقولا كالرعدة فوق جبل السرة العتيق، الممدود من بيتنا الريقي القديم الى بيت أمينة الدمشقي.

□

مشبك هو العالم كشبكة تداخلت خيوطها، ومبعثر. نحن بشر هذه الارض نبدو كشئات رمل منتشر على ساحل العالم. ولكنك يجهد ليصل الآخر، واخيراً نسقط كالودع من يد بصارة موشومة الدين والوجه.

لوقلت لأمانة مليون مرة: أنا مفتت من الداخل، موسوم بلمعة البحث عن الاصل. عن الصدق. عن الرضى. وعن مطلق الخاص في الاشياء، ليدوث أمامها ممسوساً يهلوس بكلمات هيروغليفية من قبل عصر امحوتب. امانة تريدني وأنا أريد جسدها. أيوب السرحان يريدني ومنى مسالينا، ومنى تريد مسالينا.

وأنا وأمانة وأيوب السرحان ومنى ومسالينا، ندور كالدراويش في حلقات ذكر حول جدار الزمن المرفوع بيتنا جميعاً.

لماذا فقدان الامانة؟ ولماذا كل منا يلهث وراء جذره في عالم يبدو أحياناً بحجم غرفة وأحياناً بحجم اللابهاية؟ لماذا... لماذا؟

وفي ليلة خمر. في مكتبه الخاص، يقول سامر البدوي: الانسان مركز العالم.

أقول: قديمة. لقد انتهكت جميع القيم تحت راية هذا المغفل البائس: الانسان.

كنا نملن تقريبا بيراندي كويبة. سامر مشرف على منارات البوح الداخلي. أثرته: ماذا تعني بالانسان. الشخص الذي هو أنت، أم مطلق انسان؟

هذر في وجهي: أنا يا أنخي. أنا قطب العالم.

وتظاهرت بالانكسار والقفالة فصمت. بترجيبة مغبطة راح يسرد: في سن الثامنة عشرة بدأت أشعر بالمواربة والتنحي. كنت قد بدأت أقرأ جوته وجبران. أي شعور خاص يتحرك فيك وأنت ترى احاميسك بمسدة في كلمات الآخرين! فجأة قررت الصمت. امتدت فترة الاغتراب والصمت خمس سنوات تقريباً. خلالها تضاءل الآخرون وضمرنا. وخالها قرأت بودلير ورامبو وبيرون الى آخر القائمة الملعونة. كنت أرغب الخروج الى البراري، أمشي وحيداً وأتأمل. اصطاد الحشرات وأناة في المغاور وأطارد البدويات. أول علاقة حب جنسية كان عمري عشر سنوات.

حدث ذلك في مغارة بعيدة مع بدوية صغيرة. وذات مساء وأنا اراقب الغروب شرعت بوجدني المطلقة كالشمس في هذا العالم.

وفيك ذلك صدغه متوهجاً بيوحه الخمرى. أشرب بصمت دون أن أرنو إليه. نُدخن. يتهدد بقهر شفاف، عمقاً بأشعة الماضي والحاضر، مذعوراً، من المستقبل: فجأة سقط البشر من حسابي. جميع البشر بلا استثناء: الاصدقاء والدم السلافي اللعين. الحلال والحرام. السلوك والشرف. الله والدين.

ويستمر: قررت أن أخترق صلاية العالم وتقاليده الناس بمسدي ونفسي. لقد صممت أن أدوس كل تابوت شرقنا العزيز بقدمي. «بروتوغوراس» يقول: الانسان مقياس جميع الاشياء هذا صحيح وحقيقي.

كنت أعمل مكتب سامر البدوي المطلق بالمتائر الزهرية، مسترقاً البصر نحو وجهه المتعب وأتفه الشيبه بأنف سيراتودي ببرجراك، ثم جسده الفحل المائل لاجساد المصارعين السبارطين.

لماذا دخل مغارة تنقيتي عما وراء الظواهر، ان جسد سامر ربما كان منقاه وعلة، وان امرأة دمشقية تريد أن تصل من خلاله الى رغباتها الانتهازية، قالت له ذات مساء خمرى: يا لجسدك الوحشي الرائع؟

على نحو لعين حضرتي ذلك، فقلت له عائداً الى النقطة المركزية: قررت اذن أن تكون قطب العالم!

ونَهَضَ من خلف مكتبه: اما أن تخضع لما يريده البشر أو تريد ما لا يريدونه. ولأنني أردت ان اكون نفسي قررت أن تصدر أوامري من دماغي وليكن الطوفان. واستطرد: سأقول لك شيئاً في لحظة صحو صوفية. قال الحلاج: ما في جنتي الا الله. وأنا أقول: ما في جنتي الا رغبتني.

أنا البؤرة والمركز والمطلق وما عدا ذلك الى الحميم. هكذا افهم الثوري.

وفي مناهة الخمر والزجس تاهت دمشق وتاهت منى وتاه شيلي بن عبد الله الحزين. وكما ابتلعت آخرين. ارتسم الآن في الأفق دورهم الجديد عبر الفخاخ المنصوبة.

نسوة كالورد، كالصباحات العبقى المُنْذَاة. اجسادهن تنفتح في المساءات الرخية النعسة، كما يفتح الياسمين والبفسنج في الظلال. الأجساد ظمأى ودمشق البحر والصحرَاء وريح السواقي.

هي ذي مدينة الملعونين ايضاً. مدينة الانبياء الذين ماتوا جوعاً وعطشاً في
مغارات قاسيون وما كَفُّوا. تلوح صامدة، حزينة تحت البصر.

وفي الغرب تقوم صخرة شاهدة ما تزال. يسمونها صخرة قابيل. لونها بلون
النبيذ، وتحتها مغاور هُجرت من عصر قديم، من عصر الاسكندر ربما او عصر
معاوية، أو عصر كسرى، أو السلطان سليم. في الغروب تبدو مكلفة بكآبة خاصة
لا يعبرها غير الزمن.

بذلك كنت أفكر بعد أن خرجت من مكتب سامر، تائهاً في الشوارع
والصمت. وأمامي قاسيون.

الفصل الثاني

سامر البدوي ثوري العصر الملعون ، ثم الطبول التي تفرع . الطبول . الطبول .
افريقيا الوطن والجنس . وآسيا الساطعة بالشمس والأجناد المنكسة .
آسيا الملعونة . أفعى تحت إبط حايو والرقص في الليالي المشحونة بالانم المقدس .

الضوء الأحمر ثم الأزرق ثم الأصفر مرة أخرى . ودمشق مدينة آسيوية محاطة
بالصحراء والغابات ، ملفعة بالثلج أنا ، والنهارات الحارة أنا آخر تقع في أواسط آسيا :
أرض الشهداء والجنس والرغبات التي لا تتحقق .

من المتشحة بياضاً ههنا ، يرف فوق جسدها الابيض . في حلبة الرقص
كحامة برية تطير ، تدور . تتلوى . وشعرها الحريري ينفرد ويلتم . يخرقه الضوء .
يجب الضوء . تنحي . تنهض فينبض الثوب منحسراً ليلمع فخذان مغسولان
بالضوء . الضوء في الضوء والجسد نهار ، وعينا سامر البدوي رحمان يخترقان بحجرة
الجسد .

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، والطبول تفرع . تم . ترم . تم .
تم .

- الريفيون غرباء في هذا العالم .

- غرباء ومقهورون في عالم التم . تم .

تفرد الهامة الآسيوية بذكر آخر . تجوح رأسها ميمناً وشيلاً . الى الامام
والخلف . تدوخ فتدخل عالم المس . عالم التصوف الجسدي . الدراويش يتهزون في
الحضرة النبوية فيدخلون عالم فرويد . يتصوّ الجسد جنساً مفتوحاً تفتتح المسام .
تشقى . والجنس هبوب صحراوي لريح مموم تنطلق من الجهات الاربع لتصب في
آسيا .

فضاء المرقص وشاح من دخان وكلمات سكرى، تتبدد قبل ان تصل السقف، وشهوات.

ما تزال الحامة تنوح بجسدها، ترفرف فوق اليمّ بيننا عينا سامر البدوي تمارسان التعرية، ناسياً مرافقيه والصحفية السوديّة المنهكة في التحدث عن العرب واسرائيل.

على جدار العمود يتكئ ظهري، وعطر الصحيفة الفاذا يفضوع ماسحاً وجهي. جاري يوطن معها بفرنسية مربكة، والويسكي العظيم يسحبني بطنياً وسريعاً الى وديان الدوار.

لم أبال كثيراً بالسويدية التي قدمت لنا سيكاراً، لكنني قلت لجاري: عيناها كحبي زيتون في كرومنا البعيدة.

وترجم لها فأصاها فرح خاص. وسألته عني فعرّفها بي واستدركت بفرنسية عربية: لا. لاتصديقي. انا موظف من الدرجة السادسة. وانخرطاً في حديث سياسي.

الرقص هناك على مسرح آسيا، والموسيقى. اذرع رشيقه تتلوى وتنادي. نحور مكشوفة، وظهور كتلوج السهوب، ارجل تقم طقوساً وعيون تلتهم كالشرار. فساتين كالرايات تخفق. ترتفع. تنسج. تضيق. أعلى أيضاً. هاي. ثم ثم.

احتفال الشبق بوجهه الرسمي وطقسه الوحشي. ووحده اللاوعي ملك المخلوقات التمديدية غير المتوج.

لا شيء يعيد صفاء البحيرة المتكررة. الموسيقى والروائح يجر مجنون يضرب موجه صخور الاعاق، والهياج يرتقي مدارجه، وآسيا ترتفع.

وسط الهياج يسألني سامر: أين أنت؟

فأقول: اغوص نحو لا مكان.

- ما رأيك بهذه الشقراء الالهية؟

ثم يغمز بعينه الى الصحيفة.

- بروحي كل نساء التابو وكل نساء العالم. ولكن... وهمس في اذني: لذينة في الفراش كالشعر.

- نمت معها؟

وسامق ضحكته الجنسية في فضاء التابو، كأنما رام اهانتني وقصورني عن نيل النساء اللواتي يطالغن.

- سامر ألت كاذباً؟

وصاح: أنا؟ الهك يكذب أما أنا!

تجهم كمن طعن في قلب تاريخه الشخصي: عندما جاءت قبل شهرين سهرنا معا في التيفولي. شربت ويسكي حتى ثملت. عرضت عليها ان اوصلها الى الفندق. دهشت من العرض وفاجأتني: أليس لك بيت؟

كانت زوجتي مسافرة.

واشعل لفاقة ثم تنهد وزفر الدخان: آه يا الهي كم كانت عذبة!

ولا اقرر من توحده. هذا الذئب الصحراوي الذي اختار الجنس مأوى كما اختار الآخرين شاة عرض لأناه التي تدرت حتى شارفت تلال النبوة، صائفا حياته جحياً ومظهراً في تجربة الانلاف الحسي.

ذات يوم عبر عن ذلك: في وجهي -أعرف ذلك- ثمّة خاصية شهوية تجذب النساء. آه. انها لعني الخاصة ان اكون هكذا.

ذلك المساء كان مهجاً في البدء، فبا بعد ارتحى بالرصد والتحليل، وأمواج حكايها سامر الكاذبة، حتى خبا. وكجميع مساوات الغرياء القادمين من جردو آسيا الملتبئة، هوى في بؤرة النفس واستكان.

وفي الذهن طنين ابدى. تساؤلات بعدد رمل البحار من يحيب عنها ؟ وكيفما
اتجهت ابرة المغناطيس يظل سؤال دائم يدوي : ما قيمة الانسان في العالم بلا ضوء
نفسى يهديه الى نسوغ الاشياء ؟

- «ألف حرك حتى يثلث نقي العظام ثم ابدأ حياتك على انقاص المغامرة
الشخصية.».

سامر البيدوي والزمن القصير يقولان ذلك. عمرك الذي لا يعاش الا مرة
واحدة يصدي عبر وديان مقفرة : «أين انتِ أينها الكفاية المفقودة في مدار النقصان
الصحراوي؟».

- ٢ -

صراع من أجل الخلق. من أجل الحرية، ومن أجل التوكيد، عبر عالم
يتشكل بشخصه الذاتي وشخصيته الاجتماعية. عالم يحاول كل فرد فيه ان يكون
هو بطريقة درامية مضحكة، مغفلة احيانا اخرى. فجأة تسقط داخله. ومن كل
جانب يلطمك الموج. موج أهرج اضاع بدهه ونهايته، والقاطنون قديما هنا، قساة
وناقصون. استطلت انياهم وأظافروهم وألستهم حتى صارت اكبر من اجسادهم.
يجدون فيك وتبدأ معركة الطعام تغطية للنقص والبيان الخرع.

ملايين الافكار التي تتضارب وترتطم كموج يفني نفسه بنفسه. والكل مسؤول
ومهمته متى شاء، والكل محايد في ازمة الحرج والضيقة. أهو العربي يعبر النيه
ولا موسى؟

أنبياء وصعاليك. قادة وجنود. شعراء وباعة. مناضلون وبورجوازيون. آفة
وسفلة.

ارث جاهلي، ووشم من عصر صدر الاسلام. نزوع جنس قديم قدام
الصحراء والشمس، خمر وجدل من عهد ابي نواس والمعتزلة، مزيج الانحطاط
مع شرارة اليقظة المعاصرة. وفي خضم هذا التاريخ المربح تنزع لأن تنطهر.
وترى كل شيء ملوثاً حتى نقي العظام، ملوثاً حتى درجة قوس الانكسار،
فتساءل: هل ثمة خلاص؟ وكيف؟

جمهوريات العدل. ممالك الشعر والفن. انفجارات الجسد. كهوف العزلة
الخاصة المريحة، حيث يبحر فيك العالم وأنت في جزيرة حي بن يقظان تحاول
اكتشاف المعرفة البدائية بالتلمس والتأمل والتجريب. واذا تهك بين هذا الموج المحتدم
ينده وجهك الداخلي: هل لهذا المسكين في هذا الزمن الضاري بقعة تحت
الشمس؟

- منذ سبعة عشر عاما وما يزال ذلك الريح السامق الذي كان يكسر الحديد، ملقى كجثة فوق فراش قدر لا يقوى على النهوض. اخيراً سقط النمر في حفر الخيانة.

وجرع ما تبقى.

في تلك اللحظة الصافية كالدمعة، الداوية كالرعد، احسست اني قريب من وائل الاسدي قربي من سائر المفجوعين الآخرين.

بعد اشهر من تعارفا روى الحادثة في مطعم الجندول. اثرها ادركت لماذا يسوق سيارته العسكرية بسرعة الريح، ولماذا يشرب الخمر بتلك الطريقة الوحشية، ويتنقم من نساء دمشق على الطريق المؤدي الى قفنا والقيطرة، ولماذا اختار ان يكون ضابطا في الجيش.

في التاسعة والعشرين. عيناه بلون البحر، وصدره شبيه سنديانة فتية، ووجهه كزغيف ابيض حار. مع اسرته هاجر من اسكندرون وكان طفلا. يوم تعرفت اليه لم يثني. في مشيته خيلاء مزهو أحق بمثل، وطريقة حديثه عن نفسه ومغامراته تثير القرف والاشمئزاز وتغطي غباه المستر. يومها قلت في سري:

هوذا نرجس آخر يرى نفسه في مرايا وجهي. وافترقا.

لا ادري من الذي قال: عندما تفهم حالة انسان تحبه. ومن الصعب ان تستدير للضعف البشري فتقابله بالكراهية واللامبالاة. وفيما بعد رأيت نفسي قرب وائل الاسدي فترة من الزمن.

- هدى شعراوي.

- ناديا ابنة عمها.

- الفوضوي شبلي عبد الله.

وأشرت نحوه سائراً: وائل بك المحترم سيد مدينة دمشق وحاميا.

وبصق في وجهي: «بك» يا ابن الزانية؟

وضحكنا بجمرة.

واذ رمى معطفه للنادل مع معاطف النساء، استوى على الكرسي بأبهة رجل شرقي زاحر بالفحولة والثقة، بين صيتين دمشقيتين احدهما عشيقته، والاخرى

- ٣ -

- من أنت؟

- رجل يسابق الزمن.

ضحية جديدة في عصر الخلل العربي، هذا الذي يفعل ذلك. متوحش صلب من نسل مشوه. يفيض غضباً وإثارة. في نفسه قنبلة موقوتة، يود لو يضرَب الشمس والقمر والارض ليثبت أنه اله في عصر القروء. على اجساد النساء يلاشي عمره ليظهر التشويه وغلبة الزمن للأب الذي سقط جريحاً، مشوهاً فوق تراب فلسطين.

أحببت سامر البدوي بعد ان تعرّى أمامي بكل أدرائه، وتآلفت مع راني حتى المكامن المخبأ، كذلك أمينة ومنى، جميع هذه الجحافل المزهورة كانت جزءاً مني، لكن هذا الوحش كان استثناء مفزعاً.

- كان عمري اثني عشر عاماً آنذاك. أخبروني ان المصابين والجرحى قد نقلوهم الى المراكز الخلفية في القنيطرة وان والدي بين المصابين. خرجت من البيت عدواً. هناك في باحة ضيقة كانوا يثنون. كان بينهم رجل جسده في لون الفحم، محروفاً مدلى القدمين فوق نقالة، الدم والعظم قد امتزجا بالتبار وبارود القتال. أغمضت عيني حتى لا اراه. ويحتنق في جبينه غضب مر. يتابع: لم يكن هو. أبي رجل طوله متران. اشقر. صدره عريض كالجليل تخافه الانس والجن. ابي... وكتر فسمعت سحج أسنانه. وصقّى كأسه.

كانت أصابعه تتخلل شعره الاشقر وراح يشده بمقعد. بقسوة رنا لي. في عينيه لحت انحراراً اجتاح بوابة النفيظ: من كان ذلك الغمول، تسألني؟

قهقهه بسخرية مفجوعة. وبطرف اصبعه اشار الى نفسه: اجل انا. ورفع كأسه ثم تأملني ملياً وبحركة مسرحية احتسى طويلاً.

شاهدة. نده بصوت عسكري: هيه. هاتوا لنا من خمركم القدر ما تيسر. واطلق
شعبة اثار الضحك.

- في كل مكان تنثر دررك. ماذا تترك للملكات؟ وشمتني.

اخرج عليه «الجيتان» مرها علينا. رفضت اغاظته له: انا لا ادخن لقائف
البورجوازية الجديده.

زوّني بعيني البحرئين زاماً شفته السفلى: هم. ثوري فوضوي لا يدخن الا
التبغ الوطني.

ونغر متقززا.

- ادركتنا بالخمير. ودع جانباً الوطن والثورات قلت.

- لماذا؟ انتم المثقفون جدا لا تطيب لكم مناقشة الوطن والثورة الا على موائد
الخمير.

وقلت بقرف: اخي. الثورة لكم. انتم صنعتوها وانتم حاتها ونغن رعتكم.
مروا نحن نفذ في جميع الازمنة. اما الآن فأرجو أن تسكر فقط.

- ولو. انتم آباءنا الروحجون. نحن بدونكم طيلو فارغة. يا خمار هات أجود
الخمور للفيلسوف.

واستطرد ماداً رأسه ولسانه باتجاهي: لم يوصلنا إلى الدرك الأسفل إلا الآباء
الروحجون الأوصياء. لم يفقهوا سائراً.

- البركة فيكم سيدي. كل ما خربت تعمرونها بانقلاب. وجاء الخمر نبيذاً
ابطالياً هلل له وجه وائل، راح يصبه في اقداح انيقة خاصة.

واذ صب لي نصف الكأس قالت هدى: ما أهلك! صبّ له ايضاً.

- سيادته لا يجب الكؤوس الطافحة. واضاف: هذا الانسان لما تعربه بعد.
محبوب ومكروه بدرجة واحدة.

بعذوبة طفلية ابتسمت نادياً.

كانت قرني. سمراء يلوح على شفتيها وفي الزغب النامي تحت سالفها، أنس
طفولي غامض.

وكعادته وهو يمدق في وجهي، بدا متحفزاً للحرب. للضرب بلا سبب.
وشرتنا نخب النساء الجميلات.

في البدء بدوت مرتبكا، أحسّ هو ذلك فانطلقت روحه الهجومية وأشرك
هدى معه. كانت نادياً ملقمة بصمت شرقي خجل، بينما انبرت هدى تنثر وتلتر
حتى التصقت به.

كنا نجلس في زاوية منفردة، شريحة الضوء، وبعد الكأس الثانية انتشت
هدى: وائل رائع. سيته الوحيدة انه لا يجيني.

توجهت الي يجملتها. قال وائل: انت غطّته. وطوقته لم قبل وجهه.

- هدى، لا تفعل ذلك أمام هذا الفضائحي اللعين.

بجاء ابتسمت. حككت جبتي تغطية للارتباك الذي بدأ يتخلخل.

وسألني هدى ان كنت أعرف وائل من زمن طويل. وراحت تحكي عنه
وعن رجولته وقلة وفائه ونوعته في الحب، وهي تداعب شره القصير الأشقر،
وعيناها تلمعان ووجهها يتوهج بابتسائه. ازداد خجل نادياً. بعيني اوعز الي أن
التصق بها. لحت احمراراً يتشكل في عيني، بانفعال متصاعد راح يكرج. كانت
هدى تغفل بلا حياة اصابعها في شعرات صدره.

وسألني مرة اخرى ان كنت اعرف وائلاً على حقيقته، ولم تنتظر اجابتي
فقلت: وائل عظيم. انظر اليه جيداً. هل أصلح انا زوجة له؟

رفعت كتي، وشربت من كأس. قالت هدى كأنما تحدث نفسها: لا..
لا... انا لا أصلح. البنت التي تسلم نفسها بسهولة لا تصلح. انا. انا. اعبد.
كانت قد ثملت فبدت في اضطراب هزه وائل بصوت جارج: هدى. كني
عن هذا الهذيان الاحمق!

وكالبريق طوق قبضته وهوى بها على سطح الطاولة.

بدا الجو مغلقاً. كان هناك حصار وصمت. ودامني احساس الفرار. لم تكن
الامور تسير في مجرى طبيعي. وقرني اثني غريبة ولم اكن اتقن المقدمات الكاذبة.
وفي لحظة خيل الي ان الذي بدأت اكشفه في الآخرين غائم ومضطرب. كان
هناك عم ومكانم تتوالد فيها اسرار. غابة فسيحة، مظلمة، مخيف، يكتنفها
غموض واشياء عصية على الكشف. وقلت لنفسني: البراري هي ما يريد الرجل
والمرأة. هناك تُفتح كل البوابات المغلقة.

واذ انتهت حولي للناس الذين يثرثرون، فارشيت بالنواد والضحكات والشوق

ما فاتهم للوصول إلى البراري، ورأيت الخمر والعيون المشتعلة بالأسرار، فارت في اعماق ضحكات المتوهين. ضحكة فاسقة ومريرة ودت لوترج مكانم البشر، ووديانهم الداخلية. كتمتها وافرزت افتراسة أسي. في عيني هدى لاح ما يشبه الدمع.

خرق وائل صمتنا: بماذا تفكر؟

قلت فجأة: بالأقدام التي لا تتقن الوثب المباشر!

وتمة لما هجست به، ابتم ساعراً مدعياً بخراقة أنه فهم ماقصدت، فقال مدارياً فهمه: الأقدام تثب في اللحظة المناسبة.

طويت الجملة والأفكار ومباريات الفهم، وقلت بعفوية: هدى. لا نكتشي. في العالم لا يوجد ما يستحق ذلك. نخب وائل. وصفينا كؤوسنا عدا ناديا. تجرأت قليلاً بعد أن أحسست بمسؤولية إعادة الجو إلى حالة صفاء. سألت ناديا موشوشاً: أنت عادة لا تشرين الخمر؟ فأجبت باقتضاب: نادراً.

ودخلنا في أحاديث صغيرة قطعنها هدى مبتسمة: ها. بدأت الوشوشات. أخونا انتبه هذه إبنة عمي.

وقال وائل: تحركت الحجارة أخيراً.

وقلت هدى: هل علي أن أقدم طلباً بطواع عن طريق التسلسل لتسمحي؟ ضحكنا. ناديا ابتمت أيضاً فيدا وجهها صوباً مشرقاً. قالت يهدوه عذب: أننا صابجان من زمن طويل ونحن لم نكد نتعارف هل يمكن أن نتصرف مثلكما؟ يشيق قبلت هدى واللا على شفتيه، فانتشى. ومرة أخرى مصت شفتيه عدة صوتاً. رنوت إلى هدى التي كادت تسقط خجلاً وهمست: لا تنتظري إليها، هذين الفاسقين!

بين أصابعها خبأت بسمه، وهي تحدد إلى الأرض. لماذا تسرب إلي إحساس بفكرة الزواج من ناديا، وأنا أطل على وجهها البتل بالاضطراب والخفر، وقد نكست رأسها وراحت تداعب ساق الطاوله!

من النافذة بدت حديقة التفوي. أشجارها تحركها الرياح، وعشبا يلعم تحت الضوء. وهطل المطر. خفيفاً راحت قطراته تسح فوق الزجاج، وعلى الأشجار

والعشب شالت موسيقى منداة بالحزن والرغبة. الساعة الرابعة تماماً وأنا أتولى بعد أن شربت جرعات سريعة لأثلل. الزمن تحلل، انسل مني ووقف على الباب، في ثقب المفتاح الذي لا يحدث صوتاً، وفوق بلاط الصالون الذي لا إيقاع له. الصمت. ومعني جرثوم يمضي في الدم. سكتني منذ الوحي الأول، تطارد ذرات أبامي، سكوني وحركتي. انتظاراتي، ولما تأت بعد.

ارم ثيابك في هذه الغرفة المغلفة، واخرج عارياً. اركض في الشوارع أمام الناس، واصرخ في وجوه الذين يهزؤون منك: المرأة شمس الرجل، ربحانه وكفته، بحره وزنه وبراره، فهل رأيتم لي أبها الشامتون شمسي الغائبة وزني الذي لا ينجي. هل رأيتم لي أنسي وكفائتي ووطني!

تايسس. عشثار. هيلين. سندريللا. منى. أمينة. ديانا. الماضي كيف يتزلق لم لا يعود. والتي كانت بنية كالغابات لماذا اختفى بهاؤها؟

لو أستطيع أن أصلب لك الزمن يا عزيزتي أمينة. لو كان بإمكانك أن ترد الشمس عن مغيبها. ان توقف الأرض عن الدوران، فلا يكون هناك ماضٍ ولا حاضر. تقف مع منى على سطح الأرض فتكونان الفصول والمطر والشمس، الشعر والرغبة، العشب والطيور، الحجر والنسج، ولا تغيبان أبداً!

ساعات والخمرة تسوح في خلايا الدماغ، تتسلل إلى الأعصاب كمهر جامع، والرأس يتملئ فوق المخدة، والأسنان تنتر شهوة. ومنى لاتأتي.

والصور تتوالد من الصور. أطياف خضر وحمر، أطياف بمنحة لها مليون لون. لها روائح ولها إيقاع. تدور في فراغ الغرفة. في الغابة الموحشة. منى في المركز تماماً رمو من الضوء القار، عصي على الانقراض. تدور فتأخذ أشكالاً أسطورية. أشكال حوريات عاريات، مجلدات بالمهاية والكبرياء. أميرات من عصور قديمة هن سطوة ومجد وجال، بهيات كفوس قرح.

كل أطباء العالم عاجزون عن شفاء هذا المواطن الجريح. ومن كل مكان في النفس والجسد، الجراح تنزف. وهذا المواطن البائس يترن لعجزه عن التقاط المركز والأشعة الداخلية. ثم هذه المنى لماذا لا تأتي؟ وقال وائل: إيه. جاءك الغياب أين وصلت؟

ارتسمت إضامة بلهاء فوق وجهي التازف كآبة، فافترت.

- نخب الأحياب.

قرعت كأسني بكأس ناديا. وإذا رفعت وجهي نحو وجهها الجامد كحجر،
لحت كأسها أيضاً. بعد الرشفة سألتها: ناديا هل أنت حزينة؟

تململت قليلاً وتتممت بأناقة منزلة: لماذا الحزن!

ولم تكن تسأل. وكما تعبر ربح خفيفة عبرت كلماتها. ودخلنا طور الثرثرة
والأسئلة العادية. عرفت انها خياطة، تقرأ مجلات السينما والمثلثين، نخب التزهات
والسيارات. تخرج قليلاً مع هدى وصديقاتها ومن ألوان الثياب ترغب البيع
والسباوي.

- ناديا أنت كتبت مذكرات؟

- مذكرات؟

- أجل. أشياء خاصة عن حياتك؟

وضحكت بعدوية وحياء، فشعرت أنني أغشى أهل الأرض.

- لماذا يكتب الإنسان مذكرات؟ الحياة تعاش وكفى.

[]

عندما اختار سامر البدوي أن يكون شاعراً وهو يرقب رحيل الشمس في
الصحراء، ذات أصيل، هل فكر أنه سيفقد الحياة الحسية من أجل الشعر؟

وإذا اختار هذا النمط من العيش كيف انخرط ملتزماً بالجاهير والثورة؟ جاهداً
يحاول أن يوحى، بأنه متوازن بين كفتي الحس والشعر، بين الانا والآخر، وإذا
تقدم قليلاً قليلاً في دروب نفسه، تدرك بحزن أنه ربح نفسه فقط.

ثم تدرك أن حديثه عن التوازن، لا ينفصل عن الورد الراغب في تكثيف
العالم وحرقة في جرنه الخاص حتى لا ينهزم.

- شعرك تبهيمات محض شخصية. تزوغ في رأس منفجر بالخمير والتمرد
الفوضوي. عندما تكتب الشعر تولد لك عين ثالثة ترى ما لا يراه الآخرون.

- ذلك هو الشعر.

- بل ذلك هو النخل الطيني عن طريق اللغة. هل تود أن يقال عنك أنك

شاعر سريالي؟

- هل يعني هذا أنك ضد الخلق؟

- لا. ولكنني ضد التركز الذاتي المفرط الذي يغني الشعر. يخلخله فلا يكون
لغة العالم على مر الزمن.

- الفن ينطلق من التجربة الذاتية والشاعر ذاتي قبل أي شيء.

- الفن تجربة ذاتية عمومية.

- الحزن هو الحزن. والحب مجديه الجسدي والنفسي لا ينقسم.

- أبدأ. الدوافع تختلف وردود الفعل تختلف. داخل كل نفس للحب
والحزن معنى خاص. الفن العظيم أن تكشف الحزن والحب العموميين من خلال
حزنك الخاص وحبك الخاص. بذلك تتم عملية الإيصال إلى الآخر.

ومحال أن تصل إلى قناعة مع رجل اختار نفسه ونفى العالم. إنسان يقول لك
في نهاية الحصار: أنا هكذا. حاجر في صحراء ليس لها أبعاد خارجية.

والطريق عثم والباص رقص وغناء. صبايا وقتيان. ومنى ملكة السفر. مليكتنا جميعاً. أنا وهي على مقعد واحد، والطريق مديد ومظلم. وحولنا البراري.

دخل الباص السابح في بحر الظلمة نثرثر.

- أحب البحر.

- أحبك.

- أرغب منزلاً يشرف على البحر. ينقر شبابه المطر ويعمده الضباب، ومن شرفاته أرى السفن المسافرة.

- أرغب أن نغيا معاً في بيت منفرد. في مغارة جبلية نائية.

- في رأسي قصيدة عن البحر أعني أن أكتبها يوماً.

- أنت قصيدتي التي أغنيها للبشر والرياح والزمن القادم.

- الناس قساة هنا.

- وضعاف.

- لو يستطيع الإنسان أن يفرح.

- أحلم أن أطورك تحت الضلوع وتهرب بعيداً عن المدن.

بطقس خائف أمد ذراعي موطأً ظهر منى، ويتوجس تسلياً أصابعي في ثنايا شعرها القمحي منحدره نحو رقبتي. يولد من الذاكرة توقع غيب بعد حين. مع الأحاديث تندغم المداعبة. نحكي عن الشعر. عن توكيد الذات، وعن الخيبات في عالمنا المختل، وعن المناطق الحرمية، للملغومة: الدين والسياسة والجنس والحرية. ولا في عالم الحس، أرق وأعذب من جلد هذه المخلوقة النائية، المترددة بين وجل التاريخ، وتقصي الكوفي، وعالمها المثلث.

أحسست ذلك وأنا أسوح برؤوس أناملي، فوق أديم رقبتي وظهرها، متعنباً بشفاعته لوتترلق نحو ثدييها الناعضين العذراوين. إذ أطفئ الضوء الداخلي في الباص، مال رأسي بتلقائية حتى شارف خدي خداه. شممت رائحتها. رائحة الغابات والمطر في ليل موحش.

وفي العثم سمعت ضحكها الصغيرة الحزينة.

خطفاً قلبي ماصّة شفّتي بألم خفيف.

صلاب كالصوان. أنانيون وعدوانيون. موقوفون كقنبلة زمنية. إذ تقترب من خباياهم تنمقد أفواس حواجبهم. شيء ما يغلي في دماهم، فيستعدون جيوش الأذى والافتحام. آنذاك فقط، تعمل ذاكرتهم على نحو مدعش ولثيم. يستعيدون هفوة صدرت منك. يضيفون إليها هفوات. يراكمونها حتى تصير كتلة من طين قاس، وفجأة يرشقونك في الظهر. إذ ذاك يشعرون بالتعبئة، وإن نفوسهم الملعونة قد لقيت أمانها المفقود.

أشعلت الخمرة نفس وائل فشب الغضب في عينيه. احمرت أذناه، وراح يمج لفافته بشيق واضح. تراجعت إلى الخلف. لخت فخذ. هدى العاري مشبوحة فوق فخذ. كانت عيناه تطلعنان صدري. غمزني فقلت فجأة: دعونا نرحل. أقول لمنى: أصبني للذي يناضل ضد تاريخه. اقترني أكثر لعل شجرة أماننا اليابسة تورق!

تعدق منى في وجهي البائس، وتخترق حجب الغابة. تهر رأسها وتبتسم بجمرة.

يغمزني ذل وحزن يشرفان من عينيه. فأحس أنها تاريخ آخر، زمان آخر لا صلة لنا به. فصمته مسالينا ودمشق المثلّية بقتل فرسانها على مهل.

ونسافر

الحلم. الوهم. الشيء الذي يكون ولا يكون في وقت واحد.

- الثورة تجعد الإنسان.

- الإنسان يحدد الثورة.

ويستطرد راني: الإنسان لا يحدد. هذه مقولة تاريخية.

نَكْسَتْ رَاةَ الْحَزْنِ. هَبْ فَرَحٌ شَبِيهَ بِفَرَحِ يُوسُفَ وَهُوَ يَرْفَعُ مِنَ الْجَبِ.
ضَغَطَتْ جَسَدِي بِجَسَدِهَا. مَالَ رَأْسُهَا عَلَى صَدْرِي. مَرَعَتْ أَنِّي فِي ثَنَاءِ شِعْرِهَا.
سَحَرَتْنِي الرَّوَائِعَ وَصَمَعْتَ وَجِيبَ قَلْبِي يَرْفَعُ.

□

هَذَا وَائِلُ الْأَسَدِيِّ يَسْتَقْبِلُ الْبَرَارِي بِسَيَارَتِهِ الْفَارَاحَةِ، يَسَاقُ الرِّيحُ فِي هَذَا
اللَّيْلِ الْمَطْفَرِ.

هَدَى قَرْبَهُ. تَطَوَّقَهُ. وَعَلَى الْمَقْعَدِ الْخَلْقِي بَيْنِي وَبَيْنَ نَادِيَا مَسَافَةِ خَائِفَةٍ.
بَقِيَتْهَا. فَيَرْتَمِي عَلَى طَرِيقِ الصَّحْرَاءِ، فِي الصَّمْتِ، أَلَمْ خُصُوصِي.

- هَا. آه. يَا فَارِسِي الْعَظِيمِ. وَتَعَصَّرَهُ بِشَهْوَةِ امْرَأَةٍ رَوْضَتِهَا سَادِيَتِهِ. السَّيَارَةِ
تَطِيرُ. وَائِلُ رَجُلٍ مَهْوُوسٍ بِالسَّرْعَةِ. يَمْضِي. يَمْضِي. وَالْحُدُودُ بَعِيدَةٌ. وَبَعِيدًا. وَبَعِيدًا.
يَتَمَدَّدُ الْاِغْتِصَابُ.

وَتَصْرَخُ هَدَى: وَائِلُ حَبِيبِي. أَنْتَ تَقْتُلَنِي.

نَادِيَا شَاهِدَةُ اللَّامِبَالَةِ. سَكِينَةُ مُطْلَقَةٍ فِي لَيْلِ جَرِيحٍ. وَعَبْرَ هَدَى يَدَا
التَّحْرِيرِ. الرَّجُلُ الْمُقَيَّدُ هَذَا يَشْفَى بَطْنَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَرَأَةِ؛ وَأَنْتَ مَا أَنْتَ! إِنَّكَ تَرَى
كُلَّ مَا يَحْدُثُ وَأَنْتَ تَرْغِبُ امْرَأَةً. أَكْثَرَ مِنْ امْرَأَةٍ. عَرَبِي أَصِيلٌ مِنْ سُلَالَةِ النَّبِيِّ.
دَاخِلُكَ بِقَعْمَةٍ صَغِيرَةٍ لَمْ تَلُوثْ بَعْدَ. تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَ عَنْ الْمَاضِي. لَكِنَّ الرَّجُلَ الْمَيِّتَ
يَنْهَضُ فِي وَجْهِكَ: أَنْظِرْ جِدًّا بِوَضُوحٍ. إِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى. إِيَّاكَ أَنْ تَنْزِلَ كَثِيرًا. هُنَا
وَهُنَاكَ مِلْيُونُ فِغٍ. مِلْيُونُ صَوْتٍ. بَيْنَهُمَا صَوْتُ مَنَاحِيخٍ يَبْغِيضُ يَدَوَيْ كَالْعَرْدِ. وَتَصْرُخُ
هَدَى: أَنْتَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ أَمْ امْرَأَتَانِ؟

وَيَعْقِبُ وَائِلُ سَاحِرًا: دَعِبِهِ. صَوْنِي تَأْفَهُ بِحِلْمٍ بِقَصِيدَةٍ يَهْدِيهَا إِلَى نَادِيَا.
هَكَذَا إِذْنِ. وَلَمْ أَنْبَسِ.

عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقِ رَاحَتُ الْبَرَارِي تَنْفَرُجُ تَحْتَ خِيَابِ اللَّيْلِ. كُنْتُ صَامِتًا وَأَحْلُمُ
وَأَتَحِيلُ.

وَقَالَتْ نَادِيَا: مَا لَكَ صَامِتًا؟

رَفَعْتُ كَفِّي: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ أَحْكُمِي؟

- أَيُّ شَيْءٍ!

قُلْتُ: لَوْ وَشَوْتُ لَكَ مِثْلًا أَنِّي أَحْبَبْتُكَ هَلْ تَصْدَقْنِي؟
وَصَمْتُ.

كَانَ وَائِلُ وَهْدَى يَمَارِسَانِ الْجِنْسَ عَلَى ضَوْءِ الرَّادِيُو الَّذِي يَصْدَحُ بِالمُوسِيقَى.

وَقَالَتْ نَادِيَا: هَلْ تَنْتَظِرُ مِنَ الْمَرَأَةِ أَنْ تَبَادُرَ؟

طَوْبِي لِلْخَمْرِ. طَوْبِي لِلرَّغْبَاتِ.

لَيْلٌ وَسَيَارَةٌ تَجْتَاحُ الْأَسْفَلَ. بَرَارٌ وَمُوسِيقَى. وَشَابَانٌ مَعَ فَتَاتَيْنِ خَارِجَ حُدُودِ
الْبَشَرِ الْمَرَاقِبِينَ.

- أَشْعُرُ بِالْبُرْدِ.

طَوَّقَتْهَا. جَمَعْتَ جَسَدَهَا إِلَى جَسَدِي، وَمَعًا احْفَظْنَا بِهَيْبَةِ الْفَرَحِ وَالْدَفءِ فِي
جَسَدِنَا.

فِي مَرِّ الْبَاصِ غَنَى الشَّبَابِ وَالْبَنَاتِ وَرَقَصُوا، وَإِذْ دَعَاوُنِي لِلرَّقْصِ،
شَجَعْتُنَا.

لأَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَاهَا تَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ عَالِمِهَا، هَذِهِ الْحَرَارَةُ. أَحْطَظْنَاهَا بِاهْتِمَامٍ
فَانْدَجَبْتَ مَعَنَا وَرَاحَتْ تَرْقِصُ كَأَنَّهَا تَعَاوِقُ مِيسَالِينَا. شَدَدَتْ بِهَا. كَانَتْ جَدِيدَةً،
هَذِهِ الْأَمِيرَةُ الَّتِي رَمَلَهَا الزَّمَنُ غَدْرًا، وَتَغَلَّ عَنْهَا نَاسٌ مَدِينَتِي، فَبَدَتْ كَمَا لَوْنُهَا
ذَهَبِي، مَتَأَلَّفَةٌ سَاحِرَةٌ، مَتَوَجَّهَةٌ بِالْفَرَحِ الْعَاطِي.

حَوْطَا الصَّبَا يَرْدَدْنَ أَغْنِيَةَ فَيَرْوِضُ رَاقِصَةً وَكَأَنَّهُنَّ جَوَارٍ. بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تَرْنُو
بِأَتَمَّاهِ وَالْحَزْنَ وَالْفَرَحَ يَهْلَانُ مِنْ وَجْهِهَا الدَّافِقُ بِالْحَيَاةِ. خَيْلٌ إِلَيَّ إِنْ الرَّقْصَةَ لِي
وَلِيسَالِيَا، فَغَنَيْتُ لَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَصَفَقْتُ.

مِنْ أَوَّلِ مَقْعَدٍ حَتَّى الْأَخِيرِ، مَرَّتْ عَلَيْهِمْ بِإِنْشَاءِهَا الْمَشْرِقَةَ. كَانَتْ تَنْمَطِفُ
وَذَرَاعَاهَا تَحْفَقَانِ كَجَنَاحِي نُورَسٍ. فِي وَجْهِ الْأَمِيرَةِ الطَّرَوَادِيَةِ تَعَلَّقَتْ الْوُجُوهُ. مَرَّتْ
قَرْبِي، غَمَزَتْ، وَابْتَسَمَتْ، ثُمَّ عَبَرَتْ.

كَالْخَمْرِ لَاحَ وَجْهَهَا، حَبَاتٌ مِنَ الْعَرَقِ الَّتِي نَضَحَتْ، لَمَعَتْ عَلَيْهَا. تَوَقَّدَتْ
أَعْيُنُ الشَّبَابِ، وَارْتَفَعَتْ الْحُمَى. كَانُوا يَشْتَوْنَهَا الْآنَ.

جَذَبُوها نَحْوَهُمْ. وَشَوُّوْهَا لَهَا. أَمْسَكُوا أَصَابِعَهَا. مَرَّتْ أُنَامِلُهُمْ فَوْقَ ثَوْبِهَا
الْوَرْدِيِّ. رَقَصْتُ مَعَ أَكْثَرِ مِنَ اثْنَيْنِ، وَكَانَتْ تَبْتَسِمُ. تَجَاوَزْتَنِي ضَبَابَةُ الْغَيْرَةِ:
لَا تَكُنْ سَخِيفًا!

وراحت نلثت. نهذاها النافران يشان تحت الثوب، وخصل شعرها الكتفاني
تبعثرت بهمجية، ومن تحت إبطها انتبث العرق. بدت وكأنها تخطت الاعياء
الجسدي، داخلة مساحة القدرة النفسية التي نهب الجسد قوة جديدة خارقة في
لحظة التحدي. هذه منى. وإذا حاول ألا تفهم لست أكثر من أحقق مأفون ككل
هذه الأجيال التي تنهاوى لأن العالم لا يُبني كما تريد.

ليست لك ولا لميسالينا، ولا لدمشق، ولا لأني ذكر نشهى الرقص معها
سراً، ولم تكن زوجة الذي مات قتلاً.

على جدار الباص الداخلي قرأت عبارة: من راقب الناس مات هماً. وإذا
أعطت النفس قدرتها بعد الاعياء الجسدي، هبطت قربي.
أفصح لها قرب النافذة. تناولتها مندبلاً. رنوت إليها بمحايدة. ثم ارتج
الصمت بيتنا.

ودفع وائل المرأة المتصقة به كحيوان أليف، بعد أن أنهى طفوسه. وتباطأت
السرة.

- الإنسان لا يُحد. هذه مقولة تاريخية! يقول راني العظيم.
رأسها. يرتاح فوق زندها المتكى على اهريز نافذة الباص. في الظلام الممتد
فوق الأراضي البور، سهمت. هبت ريح رخاء تلاعب شعرها وتجفف العرق.
- الإنسان يقبل بكل ما فيه أو يرفض.

أنا هل قبلت منى بكل نقصها؟ هل ارضيت توقيع صك الانكسار معها
خلاقاً لكل المخلوقات الأخرى التي اعترضت طريقي في دمشق العجيبة؟
وهل كانت منى حقاً ضوئي الذي استحق أن أغادر من أجله طفولتي هناك؟

□

ناديا سهلة. هكذا بدت في تلك الليلة. كانت مطواعة كما ينبغي.

غطاء مبدئي من الكذب، ملفع يقاشر من البروكار والموسلين، ملقى أمام
تجار سوق الحميدية: حاجة يا بيك. بويلين. ديولين. أهلاً وسهلاً. شرف. تركال.
موسلين. بروكار. أسعار متواودة. وفي نهاية السوق المغطى بالصفيح يقوم الجامع
الأموي: مطهر الكذب والجشع والاستلاب. ناديا. هدى. أمينة. أيوب السرحان.

دنيا تعمق بالروائح. تاريخ قديم يصطدم بهبوب معاصر. بريح قادمة من ريف
اسكندرون المتعصب. من فلسطين. ومن قرى حوران واللاذقية وحماه. وسهوب
الجزيرة الحارة.

- «لماذا استسلمت ناديا وهدى ببساطة في ظلام سيارة وائل الأسدي
الفوكسهول؟»

وخلف السؤال الصغير، كان سؤال آخر مابني يقرع جدار الذاكرة: ولكن
نحن لماذا نخور كثيران همة؟

ثلاث سنوات مرت، وأنا أحاول نيل منى، وعيناً. وفي ليلة واحدة نلت
بغيتي من ناديا.

على المقعد الخلفي عربتها، ومن شفتها حتى الأقصى من جسدها، قبلتها.
بين ذراعي كانت كالخرقة.

على شاطئ البحر استلقينا وبيننا مسافة. رغبت الاستلقاء على صدرها، أعدت
آلاف النجوم المزروعة في السماء الزرقاء وأنا أتابع اعترافها.

كنا طفلين في حي واحد نلعب ونشاكس ونضحك. ذات يوم انفرد بي في
زاوية مظلمة وهمس في أذني: أحبك.

أذكر الآن أنفاسه الحارة، وعينه الخضراوين كلون هذا البحر. فيما بعد
اعتاد تقبيلي لكنه ظل يرتعش. كنت أشعر بقشعريرة تخترق جسدي ونحن متعاقان.
وإذا يستمر اللعب تغافل الصبية وأقوده إلى زاويتنا المهجورة. نلتحم لصق الجدار.
نلثت بولا ننبس.

ويتشم ببراءة قديمة: كان عذباً. جميلاً كزهرة برة. عندما يتأخر أصدد إلى
متزله وأناديه فيهرول وراني على الدرج المظلم. في الظلام نتوقف. يقترب مني يضميني
إلى صدره، ثم يبدأ يوسني على شعري وجبتي وعيني وخدي. بعدها تشبكت
أصابعنا اللهفي ونخرج إلى الساحة. إنني أتذكر صياح الأولاد بنا إذ تقبل عليهم:
جاء العاشقان. تلك كانت أول رعدة حب في حياتي.

- ثم ماذا؟

وبين البحر والسماء توزع بصرها. تنكت الرمل، وتروح ترسم أحرفاً ودوائر
لا تلبث أن تمحوها: ثم مات!

ومذ كانت طريقاً للقوافل بين اليمن ومكة، انتم تاريخها بالمقايسة. وعلى مر الزمن ارتخى الذين هبطوها واستقروا. داخلتهم الطمأنينة والرسوخ فكانوا مضرب المثل في اللدانة والكيل المسالم.

- أنحي عابرون بعد الرمل والخصي مروا من هنا، منذ لذريق الرومي حتى عبد الناصر. ومع ذلك ظن قائماً المسجد الأموي، وسوق الحميدية والحريقة، وقاسيون، والنساء، والخارات. الذي يأخذ أمتاً نسميه عثناً. هذه حال الدنيا.

وجيداً يدرك أيوب السرحان معنى الطرقات الخافة في أواخر الليل. وأن كلمة: كنت ماراً من هنا فرأيت ضوءك لم يطفأ، ليست أكثر من اختلاق مفاجئ يتجاوز ظاهرية الغباء، يُضاف إلى تاريخ المقايسة السرية التي ألفها حتى امتزجت بالخمير والبسات، ونخب الأفران غير الناضج، والخضار التي ترش بالماء ليزيد وزنها.

- قبل قليل ذكرتك أمينة. ابن حلال. أهلاً. أهلاً. وينهض بتناقل خمري، لكأنما ألوف الأعوام جاثمة فوقه.

- باقه دعك جالساً.

- لا والله. هنا أنحي. هنا.

ويمهد السرير الذي ينام عليه، ساحباً تكتة يومضها بدقة خلف ظهري.

- لماذا عذبت نفسك بهذه؟

رامياً بصره على زجاجة الخمر الملفوفة التي أتيت بها، وفي عينيه فرح ضمني حدوده تنتهي على تحوم جسد أمينة الحرم.

- ما رأيك بكأس؟

ولا ينتظر جواباً. يبدن مرتمشتين، أعصابها مسكونة بالكحول، يصب كأساً. وترتمش الزجاجاة فتكاد تسقط من أصابعه المعروقة. ويطء يقدم الكأس. للحظة يخليل إليك أن هذا الرجل سيموت بعد أن يضع الكأس.

- الشعب نايم؟

يومئ ثم يستطرد فجأة: بسيطة نوظفهم. أنحي لماذا طلائك قليلة؟

أنا وحدي كما ترى لا أجد من يؤنسي وسيرتك أبداً على الشفاء. أم سيئة

تقول: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

- أسكن مع صحاب لا أستطيع مغادرتهم.

هذه المخلوقة جرمثني. في الشوارع أشم رائحتها، وفي مركز عملي، وعلى الوسادة عندما تبدأ الوحدة السرية واجتياح المناطق الحرة، والتداعي.

صورتها. جسدها. أيتها الجنسي وهي تفهق في بحر اللذة القصوى. بحركة لا شعورية في ساعات الضيق الليلية، تفكح قدامي باتجاه ذلك المطهر الجسدي، مثلاً فراشة تتجه مغناطيسياً نحو النار. أقول: تحرر منها يا ابن آدم.

يئن الجسد: جسدها كعبتك.

أقول: لقد دمرت حياتها.

تقول الرغبة: الجسد الحزين في الجسد الحزين فرح ومسرة.

أقول: ولكن إلى متى هذا التزييف؟

يقول الوعي موسعاً: أنت تجدد حياتها.

- امرأة لها ما في موسم.

- تطهران.

- لكن الثورة تخسر.

- الثورة تحقيق رغبة.

- ولكن ما علاقة الثورة بالجسد؟

منى لماذا هذا الدم محروور؟ لماذا الروائح الكريهة تكاد تشم حتى مئات الأعوام القادمة؟ بتابع التطهير والاعتسال بالدم، ثم الغوص في المستنقعات كيف تجتمع في بؤرة واحدة؟

من منهم يسوع. ومن منهم يهوذا؟ وهل وائل الأسد هي هو غلص فلسطين؟

[]

على الرمل رسمت كلمات. أجيال تتقدم. تحتها رسمت: أجيال تسقط. بينها تحت كلمة: (تتقد فقط) ضحكت منى من أعاق صدرها حتى كادت تنفخ فوق الرمل. أدهشتني ضحكتها. رنوت إليها: لماذا تضحكين؟

وهي تنفض راحت تنفض ثورتها من الرمل: أنظر ماذا كتبت؟

- ماذا؟

- ما معنى (تنقد قط)؟

واهترت مرة أخرى بالفصح.

تأملت الكلمة فلم ابستم. بقدمي محبتها، وبحركة تراجيدية حفنت رمل الكلمات ورشفته أمام موجة قادمة. كنت أنفجر على تبثر الرمل تحت اكساح الموجة القادمة.

كانت الشمس في الضحى، والبحر يلعب حريراً تحت الأشعة، ومن بعيد لاحت الجزيرة والسفن البعيدة العائمة، وعلى الشاطئ كان الشباب والفتيات يتراشقون نصف عراة بالمياه، والذين فوق الرمل كالأطفال.

سأجري مني متر فوق هذا الرمل الأملس.

- دعينا نتسابق!

- اجر أنت وأنا أعد لك الزمن!

أول موجة ربح رشقت وجهي، واندفع قسم منها إلى رجلي، أعطني إحساساً بالحرية. هناذاً أمضي كالسهم قرب البحر اللانهائي، متحرراً من منى وأمنية ووائل الأسدي وأيوب والسرطان ورائي وسامر ونفسي، ومن تلك الدمشق الضائعة ورائي.

امض. امض. تجاوز المني متر. حطم الأرقام وخلف العلامات التي رسمتها. (تنقد قط). أجيال الرمل والزمن المحدد. مكتوب هذا في سفر العربي. في الجسد والنفس. أجيال الهبوط والصعود. والريح تثر وجهي ببرودة بحرية، وفوق الرمل آثار لقدمي الماضيتين. اطو المسافات. جبل الانقلابات والثورة الموجلة والجنس بصطدم برغباته. يخط فينسى ويقع. ارم كل شيء في البحر الشاسع وامض. جبل الصعود يجري كالطلقة نحو غايته ولا يتوقف إلا بالموت.

«إذا لم يكن ما تريد فاصنعهُ أو انتحر».

وفي الزمن تجثم منى وفي التوايا. خلفوها ومضوا باتجاه رغباتهم. ثم نسوها. مني نخصي الزمن الآن بعد أن غدرها بالموت والهجر. لا تنق بي. ستفقدني يوماً بالموت أو بالهجران. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب.

وعينا الجسد فيبدأ الهبوط. تعيا النفس بضربات اليأس المتواصلة، وأحد ما

لا يفهم على الآخر. الكل في مدار سرطانه الذي ابتناه من خيائه وعشفه الذاتي، يدور: إذا لم يكن ما تريد فأرد. ما يكون. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب:

«والرمل ما ينعجن

والشوك ما ينداس

والسر ما ينعطى

إلا لناس وناس»

لم يعد بالإمكان الاستمرار في العدو. كانت تصيح من خلني بصوتها الهميم. وإذا انعطفت نحو اليمين شرعت بالإحباط وانهزم الحزن.

- «لماذا لا يستطيع الإنسان المضي حتى النهاية؟»

على مهل كنت أسير الآن. وفي منتصف الطريق توقفت واثل الأسدي فجأة، ساحقاً الأسفلت بعنف. وهبطنا. رفعت رأسي. على الرمل تنفض قامة مني. نباتاً برياً أقتلع من أرضه قبل الألوان. هوذا جذره يحف.

- «كيف أعطيها نسجي؟»

وإذا اقتربت منها فتحت ذراعها. مدتها كمنسج مصلوب فوق الرمل. إلى يسارها البحر، وجبال الزيتون إلى اليمين، وابتسامة في طراوة الغسق تشكل بين شفتين في لون حب الإيمان.

كانت على بعد أمتار مني. ونذعت بي: أسرع. أسرع. ما بك؟

ولم تغير السرعة.

خطوة. خطوتان. فجأة سقط الاعياء في مفاصلي، وهويت فوق الرمل. كان الرمل رطباً. على مهل رحت أحفره بأصابعي. نر ماء من جوانب الحفرة. تهلل الرمل فوق الماء فغار.

قرب رأسي فوجئت بقدمي الخافيتين. أصابع صغيرة ناعمة. تسلفت عتاي ساقها. ارتفعت. مسحت جسدها بطقوس من تبعد بصمت. كان هناك نائياً يلعب تحت الشمس، وعلى وجهها لحت غامة غم.

على الرمل قرب وجهي ركعت. غلغلت أصابعها في شعري. مسحت وجهي. رفعته. كان وجهها متقابلين تماماً الآن واستلقى الصمت.

- هذه الأرض لماذا لا تجتاحها ثورة تقتلع جذور المحرمات الدينية؟ - ما هذا الذي نجا فيه إذن؟ يسألني سامر البدوي.
فأقول: مشروع فقط.

ينخر. ثم ييصق مستعيداً تماسكه: ما الثورة في رأيك؟
أجيب: الثورة أن تبني عالماً يعيش فيه الإنسان بصحة نفسية مطلقة. أعني أن يولد فيه إنسان جديد يعمل ويجب ولا يستغل.
- هذا تعريف نصفه اشتراكي والنصف الآخر برجوازي. تعريف عمومي غامض.

أدهش: سامر. أنت تقول ذلك؟
بمدّ عنقه المتوتر ثم يبرز رأسه مؤكداً: أي سيدي. أنا أقول ذلك! الثورة أن تحرر الإنسان اقتصادياً أولاً وبعد ذلك يأتي التحرير النفسي.
أقول: ولكن أنا لم أقل لا تحرر الإنسان اقتصادياً. ما أردت قوله: أن التحرير الاقتصادي لا يؤدي ميكانيكياً إلى تحرير البنية النفسية. هناك الثقافة والحربة الفردية والوراثة والدوافع. العالم لا تحكمه القوانين المادية فقط.

- التشريع الذي استنّ بطريقة تحكيمية جزرية بعيدة عن فهم الدوافع النفسية والرغبات البشرية، تشريع فاسد، معاد للإنسان. ما هو مهمّ كيف تنشئ مواطناً خلاقاً يناقش، يشارك، يرفض أو يقبل بوعي ومسؤولية. يرى الحقائق بعينين مفتوحتين وذهن واسع عميق. مواطن حر من الداخل وليس مصفداً يبرز رأسه موافقاً كعبد.

بثقة اجتياحية يقرر سامر: هذا كله يمر عبر التحرير الاقتصادي أولاً.
وما نتحدث عنه يأتي فيما بعد. المهم هو الاشتراكية.

وأقول: لماذا لا تقول انه يمر عبر التاريخ مجموعه وعبر الوثوق بالإنسان. عندما نفهم التاريخ جيداً والإنسان هنا، ونثق بأنفسنا، تبدل المفاهيم والشرائح وتبدل الإنسان. وهذه هي الثورة.

- أنت مشوش. مفهومك برجوازي ليبرالي عن الثورة. أضحك من تشوشي، وصفاء سامر البدوي. من فرضوتي وضبابتي ومن حياته وأفكاره النقية نقاء خمر رأسه.

بعد هنية سألتني: ما الذي حدث؟
في الداخل كان شيء ما يختلج. وتحدّد الصمت أيضاً.
- في عينيك انحرار!

وقفت. رفعتها عن الرمل. انتصبنا متقابلين على شاطئ بحر وفجأة طوقتها. حملتها من تحت إبطها ودرت بها حتى دحنا. وقعنا فوق الرمل ورحنا نتمرغ.

- الناس أيها العاشق الفوضوي. صرخت بي محاولة التملص والهرب. صاح الحزن الغاضب: ليسقط الناس. لتفعل مؤقّ عيونهم على الأرض. هذا لا يعني. ما بهم أن نبني حياً يتحدى الزمن والبشر. أنا أعبدك وهذا كل شيء.

كماشقين في جزيرة مقفرة تدرجنا فوق الرمل. وقفنا. سحبنا من زندها وجربنا بجنوني على الشاطئ. لم نشعر بالاعياء. تجاوزنا المسافة نحو الكتبان البعيدة. خوّضنا في الباح الرمل. غنيت لها، وقرأت أشعاراً لرامبو ولوركا والسياب: أهوى أن أسرقك وتطوف العالم معاً.

وقالت وهي تمضي: ستملّني!
قلت ونحن نجري في الريح بلا توقف: عندما أملكك أنتحر.

وفوق الرمل خبيتنا. كانت أحزان العالم منسبة ورحنا تمضي هارين من الأصفاد. ذراعي حول ظهرها وما نزال نبحر: أنت معي وأنا سيد الزمن الآن. قبلتني خطفاً. ارتعينا خلف الكتبان فوق أرض قاسية.

كانت الأرض ساخنة. فرشت لها جسدي فاستلقت عليه.
عيوننا مغروسة في سماء صافية، في الرءاء المقفر. كان صدري محدثنا وخصل شعرها موزعة فوق وجهي. وقلباننا ينبضان.

- سيكارة!
وأشعلت لفافتين في في، ناولتها واحدة.
- هل يوجد في العالم حب كهذا؟ وأبتسمت بعذوبة ملاك. نفخت وجهي بحفنة دخان. ودرفت عيناها محدقة في الفضاء الرحب.

الآن يبدو العالم رائقاً كبيراً في صيف عذب. أنا ومنى عاريان في قلب هذا العالم، نستحم فنصفو النفس ويصح الجسد.

منى وحدها مزاري. قدس أقدا سي. معبدي الذي أتعد في عندا يدهني
الثول والتدجين. هي ذي تستلق على صدي. هذا المثلث ألؤذ به في حيا العالم
القحل المتصارع، بعيداً عن كل التصنيفات الحمقاء التي تحولت إلى حراب تظن
بها.

إلى الجحيم جميع النظريات التي لا تولد الإنسان وتخلق لحياته مناخاً صحياً
بتمدد فيه بحرية مطلقة.

وددت أن أهتف بوقاحة: أنا الحب وأنا الثورة، أنا الفرد وأنا المجموع، أنا
الله وأنا الاشتراكية، ومنني ينبثق معنى العالم. وكل ما عدا ذلك هراء وقبح
الريح.

لكني أحجم: مني هاني شعراً رومانسياً.

بأسى عميق تدندن: « للناس ظلالٌ وعشبٌ وموائى، ونحنُ مرافئنا مهجورةٌ.
للناس بيوتٌ وأغنياتٌ حبٌ وأنا وأنتُ خرابٌ وغيمٌ صيفٌ ومسافات. وحيداني في هذا
العالم، في هذا الزمن الصعب، ولا موائى وحيدان كحيتي رمل على شاطئ
مهجور، في مدينة لَمَنَّا عُرُفٌ قديم من أُنَى عام. أنا وأنتُ حواريانِ نبحثُ عن
مسيحٍ لا يُصلبُ، عن أنجيلٍ لا تَهْرُقُ وتَزُورُ. عن توراة لا يرفعُها السفاحونُ رايةً
غزو، عن قرآنٍ لم يمسسْ إنسان. كتابٌ جديدٌ لم تأكلهُ أصابعُ الزمن. عن وطن
لا يغتسلُ أنباؤه بدم الأجداد ».

قَلْتُ منى كأنما دمة وثبت إلى حلقى. هبت راتحتنا أعذب من رائحة
الأرض غب المطر. وفي لحظة كالبرق، تمتت لو أطوبها تحت ضلعي وأمضي غزرقاً
بها حدود العالم؛ نحو الجزر الثانية. نغيا على صفاف الأنهار وفي الجبال الوحشة
وداخل الكهوف. نزوي قصصاً وحكايا عن الجن والعفاريت والظلام المخيف
وتعاسيج المستنقعات. على الصخور وعلى جذوع الشجر، نفصّد دمنًا ونكتب
أشعاراً. نستحم في مياه عذبة لم يمسسها جسد إنسان، ونعت أشعة شمس جديدة
نكي ونغني ونرقص؛ نلتحم في ليالي الشتاء ونلدّ نسلًا جديدًا، هادئًا وغضبًا
كالبحر، حارًا كالشمس، وكحدّ السيف مصقولًا. ثم غوت كالأشجار في العراء بلا طقوس
دون أن يقرأ حرف على قبرينا.

سألت راني قبل أن يسافر الى بيروت لتتويج ولعه بالماجستير: هل يسبق
الانسان زمنه؟

ضحك منى وقال: الثوري الطليعي يحرق مراحل التاريخ.

ثم سألت أيضاً: وهل نحن ثوريون طليعيون؟

فاجاب بجفوة: بالمعنى الماركسي الكامل. لا!.

واذ قلت لماذا؟ أجاب: لأن علينا أن نقدم تنازلات ونؤجل الاحاسيس
والمعاني النفسية المتولدة في الهئيات الشخصية. تجاوزت ردّه الشخصي وسأله: هل
ينبغي أن نذهب الى بيروت من أجل الماجستير؟

ويوثق قال: ينبغي.

— ولكن ماذا ستقدم لك هذه الماجستير السخيفة؟

وثقة محض شخصية، ائتم: ينبغي المضي في المعرفة حتى الاقصى. بذلك
تزدود بأسلحة أقوى.

— التجربة والثقافة العامة، ألا تكفيان؟

— الاصول الأكاديمية تعطي تماسكاً أقوى.

ثم سأله: لماذا لا نقيم الماركسية كبير وزن للمثقفين؟

وأجاب بفجاءة: لأنهم لا يستلمون بسهولة لقوانينها الختمية والاقتصادية.

— راني هل أنت ضد الماركسية؟

— أنا ضد الختمية التاريخية والتعسف. أؤمن بالارادة وصراع الأجيال الى
جانب صراع الطبقات. فرويد وماركس يمكن أن يفسرا العالم الى حد كبير. لكن
يقتني بأن الانسان لا يُحدّد تماماً، ونظرية واحدة عاجزة عن استيعاب الانسان.

سافر راني أخيراً. واختصت منى زمناً. وفي غيابها بدت دمشق فارغة في ذلك
الفصل الشتائي الكتيب. وحده كان وائل الاسدي ملاذاً اضطرابياً في اماسي
دمشق.

كنت مضطراً أن استمع اليه وهو يسرد مغامراته وتاريخه الشخصي وفحولته
فوق اجساد النساء الجميلات دوماً. وإذا أصجر من ثورته أحتجب في جسد أمينة.

سيارة وائل تبدو سفينة المهامت العظمى، والسريان الليلي نحو المخادع والبراري.
أعظم ما فيها قدرتها المعجبة على الوصول قبل أن يكتشف أحد من فيها، لكن الرديء فيها
أيضاً، أنها تفوح أبداً بعطر نسائي يثير التقرز.

- رائحة سيارتك كرائحة مبقى.

بحق يزورني: كلب. سافل. تنكر فضلها عليك. هاه!

أقول: فضلكم عيم سيدي. ولكن أنت تعلم أن العبد الفقير يحاول أحياناً أن...

- اخرس. تُمسكين نفسك. عليّ الطلاق في هذا البلد لا يوجد مثلك أفعى.

- وائل! والله أنت غلطان. حكك حكماً مخابرات. أقسم لك أن القط يأكل عشائي.

- طبعاً، من لا يعرفك جيداً يعتقد ذلك. انما بشرفي أنت ذئب هذه المدينة بثوب حمل.

- لعنة الله عليك يا كاشف ستر الدراويش.

ويصرخ: اسمعوا يا ناس! يا سامعي الصوت! قال درويش. قال. إذا كنت أنت درويشاً فأنا نبي اذن!

- لا سيدي. أنت ضابط مخابرات وبس.

ونقهقه عقب شتيمة لا بد منها، يطير بها لسانه الطاهر. تجتاز شارع بيروت نحو دمر. كل منا بعد هذا الحوار اللطيف يشعل لافافة، والسيارة تشيع فوق الاسفلت كحجل يسف فوق المنحدرات.

- على مهلك!

- خائف على روحك الخبيثة؟

- خائف على النساء اللواتي سيترملن بعدنا.

- لا تخف. يوماً ما سنموت كالكلاب ولن تنقص البشرية. تأكد من ذلك.

- ولكن أنا لا أود أن أموت بهذه الطريقة المجانية السخيفة.

- تريد أن تفلسف الموت. طر. هو موت وكفى.

ويعضي في السرعة نكاية بي، وبالجرح الثاوي في فخذ أبيه.

- لن نصل أبداً.

- لا بهم. الاساسي في هذا العالم القدر أن تعلن غضبك وتحقر جميع الأشياء.

□

ودمشق ليل وتوق لا ينقضيان أبداً. مدار الموت والحياة مذ نكتَ يزيد أمتان رأس الحسين المقطوع بطرف عصاه، الى أن بدأت سلاله أبواب السرحان بالانقراض في عصر منى.

ها نحن خارج المدينة. في البراري مرميون وتحت ضوء القمر نشع ثلماً وروائب. ودمشق هناك في الطرف الأقصى، مشعة بالضوء والتذكر، بينا نتلف هنا بالحس العضوي بين المضارب الماترة.

سكون. سكون. كأنما نخل أمام الحضرة الالهية. صدى الصمت يردده البراري، وفي النفس توقع. صبا نزع متوحش حالم، وأرض منبسطة، ثم هذه السفوح الخضراء الصالحة للركض والمضاجعة.

غب هود المطر فاحت رائحة الأرض، عبق رائحة النساء. كنت اطق ناديا الآن. نحو شعب ضيق يمضي وائل وهدى. يضيغان عنا. ونحو كهف صغير بين صخرتين أسحب ناديا ونتروي.

- أنا خائفة.

- من ماذا؟

- هذه البراري!

ابسم: البراري لا تخيف. الانسان هو...

واستطرد: انظري. انظري. حيوانات.

وترخف هارعة الى صدي.

- هذان وائل وهدى. ونزغض ضحكتين فرعتين مغموستين بشهوة. إنهما يمضيان بعيداً.

ونستلقي.

الأرض خصبة، معشبة تحتنا. تثار ضوء يرشق النصف المنحدر منا خارج الكهف، وفي هبولى الحياة تخفي. نبت فتتر الأرض. ندخل منطقة الروائح

فيتلاشى الحلال والحرام. جسدان يومضان، وهما يتطهران. وناديا أرض سهلة العبور.

إذ يعود السكون يهدد ضجيج الأرض. حتى الروائح يتغير عبقها وتسقط في الفراغ. تصير النجوم نجومًا موضوعة، بعيدة، خافتة الومض. القفار أراضي من البور الصلبة. ومع تراخي الجسد يتراخي الزمن.

الآن استقرت الشرارات التي خرجت كطلفات الجبان. وفي فضاءها ركنت النفس، بينما استلقى الالم النادم على تخم الفضيلة. ومن البعيد، البعيد، جاء صوت هدى كأنما تذبح بمطواة. سألت مني: لماذا نحن مفصولان؟

فقلت بطفولة مفجوعة: لأننا غريبان ما نزال!

- ولكنني أشعر أنني أعرفك منذ الولادة. سلسلتُ في سمعي: الحب الحقيقي يُعرف مرّة واحدة.

وحزنت لأن مني ما عادت تعرف كيف تحب.

- ٥ -

مد صممت أن أتقري النفوس في أوقات فيضها الخاص، كنت أداري حديقين من الشعور: رغبتني في الأفصاح، واستمرارية الكشف حتى الوصول. واذ تنصهر رغبتني الاخيرة، كنت أشعر بأنني أزداد عمقاً في التعرف على اسرار العالم. الآخرون يجرأت بمجولة، ودمشق ذات الطقس المتبدل، بدت لي سماء تغطي تلك البحرات. قليل من ضبط النفس كان كافياً لتعريفها.

قبو مشح بالموسيقى والخمر، وأشياء أخرى، يوحي بضرورة امرأة ناضجة تحب الرقص والمجون ثم الاستلقاء العاري.

يجرّد احساس عابر دامني وأنا ألج القبو.

سَلِمْتُ. مسرور المرمي على الخوان اكتفى بهز رأسه. وابتدرتني ديانا: عاش من رأيك. في الشهر مرّة يا شيخ! ثم استطردت متهكة: طبعاً الأحباب ينسون الأصحاب.

وتحرك مسرور: ملعون دينك أين أنت طوال هذه الأيام؟

لم أجب واشعلت لفاقة.

- ستمهر معنا اليوم.

نفثت الدخان في فراغ الغرفة.

أضاف: أناس يريدون التعرف بسيادتك سيحضرون. نفخت الدخان أيضاً: أنا أكره الآخرين.

بغضب: غصباً عن آهتك ستحضر!

واستطرد هامساً: نساء. نساء يا عدوّ النساء.

ولمتُ ديانا: لا تهمس. لا تهمس له. مفهوم. مفهوم. النساء يُسخخنك أكثر منه!

عارية تمثل الحياء الافريقي في طقسه التي ، بعيداً عن أي احساس بالجنس . وقريني المكتبة .

□

من صفد الى بغداد ثم دمشق أخيراً . رحلة شقاء محفوفة بالخطر ونقل الماضي المهين . كل هذا كان محمولاً على كاهل النفس التي تددت يوماً وما اندمل الجرح بعد ، وكان ختامها الطرد .

عبر ليل شتائي قاس وحزين ، اجتاز مسرور الحدود العربية بعد ليلة قضاه في عراء الصحراء مطّارداً من حرس الحدود .

كبحر صاف في صيف هجرت الريح ، بدا مسرور . غريب في براءته وبساطة حياته التي تصل حدود السذاجة . غير أن انكساراً خفياً كان يطلّ من أحاديده وجهه المرم . أترأه شعور ضامر بالمذلة هذا الذي يلوح في عينيه الباهتين وتحت ظل هذا الشعور اندغم بالحزب ؟ أم انها ديانا ؟ .

- لماذا تفكر ؟ سألتني .

- أجبت : فيك .

- بي ؟ .

- أجل .

- وإتسم ببلاهة : ولكن ماذا فيّ يستدعي التفكير ؟ .

- رضاك ! .

- غريب أن يكون الانسان راضياً ؟ .

- إحدى عجائب الدهر العربي . من أين يأتي الرضى للفلسطيني الثالث ؟ .

- وإتسم بمرامة مستبطنة . أفرز كلمة عمومية : يبدو انكم معقدون أكثر مما ينبغي .

ضحكت للمفارقة : ولماذا لا تسأل لماذا أنت راضٍ . أكثر مما يجب ؟ .

- وإتسم : تزوج ترَض . هذا دواؤك .

- أنت تعتقد جداً أن الزواج يحل العقدة ؟ .

- ربما . أعتقد انه يخلق حياة رضية بعض الشيء . على الأقل ينسي .

قلت متنهداً : عزيزتي ديانا . أدّيت زوجك . انا انسان مهذب ويرى كما تعلمين ، أما هذا البدوي ...

نهبت : معلوم . البراءة تشع من عينيك هذا واضح . في ديني أنت أردل منه . وكل منكما يشتهي حفيف ثوب امرأة ولو كانت عجرية .

صحت : تبئين العجريات ديانا ! هؤلاء طبقات كادحة !

أرقص مسرور ضحكة بلهه مع شاربيه . توجه الى ديانا وهو ينهض : تبئين الثورة ؟ طيب . غداً تقرير من أربع صفحات .

شالت ضحكات ، وردت ديانا بعذوبة : يا عيني على هذه الشاذج الثورية التي لا تفكر إلا بالتقارير ! .

مستخفاً قلت : فُتحي عينك ديانا . أنا ما عُدْتُ ثورياً . واحد مثل زوجك ثوري ! أنا بطلت هذه الخزيعلات .

- اسكت . اسكت . اذا ترك لك الحديث تثرثر عن الثورية دهرأ بأكمله .

- استدركت : إذا لم يكن هناك نساء ! .

جهرت بغفوة : الثورة والمرأة لديك صنوان تخلط بينهما ولا الرب يعرف كيف . ورفعت أنفها استخفافاً ، ثم تحركت خارجة نحو المطبخ .

- ديانا . قهوة سكر قليل .

جاء صوتها من الممر : نحن نشرب القهوة بلا سكر .

- لسنر بمحاجة الى حلالة . وكتمت توقفاً خبيثاً . تجهّم مسرور بمقطوعة مازحة : ولكّ . ديوت . تغازل زوجتي أمامي ؟ .

بأشرته : أليس هذا أفضل من الطعن في الظهر ؟ .

وهبت في الذاكرة صورة أمينة .

عبرت النكتة . ألح مسرور على ضرورة حضوري ، ولم أقطع معه بقرار . وريداً في غياب ديانا راح ظل ثقيل يهبط فوق المسافة الممتدة بيننا . أزحت الملل بأشغال لافقة جديدة ، ورفعت رأسي محدقاً نحو السقف والجدران .

على الجدار المقابل تحت أيقونة شمعية لمسيح مصلوب ، وقربه نموذج امرأة

- راض أنت عن زواجك؟.

وأطل وجه ديانا ومعهما صينية القهوة. كانت تتختر بحسدها المتناسك ووجهها الشرقي، وإذ قدمت القهوة، رفعت عيني تلمعان ببريق خاص. وأنا اتناول الفئجان قلت: ديانا. زوجك الرصين يعطني بالزواج!.

- أنا موافقة.

- توافقين؟.

- آي. وماذا في ذلك؟.

- فوضوي مثلي يتزوج؟ الزواج اعتقال وأنا أعبد الحرية.

وأجابت بوثوق: المرأة تتملك.

- على مسؤوليتك؟.

- على مسؤوليتي يا سيدي.

- ولكن هل أنت راضية عن زواجك من مسروق؟.

[]

ها هو يكتب من بيروت أخيراً، بعيداً عن دمشق التي وازت لديه حب لينا: «ما رأيك برسالة الآن. ربما كانت مزعجة؟ انني أجلس على بعد نصف متر من الموج الصاحب، احضرت معي مشروع اطروحتي لكي اشتغل به. هل تعجبك الاطروحات أيها المسكون بمنى؟.

لن أكتب لك عن المومم بالطبع. شيء واحد فقط يستوي لدي الآن: قبض العالم وقبض الريح.

هل قرأت سفر الجامعة؟ اسمعني «جورج» اغنية «وداعاً يا وطني» وأنا منذ أمد أحاول أن أقولها. انني ابحت الآن عن وسيلة توقني أن لينا يمكن الاستغناء عنها. كيف يمكن الاستغناء عن حجر أصم؟.

لقد تركت التحليل وكانت مثلاً في العجز عن تحقيق الرض عملياً. حُني القديم من جهالة البشر، تخمر واستحال حزناً غير معترف به من قبل احد. عندما نلتقي أنا وأنت ينبغي أن نكون ثملين: أية أشياء رائحة أيها الفوضوي النموذجي. كيف أنت؟ هل حبيبك مثل لينا؟ من أجلي قل: طز على العالم!.

اسمع. سأتكلم يوماً وأصعد في الكنيسة كأني متزوج طبعي بلبد النفس، لكن لينا ستكون في النهاية لي. انني أذكرها بلا انقطاع كما أذكر دمشق وأعرف أيضاً انها تذكرني وتتظفني.

اعترف لك: انني لا أزال أحرار كيف أجتني. لينا. كنت متشككاً حتى اللحظات الأخيرة، وكنت ضعيف الموقف ازاء هذه النقطة. ولما أبقت منها ازددت ثباتاً وتماسكاً. ان حب المرأة للرجل هو بحق أمن شيء في العالم. لقد استهلك الرسالة في الحديث عن نفسي. لاشك ان لديك أخباراً كثيرة. انني انتظر رسالتك».

أعطيني رسالته احساساً عذياً وحزناً بلااضي، عوّضت بها فقدان منى في تلك الأيام الخاوية. ها أنا أعبّر الآن، وحيداً تملأ، شوارع دمشق تحت ظلال السمرخات الكسول. الشوارع التي عبرناها سوية. وفي نفسي الاحساس الابدي باستحالة التلاؤم مع الاشياء. أفكر بكلمته المخيفة «وداعاً يا وطني» منذ متى يفكر هكذا؟ هل وصل اليأس بالعربي حدود الانسلاخ لدرجة الوداع؟ وماذا بعد ذلك؟.

كنت منقياً، كأنما في حلقي سكين. طعم ربح دمشق مرّ وعذب. أسرع الخطوات هرباً من شيء في الداخل. السران الليل، راني وأنا غير ضمير دمشق الشفيف، ودمشق حب مسكون استوطن الضلوع. احسه يخفق في حفيف الاوراق، في الأصواء، في الحجارة، في النساء والماء، في الصوت والصمت. دمشق جنون أبدي يحبي ويميت. أه.

وأمضي.

- من؟.

- أنا.

وتهمس باسمي. كأنما حوار في متحف في مغارة ينتظر علفه الذي قديم.

- آخ. أنت حمور أبدأ.

- وأنا حمور اشتاكك.

في الظلام نلتحم. الأيدي والظهر. الصدران. الفخذان. أقبل نحرها وعنتها وخلف أذنيها. ثم يستقر توفي المخمور على شفتيها اللذتين.

هوس. حلول. ودمشق هذا الجسد المفتوح للريح، بحر أواجه تصخب وترتمش. أصوات مكبوتة قرابة التي عام كما عبرت مني. أنجيل وتوراة ومصاحد جديدة كلها لم تفتح بعد. إبقاعات البحث عن أمان وفرح يطال الأرض من أقصاها الى أقصاها. والجسد الباغي مركز العطالة وبؤرة الفرع المشتعل. جسد عطش مئوى يفتح تحت المطر كما تفتح زهور الترجس تحت فجر ندي عذب. آه. وصراخ التاريخ يدوي بصمت في الحضرة الجسدية. أضواء ونيران. تنبثق في ليال عصفي، ومطر. مطر ينهل فوق الاراضي البور. فوق الاراضي التي تبتهل وتنسج نوقاً لفطرة ماء تروي الخناجر الحارة المهملة.

- هكذا أنت دائماً متوهم كثر.

- أرضك ظمأى.

- أنا لا احب هذه العملية بهذا الشكل الحرام.

- تحبين أيوب؟

- أحب أن تزوج ونحيا في دينا الحلال. هذا حرام!.

- مستحيل! يقول المثل.

في الظلام تنهر دموعها فوق كتفي. أشعر بحرارة الدموع. أمسحها. ويبدأ رنين حالتي المرضية. انفسامنا.

بعد موت الرغبة أحتمل للبقاء قربها. أسأفاً: هل بدأت كراهيتك له بعد معرفتي؟

تنه: ازدادات بعد أن عرفتك.

- هل تخفين شيئاً أمانة؟

تمس: ملكتي كالوباء. آه. أتمنى لو انني لم اعرفك.

ثم بألم نقول: أيوب رجل منحرف. رجل سيئ أكثر مما تتصور. وتبدأ نغص من جديد.

بعد صمت أقول: ينحو عليك أنلكو السبب في شقائه.

- أنا؟

- يردّد ذلك على مساعي عشرات المرات.

تنهد. أداعب وجهها وتديبا فتشبه: اسمع سأروي لك حادثة لن تقولها لانسان. اقم لي؟.

اقسم. واستمر في مداعبة حلمتها.

- في الاسبوع الأول من زواجنا كان مضطرباً. في اليوم الأول نام معي ولم يستطع أن يفعل شيئاً. سألته ما بك؟ أجاب بأنه مريض. مضى يومان وأنا عذراء نام في فراش واحد كامرأتين. في اليوم الثالث بدأ الامر يقلقني. يشرب حتى التلث وإذا يقرب مني يسترخي وينام. وفي اليوم الرابع طلبت الذهاب الى بيت أهلي لأزورهم. أمضيت هناك ثلاثة أيام دون أن أوه يحرف وفي نهاية الاسبوع عدت الى البيت. هل تعلم ماذا وجدت؟.

- ماذا؟.

- في فراش هذا المسمى زوجاً، شاهدتُ صبيّاً عارياً ومعه أيوب كما ولدته امه. أغلقت الباب ورحت أركض كمجنونة في الشوارع عائدة الى بيت أهلي. سألوني لماذا عدت؟ كتمت لحي وقلت: أيوب مسافر خارج دمشق.

بحان ضممتها. مدت وجهها الناعم بأصابعي. على خدها أنمتُ خدي. وسمعت تنفسها ونحيبها فوق صدري.

في الغرفة المجاورة كان يشرب وحيداً، وغرقنا نفوس في عتمها الخاص. عندما مارستا الجنس مرّة ثانية أحسست لأول مرّة انني لا أخون!.

□

كيف انسللتُ من الحجرة وأنا مغمور بالخزن والقرف ومشاعر أخرى، لا أدري!.

هي ذي أروصفه الشوارع. أترنح في ليل دمشق الصوفي. سرت باستقامة ثم انعطفت.

قطف زهرة ياسمين وشممتها بخون.

عندما هبت الحادثة في ذاكرتي، حضر أبي فسألته: هل مرّ عليك زمان كهذا؟ فقال: سيمر زمان أقسى. نحيته عني وحسدته لأنه مات قبل هذا الزمان. بين اصابعي سحق زهرة الياصمين حتى صارت كالرماد وقذفت بها الفضاء.

سألت أبي : لماذا يفرج ذلك السيد الله على الانسان بسادة؟ قال : أنت لا تعرف ما هو الله.

أوغلت في دروب المدينة. الى أين؟ والمدينة ضوء وعم. صمت وحكايا داخلية. محاكمات وتحليل. خيبات وأيام مكرورة.

وسأته أين يقطن الله؟ فضحك من غيائي وغاب.

الخمرة أيدت بقاياها، فبدأ الدهن يشع قوانين للانسان.

امتد صمت كالقبر. أنجر في سفيني الداخلية أرسم جمهوريات للفرح البشري. يوتوبيا بنشريات تسنا الحرية والتطهر من كبت التاريخ. هل العربي محكوم بقوانين الدين والورثة؟ حرره من قصص التاريخ المظلم يولد من جديد. ولكن كيف؟ يقول سامر: بالاشتراكية. ويقول راني: بتحقيق الرغبة.

لكنه في الظلمة يضع قدماً، وفي الثور يضع أخرى. وهو في المتابعة. جسده في العصر لكن نفسه تنتمي الى القرون المنحدرة. انه ينوس بين الله والاشتراكية. وهذه الأرض لماذا لا يحتاجها طوفان لا ينجو منه إلا رجل وامرأة يلدان العربي المعاصر؟.

وتترأى في زوايا دمشق الميتة، مجموعة من الاستثناءات قُطعت اسبابها. في محراب التاريخ ازوت ردهاً من الزمن، بعد ان نسيا الله والعالم. تعيش في العمّ بقوانين خاصة استنتها احتجاجاً على قوانين زمن العرب الجائرة، وبعد أن باشرت شمس الفرح والحرية بالغياب.

من بين كل فاقد الذكرة، حلمت برجل لا ينسى. يخرج من كهف التاريخ ومعه سيف وكتاب جديد؛ يضرب ويشرب ولا يعرف الرحمة. يعطي الفرح للحزائي، والخبز للجياح، وينشر رابات الحرية فوق من لم يسقط تحت نطق السيف. لكن الحلم سافر مع سفر منى! واستمرت قوافل المقهورين والحزائي متنامية على درب الزمن.

يا الهي أية حقاقت تشرح ذهني!

هأنذا ما ازال منبثاً في عروق مدينة الثورات والانقلابات والجنون والتجّار والمنحرفين والتوحدين والمفصومين، وإذ تكلم قدامي من مسيرة الشقاء الروحي، أرغمني على ضفة رصيف تحت شجرة، وأدخن.

- لماذا لا تكتب عن الشعب؟.

الاسفلت أمامي يكاد ينبض بالظلال والضوء.

الاسفلت المرصوص المتأسك ببلابين الذرات المتحمّة، يسقط الضوء عليها ثم الظلام، الاقدام والاطارات أيضاً. عناصرها تدور في مداراتها. الكثر من سالب يقابله بروتون موجب، ثم النيوترون هذا الجزء المتعادل الذي لا يعمل أية شحنة كهربائية لكنه يمتلك قدرة اشعاعية خارقة تستطيع النفاذ خلال طبقة من الرصاص سمكها قدم، لكنها لا تنجذب نحو الالكترونات أو البروتونات.

هكذا الانسان إذن في التحليل النهائي المادي!.

- «لأنك رومانسي مثالي أنت بعيد عن فهم قوانين التاريخ وحركة الشعوب».

وحديثه عن الحزائي والوارثين، والذين أصابهم عطب نفسي، عن شهداء عصور الرمل والشعر والصلوات والجنس، والذين تألموا في منحنيات القرن العشرين، كيف فاجأهم الذرة بأشعتها الخاطفة، وهم هناك يتدثرون وتلون في الظلام العميق ما تيسر من آيات أجدادهم فوق قبور موتاهم.

وقال عني بانني لم اتطهر بعد منهم، وما زال في نفسي حنين اليهم، كما قال انني احبهم وأكرهمهم ولم أعرف بعد كيف انجو من طقوسهم البدائية والصوفية. ودافعت عن نفسي. عن حبي لهذه الأرض، وعن جذري المثبت العصي على الاقتلاع، وانني أبحث بدمي وروحي وعقلي عن شجرة جديدة تنطق من هذا الجذر. شجرة مضروبة بأشعة القرن العشرين تنشق هذه الأرض المظلمة، التي يهددها مناجم بيغن والتي لم تجذب بعد. الأرض التي لا نستحق أن نُهجر وتُلعن.

وقال : أنت لا تؤمن بقانون المادة.

وقلت : أنا أؤمن بالانسان ووحدة الوجود والثورة التي تدنّر العالم القديم. و«صنني بانني حلولي. وهذه نظرة صوفية ميتافيزيقية لا تثبت أمام قوانين العلم.

وقلت : أنا ضد التحليل الجزئي للذرات الانسان. فعادني يائساً.

نهضت عن الرصيف. سرت وأنا ألوح بيدي. فردت أصابعي في فضاء نصف مظلم وبدأت أدندن.

ومن الداخل داهمني فيض سخرية من كل نظريات الوجود والفلسفات

الحجرية التي جزأت هذا العالم، واخذت الانسان ذرة مادية تجريبية قسمتها الى موجب وسالب ومتعادل.

- «هل أنا متعادل؟».

بصوت خفي تخامد على حواف نفسي صحت: لا اريد أن اكون شيئاً في هذا العالم الساقط. اريد أن أحيا فقط.

لم يسمعي أحد. فابتسمت بمرارة عذبة. كنت أقدم احتجاجاً للعدم. وعبرتي سيارة مرق كالبرق. أحد ما لا يبالي بي، كذلك أنا.

المخلوقات المتحركة تروح ونجيء بطريقة غير ثابتة، لكنها لا تشبه دوران الجواهر في الذرة. قد يكون هناك قانون فيزيائي وكيميائي يحكم المادة، أما الانسان فقوانينه تنبع من الداخل، من العالم الثاني الذي يتمرّد على الآفة والطبيعة ويخرق حدود المطلق. العالم الذي يستقدم في لحظة انحراف جامحة صيباً بدل صيبة يانعة، شهية كالمنظر في صيف حار.

- «هل أبواب السرحان موصّغ؟».

لم أدر كمّ من الوقت مرّ على سرياني في دهااليز المدينة واقبيتها. كل ما أدره انني مُدّ عرفت منى صرت عدوّاً للزمن الميكانيكي. صار الوقت إيقاعات نفسية تنطلق ثم تتوقف فجأة دون أن تنذر.

- ٦ -

لم يكن مسرور في البيت. عاتيتي ديانا لعدم حضوري سهرة الاسبوع، فأفهبها بلا مبالاة انني لا أهرى التعرف على البشر كثيراً. واذ اعتقدت ان في ردي الجفاف نوعاً من الكبرياء، حاولت أن أشرح لها ان التعرف على الناس يحتاج طقوساً خاصة هي في أغلب الأحيان كاذبة، وأنا لا أتقن مثل هذه الطقوس، فانهنتني بأنني فلاح لا أعرف أصول التمدن، وإذ قلت أنّ هذا ليس نعمة، بل مفخرة بعيدة عن الزيت وأكاذيب المدن التجارية المتأصلة، جبهني: انتم متفطرسون ومزعولون أيها المثقفون.

واستطردت لثبثني: في السهرة كانت هناك نساء كالأفكار. ولوحت رأسها مشفية من غيابي.

وأنا أرنو إلى وجه وعيني ديانا، أدركني حس الالم، فقتلت نحو مسرور والحياة اليومية وصادقتها مع الآخرين.

دخنا. وقدمت ديانا قهوة، وسمعتنا موسيقى. وصممتا. بين حين وآخر كان كل منا يخون بعينه خلسة.

لم تجب على السؤال، وهو الآخر لم يجب. وها هو الآن غائب. ذلك الرجل المطارد الذي لا وطن له. فكرت به للتو وأنا أختلس النظر الى جسد امرأته.

هل وجد وطنه فيها فاستكان؟ وهل تستطيع امرأة في العالم ان تشيد لرجل عالماً من فرح معوضة له خسارة وطن؟

لقد قال راني: ان حب المرأة للرجل هو أتمن شيء في العالم. ومسرور قال: تزوّجْ ترصّ.

وسألني إن كنت أريدُ حمراً، فقلت: هل يتأخر مسرور؟

فقلت : ربما .

وتحركت لتصب لي قدحاً .

بعد أن احتسبت بعض الخمر ، عاودتني حالة الأمس ، فرويت لديانا شيئاً عن حالتي ، واذ أدركت وأنا أثرثر عذوبة فهم ديانا ، داهمني ندم مفاجئ .

تذكرت أمينة وأيوب وحادثة الطفل ، فاغتمت .

قالت ديانا خارقة الصمت : خلافاً لما يعتقد من يعرفك ، تبدو كثيراً في معظم الأحيان .

ابتسمت فأردفت : أقول ذلك جادة .

تخللت الخمرة إلى شيء آخر مختلف تماماً ، وراحت تلوح على الشاشة التذكرات والأحاسيس والألام الغافية . وجاهداً حاولت أن أتوازن ، لكن الغرفة راحت تتبدل وتندور ، ووسطها تبدت ديانا امرأة حقيقية لها زوج غائب وسط فراغ جهم . كنت قد بدأت أعاند احساساً راح ينمو في ظلام اللاشعور . وبين الرغبة التي تدق لتنتقل بعد أن هدمت الخمرة السدود ، وغياب مسرور ، كان العالم يترنح بضوضاء لا حد لها .

في المسافة التي بيننا ارتمتي شعور مبهم ، لزج ، طيني ، انسرب عبر زمان مغفل ، حدوده قاسية وروحة معاً . وبصفاء ساء خالية من الغم أجبت بعد صمت : كتيب لانتي مختل . ديانا هل تدركين معنى أن يكون الانسان مختلاً من الداخل ؟ واذ رأيت الجذ والتوقع الحاذ في وجهي . انكشت بذعر . بعد سقوط الكلمة ، أحسست بالانغم فوددت لو سحبتها حتى لا تنجلي قشرة السطح ، لكنها كانت قد قبلت ، وارتمت في أعماقها .

- لماذا تزوجت مسرور ؟

بدت الجملة مجانية ، وقعت مني ربما لتنفذ حالتي الهلامية ، ورفعت ديانا كتفها بلا مبالاة وهي تنجج لفاقها : كان لا بد أن أتزوج يوماً .

- هكذا !

- عندما تكرر البت في بيت أهلها تصبح شيئاً فائضاً يضايق . اذ ذاك لا بد لها أن تخرج إلى بيت آخر تشعر فيه بالراحة وترجع .

- أنت مرتاحة في البيت الآخر ؟

- مسرور يحبني وما أريده أحصل عليه .

كنت أعل أنامي في ثيابا شعرها الذي يلعب الآن تحت الشمس . أنحس جذيراته ، لم أفرد بين أصابعي فتدغدغي حبيبته ودقوة الشمسي . واذ تنسرب الأنامل نحو عنقها الوعلي لم بانجاه سفوح ظهرها أحس بجلدها الناعم كحصى الانهار . وبقلها النابض من ظهرها التكني على صدري .

- منى أنا مختل وأنت المشفى .

وتبتسم بشفقة حزينة : من تنشد مسروقة قبل السقوط . دعنا نمش . تنهض . وتنفذ الرمل فيتناثر شتات منه على وجهي وصدري . أرنو إليها وأنا ما أزال مستلقياً فأشعر في لحظة كالبرق أنها تبعد عني آلاف السنوات الضوئية .

قلت : لكن الانسان هل يتزوج يمثل هذه المجانية ؟

وهي تبسم : يتزوج الانسان بالطريقة نفسها التي يموت فيها .

وقالت النفس لنفسها : « حتى هذه التي اخترقت سائر الدين والتحريمات الدهرية بين المسيحية والاسلام لتطلع مطهرة على ضفة مسرور ، تقول ذلك ! » لم أكن منفعلاً ولا مشحوناً بأية رغبة . كنت عائماً في حالة ركون . طوفت خاو فوق بحر .

أبي استحضر جميع الذين أحبهم وهو مستلق على الفراش ، وبوعي تام قال : سامعوني يا أصحاب إن كنت قد أخطأت . لقد مضى عمر انسان إلى غير رجعة . مضى بخيره وشره ودنت لحظة الغياب النهائية . الانسان يخطئ ويصيب لأنه غير معصوم وهأنذا أموت بغير اختيار . الانسان ذكرى . وداعاً يا أصحاب فالانسان يموت .

واذ صاحوا : لا نريدك أن تموت . أغمض عيني وغاب بلا احتجاج .

في ذلك اليوم بكيت بكاء مرأ لفراق أبي ، وفي اليوم الثاني خرجت ولعبت الكرة بحرارة طفل يحب اللعب .

أخبرنا مسرور أن يأتي لنسهر معاً . الحّت ديانا على حضوره ، فوعد بالجمي . حسوت كاساً ثالثة . ولما ضوأتني الخمرة ثررت لديانا شيئاً نافهاً عن حياتي ، وعن الانسان في هذا العالم . وقلت لها بأن البشر ضعاف يخطئون ويصيبون في بلادنا ، لكن الخطأ ان إنساننا ناقص بحكم التكوين التاريخي والنفسي . الناس

ملوّن ومفهرون، ولهذا يتميزون بقدرة لا مثيل لها على التمثيل وإخفاء الجوانب المظلمة. ارت رسوي ينقُص عليهم النوم واليقظة، يودّون لو يتطهرون منه لكنهم عاجزون. من أجل هذا أنا كتيب. كتيب أحياناً حتى العنف أو الموت وأنا أشعر بعجزتي عن فعل شيء ما لهم.

وامتد صمت.

كانت الأشكال تبدل. تغيب صور وتبدل صور أخرى. وتاريخ الآن يتأطل مع تاريخ الماضي. فقط كانت الأصابع تطلّي الشاشة، وكان قلبي يدق بخوف وأنا أرى مرارة هذا النتائج. هذا الاستشهاد. وفي النفوس، تحت كل ما يحدث، كان هناك حجر ناشب ينمو نمته عجزنا وسقوطنا وإخفاقنا. حجر صلب كان ينبغي نفسه. لكن ذلك كان يحتاج جرأة وضحايا وثورة.

وشعرت بقلبي يرتعش بالخزن.

لم يأت مسرور. ولحت على حيا ديانا غامة اكتئاب.

- أنت أيضاً تكتئين.

رنت نحو يأسى سري، ولم تجب.

- ما رأيك أن نسير في الشوارع ثم نمر على مسرور؟

الخمرة العظيمة تحطم سدود الكذب. تثبت ان عالم فرويد ليس احتيالياً ولا منافقاً للعلم. بذلك فكرت ونحن نحتاج عبثة المنزل. لفحننا نسجات دمشقية، أشعرتني انني ملك المدينة وأنا أسير مع ديانا. كنا نسير متحاذين، تارة فوق الأرصفة وتارة فوق الاسفلت. لم يكن هناك اتجاه محدد. دمشق راقدة كمقبرة، وفي العمارات النظيفة تزهو أضواء زرقاء وحمرها. وفي هذا الليل الاسطوري رجل وامرأة يترنحان على غير هدى.

فجأة خرقت ديانا الصمت: بماذا تفكر الآن؟

- بك وبهذا. الليل!

- بي؟!

- أجل.

- وضحكت بعدوبة خائفة.

- الا تفكر بصديقتك؟

- الآن. لا.

- أنعها؟

- هي لا تحبني.

- غريب!

- هل تحبين مسروراً؟

وصمت.

قطفت زهرة ياسمين ناولتها لها. بعفوية أخذتها.

شمت رائحتها وقالت: عمر الياصين قصير.

- كعمر الحب. صدرت الكلمة عفواً.

وانثنيني في شارع آخر.

شعرت بالزهو وأنا أعبر الشوارع التي عبرتها مع منى، حاولت أن أشير إلى ذلك فشعرت بسخف ما سأقول، وكلما اتجهت نحو المكان الذي يعمل فيه مسرور، كانت تقودني باتجاه معاكس. مارست لعبتها فسألتها: بماذا تفكرين الآن؟

وصافحت وجهي عيناها المتألفتان. ابسمت: قبل لحظات تساءلت لماذا لم يأت مسرور؟

- هل أحزنك غيابها؟

أجابت بتلقائية: كان عليه أن يأتي.

وسألنا ان كانت تحس بالحرج لأننا نسير في هذا الليل، فأجابت بأن الأمر عادي. وتحدثنا عن قوانين الشرق وقيمه والانسان المحكوم، وقلت بأن الرجل والمرأة لا يعيشان حرية الداخل وان أي انسان لا يخطر بکسر أول حلقة، وهو ينتظر ان يبدأ غيره عملية التحطيم، وقالت: ليس سهلاً أن يخرق الإنسان جدران المجتمع. ذلك يحتاج إلى جرأة نادرة. حاولت أن أفهمها بأنني لا أقم كبير وزن لشريعات كانت تصلح للأعراب القدامى. وانني أحقر المرأة أحياناً لأنها جبانة، فقالت ان الرجل هنا لا يفكر أبعد من نيل جسد المرأة ثم يدبر ظهره. ودخلنا في تعقيدات الثقافة والوعي والحرية الداخلية وضعف المرأة الشرقية ومحدودية فهمها للانسان والعالم. كانت المدينة تشع، ونحن نتوغل فيها، مولدة شعوراً وجفاً بشيء ما قد يحدث. وكنا نسير جوار النهر تحت ظلال الأغصان المتهدلة فوق الرصيف. إلى

وجه ديانا رفعت عيني. كان شعرها الفاحم يتأرجح في الريح، مرخياً كالصفصاف فوق وجهها السهي.

الصمت.

إيقاع الخطوات مع إيقاع النفس اندغاً في زمن واحد. احترق أكثر نسيم أثري واشج الأسرار، وحرك الوجع. بقصد لا شعوري لامس ساعدي ساعدها العاري. توجفت. ابتعدت عنها. سبقتني خطوات. وتحت الضوء لحت ذلك المسيل الأبيض المحبوك بإتقان. بيني وبين نفسي تمتب لو أمسح شفتي عليه من منحدر الكتف حتى المعصم.

الشوارع نفسها، والظلال، والأفكار الجانية، ثم المشاعر ذات الطرف الوحيد تلهث عن موئل ولات موئل. الأشياء تقترب من ضفاف الافصح، فيرفع الزمن جرس الانذار.

كنا ما نزال نسير، دونما اتجاه محدد، دونما غاية. وفيما مضى سرنا أيضاً. ورويت حكايات وتواريخ شخصية، وبفعل الخوف والإحباط القديم الجاهم في السرايب، ركنت الاندفاعات، وشقت بيننا مسافة. سرنا باستقامة ثم انعطفتنا، كما حدث في ليال مضت، ولم تكن هناك رغبة في العودة إلى البيت. وحكت ديانا بعض الأسرار عن حياتها وطفولتها وأهلها ومدينتها. وتوالدت اسرار أيضاً. سرّ بفضي إلى سرّ، وكنت فرحاً وكثيراً، ولم يخترن الليل شيئاً. فقط كانت الذاكرة تلتقط.

ثلاثت الخمرة. كنت الآن صاحبة على نحو متفوق، والشيء الذي لا يبوح، يتفتح كتويح في غسق ندي.

- ٧ -

علاقة الانسان بالأشياء تبدو أحياناً عصبية على التفسير، هكذا أنا ودمشق وجميع من استوطنها طويلاً.

يقول سامر البدوي: وأنا بعيد عنها أشعر بشوق صوفي إليها. ملعون خالقها. تسكن الدم والعصب كأنما وباء استعصى على الشفاء. عندما كنت في بيروت وددت أن أعدو نحوها على قدمي، ثم لومت غبّ وصولي فوق ترابها لما ندمت. أية مدينة في العالم لا تعرض عنها.

وقلت مبتسماً: المدينة أم النساء؟

ورفع ذراعيه: دمشق امرأة طويلة طويلة، مثلثة، نضرة، مسكونة بالرغبات الالهية وبأشياء أخرى لا تدرك. ثمة شيء تحسه ينتظرك أبداً في مكان ما فيها.

وعلى مدى الدهر، هو الثيل. والخمرة في نفسه قبل أن تكون توقاً فيزيولوجياً ليرضى الجسد ويندال.

رغبة متصوف جسدي، بعد أن يثمل يخرق أقى الجدران، فيتحول. يحس انه صار الها، وإن فروغ وسواقي الانهار جميعها تصب في بحره الشاسع.

وان تنبّض بكنهه الداخل وليكن الطوفان، أن يقبلك البشر بكل ما فيك، لا بما يريدونه، ان تكون جزءاً من عالم وعصر، محتجاً، مبشراً، ثم ساقطاً، ذلك هو سامر البدوي.

وفي عصره الخائق الجبان، وشموه بالأخلاقي، ولعجزهم عن الوصول إليه، قالوا: هذا المستهتر!

قُورن برامبو والخيام، ولكنه كان بيروت القرن العشرين القاطن منسياً في دمشق، والذي كان ينقصه، أوغستا ليانام معها. لم يكن شاعراً كبيرون، لكنه كان

ملعوناً بفطريته الصحراوية وجسده الذي تصبح كل ذرة فيه بعد حسو الخمر: إلي بكل نساء العالم لأنام معهن مرة واحدة ثم أموت.

بعد الخمر تجسد نبوته المركزية، يحكي فتسمع له، وتحكي فيسمع صدى كلماته. واذ تصمت تكون قصص جديدة مبالغة، مُتخلِّقة أحياناً، قد ولدت في غار رأسه يروح يتلوها. وفي حوار حول الشعر والحس، بدا لي في ذلك المساء مقهوراً، ألحت اليه بأنه اختار طريقاً صعباً ليس من السهل عبوره، فتحدثت عن الشاعر الذي يكتب بدمه والقارئ الذي لا يتعب وهو يقرأ، واحتج على الذين لا يفهمون كلماته، وقلت: ربما كانت المسألة هي غير ذلك، وما أردت قوله عن الطريق الصعب هو القدرة على خلق فن حقيقي من خلال التجربة الحسية، فالشعر ليس حياتك أنت، انه حياتي أيضاً، هناك ضريبة تدفع على حساب الفرق اليومي، وحتى يكون هناك توازن لا بد من موهبة خارقة، وأنت ضحيت بالشعر من أجل الجسد.

وبومها صاح كثور يذبح: أنت ماذا تعرف عن الشعر؟ الشعر والجسد لا ينفصلان.

وقلت مغبطاً: الشعر- الفن. لا الشعر- الانا. أنا لا يعني جسدك. قلْ شعراً أقل لك من أنت، وأنت عاجز عن الخروج من جلدك وهذا مقتل.

وباجتياح طاغ اتهمني بالغفاه والقصور عن التقاط الانفعال الفني، وتلا علي آيات مكرورة من بيتس وبودلير ولوركا. وكان غضباً ومؤذى. ابتسمت وقبلت صمتي التهمة.

وكا يمضي النهر والريح والسحاب، كانت حياتها تمضي. وان توجد أو لا توجد في قواميس علم السكان لم يكن ذلك يزيد أو ينقص. كان بإمكان النسل البشري أن ينجب الملايين ليضيفوا ارقاماً إلى الأرشيف السكاني، لكن علم الاجتناع والاحصاء، كانا عاجزين عن إنجاب منى أخرى تدخل تاريخي الخاص. كان ذلك من اختصاص علم النفس الزمني.

في مفهى خاص بعد مقتل زوجها بأربع سنوات، سألتها لماذا تزوجت ما دامت تكره الرجال وتخاف الأجساد العارية. فأجابني بأن ذلك تم على نحو تلقائي، وقد أعطت جسدها وأنجبت ميسالينا حتى لا يُقال عنها بأنها عاقرة، وحتى

يرضى ذلك الذي يؤد أن يفاخر برجوله الشرقية ونسله. وسألتها إن كان قد حزن واغتم إذ أنجبت له بنتاً فقالت: كانت ميسالينا في رحمي عندما مات!

كانت أناملها تنقر سطح الطاولة وهي تتحدث، واذ رشفت بعض القهوة طلبت أن أشعل لها لافافة. وسألتها عن حياتها الجنسية بعد موته، فحدثت في وجهي بانها مبطن. بعد ثوان من الصمت سألتني ان كنت أعرف شيئاً عما يسمى بالاكتفاء الذاتي. شيء ما وخزني في الداخل، وطلبت التوضيح أكثر فشرحت لي، وقلت بأن ذلك يعود إلى الطفولة وقد يكون ردة فعل ضد الكبت، لكنها أوضحت لي ان ذلك بالنسبة اليها شيء مختلف وانها لم تخاف من طفولتها، وان الأمر حدث بعد أن قررت أن تكون لنفسها. أشرت إلى الألم الذي ينجم عن ذلك، محاولاً أن أخوض في دقائق الموضوع، لكنها وضعت كفها على فمي قائلة: هذا شيء خاص ومعتد. دعنا منه.

فحت دفتها الصغير وراحت تقرأ شعراً. كنت ادخن وأملأ ابقاع سطح وجهها وهي تتطهر بالشعر. قدمانا متعاقبتان تحت الطاولة، تضغطان اثر المقاطع الحارة، بيتنا مجموع جسدها مشبوقاً والشعر يجتاحها. وقالت ديانا رداً على سؤال لم أسأله الآن انها تزوجت مسروراً بالصدفة. كان يسكن غرفة في بيتنا. وكان يبدو عليه الحزن والبؤس. أحياناً أدخل غرفته فتسلى ونضحك، وفجأة وأنا منكبة أقرأ شيئاً له على الطاولة قبلي، فوجئت. عابته عليك أن تكون مهذباً في بيوت الغرباء. انكسر من كلماتي وقال بذلك: ديانا أنت لست غريبة عني. وراح يبكي ككفل بين يدي. خجلت من تأنيبي. اقتربت منه. ورفعت رأسه ومسحت دموعه، ثم فيها بعد تزوجنا.

كنا نمتطع يساراً نحو شارع آخر، وديانا تحكي ببرودة كأنها شاهد محابذ. أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين، كنا مطوقين بدمشق. نسير ببطء، ودمشق متاهة، وضيق، وأنوار، صمت، وغياب، وتوق لشيء غيباً فيها وفيها. الدروب تقضي إلى دروب والاقدام ترنّ على الأرضفة بخفوت، ولا تنعب. اننا نخفي.

- تعبت؟
- لا.
- نعود؟
- كما تشاء.
- فلنمضي.

ومضينا. داخل غسق خاص، في محيط زمني مُثَلَّت، يتراوح بين العم والنور، بين الصمت والافصاح. كنت أتقرئ ديانا تلك الليلة، وأنا أستمع لخفق شفتيها. وكل شيء كان يسري كالريح، وفي غمرة هذه الريح بدت ديانا فضاء شحيح الاعتكار، وكطائر موسمي هجر جزيرته وتاه، كنت أخترق ذلك الفضاء.

□

عندما عدنا كان الزمن قد استرخى في أجسادنا، وفي الداخل سقط الولع. كانت السيارة آنذاك، الحقيقة التي تتحرك، والعالم في الداخل والخارج هلامياً مستكناً. أية كلمة لم تُحك. الراديو يخرق الصمت بموسيقى حزينة هادئة، وواثل يسوق براحة نفسية، ومحاذاته هدى نائمة.

على بوابة البيت رُفَعَت الأيدي الليلة مائعة، وغابت المرأتان في شارع جانبي. دوار في شوارع دمشق، ودوما اتجاه مقصود. صمت ولغائف تحترق. ووروداً تصاعد السرعة.

منعطفات لُفْها بسرعة جنونية؛ أضواء تمر، وشوارع تُعَبَّر، وأسفلت تسحقه إطارات مهووسة، وبقايا سكارى يترنحون داخل أحزانهم التي نشرها الخمر.

- إلى أين؟

- إلى الله!

ونحرك جرح الجريح. هي ذي ريح الوطن والبعث والفضي أكثر فأكثر نحو أحاسيس جديدة، عبر أضواء ترقق في ليل النفس التواقفة للطلوع من إسار الجسد، من إسار العالم، نحو رؤى ومراقاة احتلت ولم تُقْدها الجراح. ومنى لا تخضر، وفلسطين جرح ناغل في الجانب الأيسر الملاصق للقلب.

□

هي هجرة خاصة من نوع جديد، ليست طيفية أو طوباوية كما تبدو للوهلة الأولى. إبحار عميق لا يكل في محاولة للوصول إلى هبولى الأشياء. رحلة ربما، عبر جحيم العربي المعاصر المتلكئ فوق هذه الأرض، هذا الذي يخدع بمشيتة فوق الأرضة، بصَرَ الناس العاديين، لكنه من الداخل مسكون بالجن والتوق، بالرمل والبغضاء، بالمبالغة والخوف، بالأمل والخيبات، بالخيانة والكذب، بالحضارة والغياب. جحيم حقيقي مذعور ينيء بعصور الانتباذ القادمة ربما.

- لكن لماذا نفيس جسدي؟

- لأزكر في ذاكرتي جيداً حبلو الخاص.

واذ انتهت من عملية القياس، استلقيت قربها وحدقت في السقف والجدار المقابل أطبع صورها هناك. مرت كي من أعلى جسدها حتى رستها. كانت ممددة في الفراش. بعد حين تغيب وأظلم وحدي مع السقف والجدار، ولو صحت حتى الأغاء: ان عودي، لما عادت. أن ظلي هنا، لا ينتمى ورحلت. ولو صاحت نفسي بالزمن: دعني أعقلك فيها قبل أن تغرب الشمس، لفقهه الزمن مني، وفر.

وبعذاب كنت أسأل: لماذا؟ الغزاة والفاخون أم طبيعة البشر؟ لماذا هذه

البلاد اللعينة تتأرجح في الريح؟

أي جحيم لا يُفْصَحُ عنه، أن تحب كل نفس ذاتها في حجرة سرية لا تُخترق، وأن يكون هذا النعس ضحية الزمن الصانع!

وسألت مني: ألم تحزنني إذ مات؟

- دُهِشْتُ. تساءلتُ لماذا يُقتل الإنسان بهذه السهولة؟ وفيما بعد انتابني حس الغثيان.

- خفت؟

- على مسيلينا التي ستحيا يتيمة.

- لماذا هجرتها؟

وصمتت. طلبت لفاقة. نفثت دخانها في الفضاء بقوة: دعنا نذهب إلى البحر!

أذكر الآن جيداً كيف عبرنا ثيغ الرمل. وكيف جربنا حتى الشاطئ. وخلال جربنا راحت تتعري من ثيابها. وهي تتعري رحت أفسح جسدها بعيني. بالطريقة ذاتها في اللامبالاة، في غرفتنا الرطبة في حي السبكي، بدأت تبعر ثيابها. تحت سطع الشمس لم ظهرها البيج، فضغطت رغبة الطواف بذلك الظهر المورق الذي لم يمس.

على حافة الموج كانت عارية الآن، مثل سماء صافية. نقطة بيضاء وحيدة عند ابتداء البحر. قطع ثيابها متناثرة فوق الرمل والحصى، واذ أنخيت اجمع القطع، سمعت صوت ارتظام جسدها بالماء.

وحالني أن أراقبها وهي تسبح، موزلة كللؤة في مياه البحر الصافي. فوق الرمل استلقيت على جانبي الأيمن بينما سرحت عيناها نحو ذلك الجسد العظيم الطافي فوق الماء. الجسد الذي يتظهر الآن من عصور الرءاءة في ميصح الطبيعة الفسيح. كانت تضرب الماء، ثم تغوص، ثم تنبثق كالسمكة مغسولة تلمع تحت الشمس. شعرها الفمحي الناضج يلتصق بخديها، تفرده فتبدو أناملها الرقيقة في أبداع تكوين، واذ يبرز نهذاها لامعين مغسولين كورق قطلب الجبال، يهب في داخلي توف الحلول فيها، ينادها صوت مجروح تعالي الي، لكنها تقلب على بطنها فيبدو نصف ظهرها مرجاً من ياقوت وفجأة تقمس غائبة في اللج الملح. يمر زمن أنظر فيه خروجها. يداهني شعور أنني فقدتها. أرى المسافة بيننا الآن، ولا تحي. وأنا الآتي إليها على مدى العصور، ومعها كان الصدع يتسع، وبدت صلتنا كأنها قطعت بمدة أحد من الموت، بترتها الخييات المتواصلة، الخييات المسجلة في أرشيف العرب. ثم هذا المرض الجديد الذي سمته الاكتفاء الذاتي. اذ تنبثق مرة أخرى تستلني على ظهرها، فأشاهد سطح جسدها: الحلمتين النيذيتين، وجزءاً من بطنها، وركبتيها ورؤوس أصابع قدميها. أتذكر أعياها عن قطع مسافة المتي متر،

كما أتذكر برمارة أكثر الفتية الذين عرفوها من الخارج ثم ولّوا عنها موغلين في عروق مدينة دمشق. هي ذي تنتصب بيضاء كحامة في اخضرار البحر. انها هناك. عارية. مضطبة. مفعمة بالبحر.

يقهر استوطن خلاياه، مذ بدأ يحس هبوب الزمن على جسده الذي يشيخ، نهد: اليوم أنا بائس!

تعلّيت وجهه الشاحب المتكرر بالعطب الداخلي، فلمحت تحت عينيه نصف قوسين وريتين أفرزهما الزمن. وأضاف: صوب الصحراء هاجرت هرباً وما استطاعت ان تنسى، وبالألمس عادت إلى دمشق. ألم أقل لك أن دمشق قطب العالم ومن عرفها مرة تسكنه كالوباء. قالت انها حجت الى الكعبة. دارت حولها وتعلقت باستارها هامة: يارب انسينه. فتصور أيها العربي الصعلوك!

- لم تنس اذن؟

- ايه.. من الذي يستطيع أن ينسى؟ الحب كجرح الوطن ينغل ويلوب. يترأبداً وفي فصول الخصب والهاج كالكاآة يشق الأرض القاسية. غنوا لنا غنوا، انتشروا أوشحة النسيان فوق جسد هذا الزمن الحزين.

اشتد احدهم قصيدة جديدة فصاح سامر: يا ابن الحرام ما أشعرك!

كان متوجاً بالحزن، يولّد منه أفراحاً وقتية، وعلى هؤلاء الذين أحبهم راح يوزع نفسه.

عندما انتشرت الخمرة بكل مجدها الصوفي، وبكل الحرية التي تتحدى بها الحواجز، عصّني من رمانة كفتي. هس لي عقب صراخي: أيها الملعون كم أحبك!

واستطرد قبل أن أقوه: أنعم لماذا لم تنس؟ كز بأسنانك ثم شب عن كرسية واقفاً، رافعاً كاسه: نخب الموت!

عندما بدأ الكهف يرمي بالأخريين إلى الشوارع، بدأنا نحس عذوبة الخلوة. كان سامر البدوي يدخل حالة خاصة لم أعدها فيه. ثرثر لي بأنه لم ينم مع المرأة وكان حدثاً فريداً في تاريخه النسائي، وانه أراد الاحتفاظ بها في بقعة نظيفة من نفسه.

وسأله: هل في نفسك رقعة لم تلوث بعد؟ فحدق في وجهي بشراسة عاتبة: حتى أنت تقول ذلك؟!!

واعذرت، موضحاً بجرارة أنني أعتقد أن هذا الشر الذي يعتقه مسوخٌ لأنه رد فعل قاسٍ ضد الخير المنحرف والموروث، وإن التكوين السويّ لم يأت زمنه بعد، والعصر الزاوي يلد بالضرورة أبناء زناة، ونحن ربما كنا زناة بالوراثة. وقلت له إن أمي لم تعرف، حتى موت أبي، ما هي اللذة الخاصة بها، وأنه كان يلجأ إليها كما يلجأ الوحش أثناءه ثم يقلب عنها.

وحسبنا.

وهو يضع كأسه، آه بفهمه الزمن. مال نحو جاره وعانقه، ثم وشوشه. قرأ لنا شاعر آخر قصيدة فشارف سامر تحوم البكاء. دقي كأسه وقال: غيبك يا أنبل الشعراء.

مع رفع الكأس واندلاق الخمرة في جوفه، تراجع البكاء. تذكر أن عليه الا يبدو ضعيفاً أمامنا.

- لولا الذين أحبهم لاتحترت.

ونتر مسلسله، ثم وضعه على الطاولة. إذ ذاك توقف الفرح والشعر، وتبالت موجات النازحين من القيو.

وسأل بدهشة إذ رآهم يهرعون: لماذا؟

مهم جاره بين الفرع والرح: خوفاً من هذه الآلة الفاشية. مشيراً إلى المسدس الملقى.

ابتسم سامر بهزء: لكنني سأرهنه لأنني لا أملك ثمن الويسكي.

□

في غياب منى حاولت ملء فراغي. وأريتُ الحزن والفقدان. لكن ذلك بدا محالاً مرسومًا على وجهي الذي احترق الكآبة.

كنا ما نزال نسير في مدينة الصمت والحجارة، ورمقتا حارس يسلي وحدته بالمسير وصفارة الخطر فابتنم ولم ينبس.

- يعتقد أننا عاشقان، قلت، وما تبسّيت هي الأخرى.

وتعاذبنا أيضاً. مسح زندي زندها الأسمر المفسول مرة أخرى. وتباعدنا. لا شعورياً استعبد ذلك، وكنا نتحدث قليلاً ونصمت. وسألت نفسي: هل لهذه المسيرة الليلية معنى؟

شارع يصل شارعاً. ووصيف يودي إلى وصيف. الدروب نفسها. رائحة الياسمين الليل. ثم الصمت. وخارج المدينة تقوم البراري حيث لا حجارة ولا بشر، يقوم الانشقاق من المنازل الشبيهة بالشرائع التي استنت في غيابتها، لأناس متمدين يهفون جميعاً إلى حياة الوحوش والحرية.

هل قلت لها: أنني أكره هذا المجتمع الذي يخدع بأنه منظم؟ وهل اجابت بأنها تحب الحرية؟ وهل ردت بأن الحرية تُعاش إذ تُحب؟

كانت الكلمات ترنمي كما يهطل مطر مفاجيء، كما يأتي نهار عقبه ليل، وكما يجري النهر وتشرق الشمس.

□

مرة. ومرة. مرات. الشوارع أيضاً وهؤلاء الآخرون الذين اخترتهم في البدء ظللاً صحراويًا، وفيأبعد رغبة ملعونة للاستكناه. تستمع حافراً في أرض البشر ذرات تكومها كخلد الحقول. يرتفع السطح الزاوي الذي جافته الشمس. وتقول وأنت تنجف التربة: متى تنتهي اللعبة؟

نطوقك الشابك عنكبوت يريل وينسج. ينسج حتى حدود التلف. ما الذي تريد أن تصل اليه عبر السيج المولم؟ هل ستكشف شيئاً لما يكشف بعد؟ كوناً منسياً في مجاهل لم تُرد؟

وما الذي تستطيع أن تفعله يا موظف الدرجة السادسة، أيها السيد المفقود في المخطات، في بلاد رجعت أنبياءها؟ فرسانها اعتكفوا في الخارات وداخل خزائن المال، وفي المواخير، وراحوا يشرعون حراب الفتح ويغرون فلسطين واسكندرون هناك، باتين للعربي الجديد مجدداً من الفوضى والعطالة.

سرنا في شارع حلب العريض. كان خالياً من المارة في ذلك المساء الصيفي وبتدت شجرات الرصيف متوحدة كجذوع ناس ضلّبو منذ مئات الأعوام ولم يتزلوا.

وثبت في الفضاء. قطعت ورقة خضراء فقهمه سامر: أبوك. تب كجدي. من أين لك هذه الحيوية؟

- كنت فدائياً!

زغ مستنكراً: فدائي! أنت فدائي. فدائي شرفات يا ابن...

وقاطعته: لماذا تسقط نفسك علي؟ أنا أخلاقي يا أخي. وبأعلى صوته صاح:

اسمعوا يا ناس. اسمعي يا آلهة. قال أخلاقي. قال. اذا كنت أنت أخلاقياً فأنا المسيح اذن!

- أي مسيح؟

- ابن يوسف التجار!

وكموتوحشين انطلقت صرخاتنا.

في فراغ ليل المدينة رن الصراخ. تلاشى وضاع في أوراق الشجر والفضاء. في عرض الشارع تارة، وعلى الأرصفة، تاملينا، تسابقنا عدوًّا ولفنا. بخفوت ونحن ندق خطواتنا المتزهلة، اعتكر الزمن. ناح سامر «سكابا» يا دموي العين سكاباه ومع الترانيم راح يميل بجسده المعنى.

شارفنا منعطفًا انعطفتنا معه.

- ليلة بلا نساء.

وقال: من أجلها سأكون طاهراً هذه الليلة. أتعلم لماذا لم أنم معها؟ دندنت مطلع أغنية لفيروز. أشعلت لفاقة ورحلت أترنح.

- عذراء ومخطوبة لصديق بريء كالدمنة وأنا أحبه.

سرا. لم أعلق، وفي الفراغ نفثت دخان اللفاقة. فجأة جرى قليلاً حتى سبقني وانعطفت مواجهها. من صدري تناولني بقبضته السبارطية وهزني: اسمع. أعرف ماذا يقولون عني. أنا أرغب أن تحتقرني السائمة. احتقارهم تطهير. وسام أعلقه على صدري. اسمع. العربي مبعد. طرفة نني كالبرقي. أمرو القيس غادر الخمر بعد موت حجر الذي لعنه عندما كان حياً: هذا ولد لا خير يُرجى منه. أنا أعرف ان العربي الذي نخدس به لم يأت بعد، واذا يقبل تدبير الخمرة. آه انني أتحدث اليوم كمخمور حقيقي. الموت لنا جميعاً. الموت للكلاب الضالة قعد الخوارج. وصمت قليلاً. افلنتي من يده القاسية. سار كمأخوذ وراح يهلوس: يا اله الآلهة لا أريد شفاعاة ولا جنة ولا غفراناً. أنا قايلاك الملعون. تخلّ عني فأنا شفيح نفسي يوم القيامة. نحو السباه كان يرفع يديه ووجهه. وتحت ضوء فانوس الشارع بدا وجهه متوهجاً كشهيد وقت التزع.

بعد صمت قال: ينبغي الا نغون بعضنا بعضاً. أنفهم ذلك؟

ومرة أخرى استوى الصمت، استواء جنازة رُفعت فوق الراحات. ومن الشرق

يزغ قر رائع، لكنه كان ناقصاً. نحو السباه حدثت، في ذلك البحر المحذب الأجويف. اعترض خط بصري قبة مثذبة فوقها هلال في نصف فراغه الناقص نجمة.

هناك كانت رؤوس الأشجار هادئة، وكنت أسمع هبوط أقدامنا فوق الأرض. عبر الشارع رجل معتم هارعاً إلى الجامع.

في حضني نامت أمانة بعد أن ضاجعتها باشبهه لا مثيل له، وكأن ذلك يتم للمرة الأولى. في فراش واحد كنا كابن وأمه، وكانت سمية غافية لصق الجدار. بجاننا من هدأت شهوته طوقت عنق المرأة، فأحسست دقات قلبها تحفّق برتابة واطمئنان في غياب أيوب السرحان المسافر.

كانت قد هيات عشاء وخمرًا، وجلسنا ثلاثتنا. كابنتي اطعمت الطفلة، ورويت لها حكاية فضحككت، ثم مثلت لها دوراً هزلياً فدمجشت من حركاتي. وعلقت على ذلك بأنني أصلح مثلاً سينائياً. وعزمت بأنني أقبل شرطة أن تكون ماما هي البطلة. بفرح مطلق ابشمت أمانة وهي تلسعي بنظراتها.

على الخوان كنا متلامسين، وفي مواجهتنا سمية والأيدي المشتبكة المشبهة تحت الطاولة تضغط سائلة: متى تنمس؟

كان البيت يعط على بساتين دمر، منفرداً بين غياض يجري خلالها بردي. وفي الخارج كان الليل والزوج الذي أقنعت بالسفر لتفقد ما تبقى له من حصاة الأرض في الطيحية.

صلى الرجل في الجامع وعاد؛ باشمئزاز رنا البنا ثم تابع نحو بيته. كان الالهاتك قد تسرب البنا وما قيل تبخر منه ما تبخر، والذي ينفع مكث في قاع الذاكرة.

ودعنا وداع، افترقا.

كان هناك في ضياء الظلمة يسير، وحيداً، منكسراً كمحارب. ومن الشرق راح الفجر يزغف.

كم سرت حتى وصلت، لا أدري. كل ما تذكرته في الليلة الثانية وجع معدني وطراوة عشب حديقة السبكي.

وفي تلك الليلة فاتحت بروتحتها. من كل ذرة شبت الروائح فأغلطت فيها. الجسد وحده الذي ثرثر. قام وهبط. توجع واحترق. انساب ثم اخترق كالرمح. ثم مات.

ثلاثة أعوام ولا ملل. ودمشق سكنية تحل في النفس والبدن، يخطف الذكريات فتكاد تنسي كل ابن أنثى كونه الذي هجره، فبنسل الماضي كما نسل روح على مهل.

وكما قال سامر: مدينة مسحورة تلتف حول بنينا كما يلتف اللبلاب. نحنو عليهم. نطمعهم. ونفاجئ في ليل دامس نخفقهم بلا مقدمات. هكذا كنا نفعل كل يوم في مدينة العطاء والسكاري والمخدولين والشهداء والتجار. من مقهى إلى آخر، من رصيف إلى رصيف، ومن امرأة إلى أخرى، ومن خجالة إلى خجالة.

دوار يعقبه دوار. من الشيء نحو اللاشيء وبالعكس. ثور أعمى يدور حول بئر. جبل اسمه منى: جبل الصعود والمبوط. الجبل اللامعدي. وأسماه راني: جبل القطعة المرحجة. في حين كان اسمه في قاموس سامر: الذي لا يملك دقة الوقت والتاريخ في اللحظة الراهنة.

وقلت عنه: ميلونا. فادوم، امبرياليزم، عسكريون، عزرائيل. فبقا الانفلاش الثوري.

ونقول دمشق: أنا اللغز الذي عجز عنه معاوية وتيمورلنك والسلطان سليم وسائر الفاتحين المبجلين.

وظلت قضية وائل الأسدي وأيوب السرحان ومنى وسائر المطعونين دونما استثناء، مستترة في مكان خفي من تواريخ المدينة وغزواتها وتوراتها المعاصرة. ظلت بلا قضية ثوريين في عصرنا الحديث. []

الطريق نحو دمر - بيروت مفتوح ومشجر، يخلف شعوراً بالانطلاق والحرب. على جانبه الأيسر يتأد بردى داخل أبنية ثابتة بين ظلال الحور والصفصاف. وفي الجانب الأيمن قاسيون العاري.

وراءنا دمشق التي تعرت لكل الغريب وظلت دمشق. والذين سموهم المكسوس الجدد ما زالوا مقيمين فيها. همجيون وخطاة، لكنهم يبدون أكثر انغراساً في جسد

نمت. قالت سميرة: أنت تزنج كأبي. ضحكنا وأنا أدرج نحو القسلة. التفت إليها: أبوك اذ يزنج يسقط أما أنا... وسريعاً قبل أن أسقط ولحاً المرحاض.

إلى النوم يا عزيزي الصغيرة. جميع الأطفال يتامون باكراً. اذا خرجت وأنت بقطعة ما تزالين، سأحملك عنوة إلى الفراش وأعطيك واطيء النور. هذا ما ينبغي أن يكون. أنت ذكية وتدركين ذلك. لا بد أن اللاشعور يعمل بشكل جيد. هذه هي الحقيقة. أنا لست مذبناً. أبوك هو المذنب. أنت ترين ذلك بوضوح. أي ام في ادخال الفرح إلى نفس امك التي هجرها والدك من سنين. جسد امك بحر صاف مثلاً، مسكون باليوانيات والمرجان وأنا بحار مسكون بالنوص ورفائب البحث عن الجواهر المخفية في تجاويف الصخور. عندما تكبرين ستفهمين ذلك. لماذا يحزن الجسد ونحزن النفس؟ ولماذا الولوج يظهر البدن وينشر في ربا الروح نسيماً عذباً وراحة لا نهائية؟

الرجل لباس المرأة. أنا غريب هذا مؤكداً في الماضي، أما الآن فأنا ربيع الأم في أضياف اليتيم. المسرة والسلام للمرأة التي ولدتك بلا شهوة. أسألي امك عن هذا وهي ترتش وتتر كما تنقصف الأرض اذ يدهما زلال. وإذ يسألونك عن الجسد قل: الجسد أمينة وما أوتيت من العلم إلا قليلاً. يا أجساد نساء العالم الجميلة كوني خالدة على مدى الدهور فلا تشوخي ولا تموتي.

في ذلك المساء اشتعل البيت بالرغبة. مرة. ومرة. حتى الفجر واننا عاريان. وفوق جسدها الرمري الأملس المصون، سبحت. تطهرت في بحر جسدها. وللأزمة القديمة والنسل المنني خارج جسده، تأرت. لم نشعر بالليل، ونحن نتفتح كياسين في ظلام رطب، داخل بيت منفرد مغفور بالغابات وموسيقى النهر.

الزمن الدمشقي. بوحشية غير مترنة، يهشمون أنفسهم وسكونية دمشق وروايتها. دمشق التي اعتادت على مدى القرون البيع والشراء، الصلاة والجمالة، الهدوء الكاذب ثم قذوف الغبراء عندما تفسج منهم.

دقائق ويوقف واثل الأسدي سيارته بعصية. فيسمع للاطارات سحق مفاجيء. يوجي بجاذبة مباغتة. بحركة مثل، يقادر مقعد القيادة ثم يغلق الباب بعنف ويغقله. ندخل دهليزاً مغطى بأوراق الكرمة. يتبحرنا كلب ينهره واثل ثم يربت على ظهره فيشب الكلب بمودة على قائمته، هاراً بخفوت من عرف القادم.

يخرج واثل من صمته مذ غادرنا دمشق: هر لأنه عرفك غريباً. طوال الطريق لم ينبس. كان يدخن ويسوق كالمهوس وأنا قربه لا أعرف إلى أين نخفي.

انعكسنا داخل الدهليز المسقوف بالشجر. فاجأني النهر بهدير زاخر، وتحت انعكاسات الضوء بدا عكراً صخاباً.

لأول مرة أشعر ببرد غيفاً في هذا المكان الموحش.

كان البيت معزولاً عن مجموع البيوت المتناثرة في الضاحية، غارقاً في السكون. وإذ وضع المفتاح في ثقب الباب وحركه فصر، داهمني إحساس غريب مشوب بخوف.

أشعل نور الممر وأنا أمشي خلفه بخشية واتشاد. لم يكن يُسمع غير صوت خطواتنا على بلاد الممر. وبتنا غرقاً إلى اليسار. أشعل المصباح. سرير وطاولة وكراسي وخوان وأرض عارية. على المنضدة والأرض زجاجات فارغة وكؤوس فيها بقايا خمر؛ فواكه ونفايات، ثم الروائح الحامضة.

.. ما رأيك؟

غريب وشاعري.

.. هناك غرفتان فارغتان. هل تسكن معنا؟

.. أنت تسكن هنا؟

.. أحياناً.

كان واقفاً يشعل لفافة «جيتان» دخانه الحاد المفضل. معه كنت أتقي إلقاء

الأستلة. على الخوان جلسنا. تناولت لفافة وأشعلتها، وشبكت قدمي بينا راحت عينايتا تكتشفان البيت.

كان السرير في حالة فوضى، وفي زاوية منه منامة نسائية مطوية. سألتني إن كنت أرغب في تناول القهوة، ودون أن يأخذ جواباً تحرك نحو المطبخ. سرت إلى السرير. رفعت المنامة. كانت ممزقة وعليها بقع من دم. اهتزت في أعماقي توجس. على الأرض تحت بقعاً حمراء مختلطة ببقع البنيذ. وعلى الجدار كانت هناك صورة عارية لرجل في حالة تنهيج، يقبل نحو امرأة مستلقية تسترها غلالة نشف عن كامل جسدها. اللوحة زيتية والزمن شفق. وفي الزاوية بجلات نصف مفتوحة. تناولت إحداها فواجهتني أوضاع جنسية كان جزء منها ممزقاً.

لست أدري وأنا أعود إلى مكاني، كيف تذكرت صوت هدى الذي صرخ في البراري. هاجمتني روائح مرضية هبت من هذا العالم الغريب، واثابني خوف خاص مشوب بحزن وغيان. كنت متقبضاً.

وأقبل حاملاً القهوة. ورأيت وجهه الوسيم وشاربته الأشقر وشفتيه وشعر صدره الكثيف السامع نحو رقبته. بإبتسامة مرتعشة قلت: أنت وسيم واثل!

فناجأني: هه. وسامة مشوطة تساوي فرج امرأة. ورحنا نخشي القهوة. من تحت المخذة تناول علبة دخان أميركية. عرض علي قلت: أنا ضد الأميرالية. وأشعلت لفافة «شرق».

قال: بل أنت ابن حرام.

استفهمت منه فابتسم، وقال إنني أملك رائحة شمّ نفسية. ولم أفهم ماذا يعني. بين أصابعه فتل اللفافة: لو تعرف قيمتها. أنت لا تعرف قيمة التمام. وقلبت شفتي. ووسموني بآثني حمار لا أدرك من عالم الإنسان إلا الأمور السطحية، وإن الحياة في نظري قراءة كتب وتأملات لا صلة لها بالواقع. ثم ختم موعظته: التأمل لا يخلق إنساناً. والتجربة واختراق المحرمات في هذا العصر الجليل هي الأساس يا بهيم.

وقلت: قد أسمع الكثير من الآراء الدونكيشوتية التي تتجلى لك ولكن أفهمني ما هو هذا التمام؟ فقهه وراح يشعل اللفافة المقللة في نهايتها، ثم عبّ نفساً طويلاً قذف إلى فراغ الغرفة قليلاً منه وأبطل الباقي. شممت رائحة غريبة وزكية، بينا

كنت أرشف القهوة. امتدت يده إلى زر النور فأطفأته، وأشعل مصباحاً صغيراً أحمر. قال: هذه طقوس لا بد منها.

بدت الغرفة موحشة، نشبه مغارة قائمة في الجبال. وراحت الروائح تتداح على مهل: مياخ من عصور قديمة ترحي بالوت والجنس والعرلة. الأرض والجدران والياب والفراغ، راحت تنضح. تدخل أني وتغور إلى الداخل، أحسست أنني مرمي في حفل جنازي وأنا مسحور، لم انتقل إلى عالم مفرح، فعالم يوحى بالقتل. تخيلت في هذا الغلام الغرب أن امرأة حضرت هنا من زمن ماض، فرحت، لم انتهكت، ثم قُلت. وازدادت الروائح. أحسستها تخرج من لفافتي ومن قديمي، من الكلب والخوان، ومن كل جسدي. كانت هناك تسونطن كل ذرات الغرفة، وكنت كالنقطة يحوطني غلاف من روائح بخورية تخرج مني. وفجأة دهني انقباض وحالة غيان، وكان قبالي يجتسي القهوة ويدخن، ماصاً لفاقة على مهل. يحكي أشياء أحاول جاهداً استيعابها، انتهت للكلمة هدى وناديا فسألته إن كان قد رآها بعد تلك الليلة. شتني وهو يقول ان المرأة الشرقية تؤخذ عنوة. وأتذكر أنني أجبته أنها رقيقة وعذبة كزهر الياسمين وتكره العنف وأن هذا الذي تحدث عنه مركب نقص في العربي المسكين. وبدت حدقاته محرورتين باحمرار حار، وحاول أن يناقش في موضوع الفحولة والمرأة الشرقية التي تخضع للذكر وهو يقتحمها بشراسة، فقلت بأن هذا المفهوم بدائي لا علاقة له بالإنسان المعاصر، وان المفاهيم قد تبدلت منذ عصور الكهوف والفرسان والصحاري. وإذا تناول لفاقة أخرى راح يتحدث عن نفسه وقوة الخارقة في الجنس وضرب المتأمرين في قيو مكبته. كان في حالة خاصة، ورويداً راح يتشنج ويصرخ ويهدد، وكنت منكشاً أنسخي ألماً عليه. وحاولت تهدئته، ففشلنا وراح يهذي: كانت الحياة معه تبدو ضرباً من المحال. تصور رجلاً مشوهاً مرمياً على سرير لا يقوى على النهوض. مضى عليه حوالي ثمانية عشر عاماً هكذا. الأدوية لم تنفع وكل الأطباء عجزوا عن شفائه. من الخارج انساب صوت النهر، وتحولت الرعدة والمفاجأة إلى حالة من الحزن والشفقة.

ونفض. صب لنفسه كأس نبيذ ثم جرعه دفعة واحدة: كانت هنا بالأمس على هذا السرير. قالت: أنا عذراء يا وائل. انتبه جيداً. عذراء أيها الكلب. ها. ها. وجرح من الزجاجة.

- أي معنى أن تكون امرأة عذراء. غشاء كخييط الكنيكوت يُمزقُ بطعنة ثم ينتهي كل شيء. صمت قليلاً ثم استطرد:

في الصباح دخلت عالم الحريم. تلوت. صرخت آهها. هاي. مرحباً آهة مرحباً عذراء. عندما تقتحم غشاء المرأة تحمرها. آه لورأيها بعد ذلك بعد أن فقدت أغلى ما تملك. لماذا لا تشرب. يا... يا... واذا تلفظ بكلمة: إنسان. شعرت أنه ربما استيقظ. وصب لي: نخب العذارى!

قمة الفرح والبوح. قمة التمامة ومضغ اللذة التي تُستعاد الآن. وائل الأسدي موشى بكبريائه وطقوسه، وما يزال يندندن عن امرأة كانت عذراء، بينا أنفوس داخل نفسي كسلخافه مائية دوهت بعيداً عن النهر.

وعادوئته حالته من جديد. شرب مزيداً من الخمر وتناول لفاقة أخرى، ثم حكى عن اغتصابه هدى ثم ناديا بعد أن نُيلتا وتناولتا دخاناً أمريكياً خاصاً. وما بان في وجهه إحساس من ارتكب شرأ، سوى أنه مبعج لفاقة الحشيش بعصبية ونفثا في الفراغ: هذا كهف إبليس. أعرف أنني شيطان من نوع قد لا تقبله. ماذا يهم ذلك. لقد أردت لك أن تعرف الجانب المظلم من حياتي وبعد ذلك ترفضني أو تقبلي فهذا لن يؤثر على مجرى العالم في رأسي. باقتضاب حاولت أن أشرح له أن هذا ليس جديداً علي، وان الأمر قد يقربني منه أكثر. فلا يكني أن تنلمس سطوح الأشياء فقط.

وحديثي عن الرغبة في البشر، وأن الإنسان قد يولد بطريقة خاطئة أو مصيبة. المهم أنه يسقط من ذلك الشق القدر ثم ينمو. وفي سن معينة ينسى ولادته. تبدو الحياة مبهجة وفي الإنسان تتوالد اندفاعات. الجسد القوي مشحون بطاقة تريد أن تخرج، ثم الأحلام. المدرسة والبيت يقولان بطريقة أو بأخرى: كان أجدادك عظماء فتحوا العالم، وتشمخ. كل شيء مبني في الماضي كما يبنيني وعلى أحسن ما يرام، والحاضر استمرار للماضي، والنسل القوي يلد نسلأ قوياً عظيماً. الأجداد زلزلوا أسوار الرومان والفرس، وأنتم خير أمة أخرجت للناس، وقد فُصل نبيكم على جميع الأنبياء وكان خاتمهم. إنك ترى جيداً أن الأشياء جاهزة تماماً، كاملة تماماً، نقية كالفضاء الصحو.

- نخب الصحو. رفقنا كاستينا: نخب العكر. كالطيف العابر

مرالصمت. رف في فراغ الغرفة كشاهد. كنت أراه الآن بطريقة جديدة، من زاوية كانت مظلمة فيها مضي. كان وجهه الأصفر المحتاج يعطيني إحساساً بالقنطرة الصاعدة من قاع شره الخاص. شره المسوخ، ربما.

- بعد المرحلة الرومانسية، بعد أن نكون قد دخلنا في راحة الأشياء وطمأنينتها: حب. لا مبالاة. فتيات. حرية. خمر. ملذات ساحرة. العالم هادئ ومعشوق حتى الموت. ما الذي يحدث فجأة؟
وعبر الصمت المنئي لم يكن يسمع إلا نفاثاته الأفقية.

- كنت حالمًا في عالم مسحور. في عالم كاذب. كل ما قبل وما أحسنت كان فريسة كبرى. والعالم محتل منخور من الجذر. حتى الولادة كانت خديعة لذة عابرة بين رجل وامرأة. نحن ملوثون بطريقة شيطانية. ناقصون ومشوهون وكل ما تبقى من العمر سيكون تكفيراً ورأياً للصدوع التي لا دخل لنا بها. والله ذلك السادي. يفرج ويفهقه لجراحتنا التي نحاول عبثاً نضجدها. إشراب. إشراب. العالم لا يحتمل مزيداً من الأحزان. المهم اغتصاب الفرح من غابة الحزن ولو كره الله. كان النهر مستمراً في هديره، والسياء مرصعة بنجوم بعيدة، وبين لحظة وأخرى تعبر سيارة فيسمع دوتها ثم يتلاشى على الطريق الطويل الملتوي.

وبقدر ما كان متشياً، موغلاً نحو رحم الأشياء، كان موجعاً وتعباً. بدا هذا في عينيه وحركة اليدين. بهدوء استلقى فوق السرير وراح يحرك أصابعه ببطء على سطح الفراش، وعيناه الزائغتان تحاولان عبثاً مطاردة أحاسيسه على جسد السقف. لست أذكر إن كان صاحياً تماماً أم في حالة نصف الصحو عندما همس وهو يتنهد بعمق: آه.. لشد ما أنا شقي.

ثم دخل عالم النوم بارزيتاح تام.

- ١٠٠ -

هذا الجدار كنتم لا ينفذ منه الحب. يكتفي نفسه بنفسه. والعاربون ظلال غيم تنسحب فوق هذه الأرض، ادراكها يعبر حالة من الغفالة. حالة رجراجة ترتعش بالمستقبل. يغيث خدش جدار التاريخ والتاريخ مظلم وعكر، وهذا الجدار كون خاص أقامته مسافات زمنية عمرها آلاف سنوات النهب والاستلاب والانتهاك والدم الملوث، فولدت داخله طفناً من التآثر اللاشعوري الصامت.

ومن جميع الفرسان الذين عبروا نفوسها، حملت بفارس خاص ينسب نفسه قليلاً لينشأ، وبعدها تكون له لحماً ونفساً. وعلى جميع الدروب شاهدت كيف نهوي العبقريات العظيمة في برك الجنس والتوحد الاقليمي.

ولكثرة ما حاول الطامعون اجتياحها، فقدت حس الاصطفاء بين الفارس والعبء، بين الشاعر والأمي، بين الثوري والمغامر. ومع الزمن لوحظ أن جميع الأطباء وعلماء النفس عاجزون عن شفاها.

وفي حالات من التأمل الخاص كان يخيل إلى أن منى تشبه نقطة ثابتة في الفراغ، متحركة في قاع نفسها، تنوس بين العبقريّة والعادية، راغبة في قبض العالم وتبديده ثم تكوينه من جديد.

□

«أشياء كثيرة يمكن البدء بها. فثلاً أنا أقرأ كثيراً في هذه الأيام وأكتب قليلاً وأفكر بطريقة حسية. بالتحليل والمراقبة يمكن فهم أشياء كثيرة أو على الأقل الاطمئنان إلى قناعات احتمالية. إنني أقول لنفسي: أنت تتعلم بطريقة حي بن يقظان.

راني. هل قرأت حي بن يقظان؟ أنا أرى أنه نموذج في الوصول إلى المعرفة. والعرب يمكنهم في هذا الزمن أن يصلوا وجودهم بالعصر بطريقة مماثلة. بالطبع أنا لا أعني اكتشاف الله والتصوف الغيبي السخيف، وإنما اكتشاف نفوسهم في هذا الزمن المحتاح بطريقة عملية. في غيابك وغياب منى أتسل بمحاولة بحث نفسي وتاريخي عن اثر العربي في الزمن. هل ينقرض أم ينتج من جديد وكيف؟ يخل إلى بأن ما يقصه أن يكون صريحا في مواجهة نفسه بقسوة كقسوة سيفه الحاقد على أخيه. السيف المبضع الذي يخترق الدمامل فيفجرها. هذه اول عملية تطهير. أنا أعرف أن هناك أحديداً تاريخياً كونه عصور الاستلاب والخوف والكذب والخيانة والعلاقات المنحرفة والطغيان والغزو والقمع، ثم هذه الفردية المتوحشة. لقد أودى هذا التشويه المتراكم بفلسطين واسكندرون، وإذا ما استمر فستحول إلى بقايا من الهنود الحمر.

أفكر كثيراً وبمرارة يجيلنا. الجبل الذي قديمَ العالم قبل أوان النضج. الجبل الزائع.

دعني أوضح لك، راجياً أن تفهمني جيداً بلا إدانة: لقد أردت منى وأردت نفسي التي لم تكتمل. نفسي التي ورثت من العصور القديمة نقصها الوجودي والتاريخي، فرجٌ بي في تيار التاريخ الذي يحاول أن يتمخض عن ولادة شيء جديد، وأنا نبتة طالعة في أرض هذا الوطن تحتاج ماء وسبأاً وشمساً لتنمو وتقوى وتقادم. إنني أعتقد أن مشاريع ثورات العرب كوكيتل عجيب من الدين والقومية والماركسية المسطقة، والجبل الجديد تاله يمارس أقل من ربع حياته بطريقة طبيعية. وما تبقى يتبدد في السفطة والاحتجاج السليبي والخمر والنساء والشذوذ، بعيداً عن الماء والشمس والنمو الصحي. دعني أسألك كم من الزمن مضى حتى استطاع خالد أن يكون قائداً لا ينهزم؟ قبله كان عصر عنزة وغررة وثعلبة الشيباني. وفي زمنه كان حمزة وعمر وعلي، أما نحن فن سلاله المستعصم والمتوكل وبني بويه والمالِك والسُلطان سليم والملك عبدالله وفاروق وسعود ونوري السعيد وبورقية والسراج والكربري.

إنني أحاول أن أفهم لماذا رفضت منى أن يكون لها نسل وأن يتمتع البشر بنسلها التي، وإذا اشبه الأمر عليها يوماً فولدت ميسالينا، راحت تدعوها لتعود إليها، لا لتضعضها بذراعيها وتحيا معها، إنما لتعيدها إلى رحمها، إلى وطن الطهر المرمي. أعتقد أنها تؤمن بأن أوان ظهور الإنسان هنا لم يكن قد آن، وأن حالة

الإنشاق المباحثة قبل النضج، كانت لومة معاصرة مجنونة ومغامرة. إهانة موجهة لها وللأجيال الثورية التي ستأتي فيما بعد. ولعل هذا يفسر رفضها لنا جميعاً. انني أسأل لماذا الزمن الحاضر قائم خارج العربي، بينما يقيم هو في الماضي؟ ولماذا كل الإرث القديم التالف يتجلى الآن، ومن خلال هذه الموروثات يعمر كل فرد ملكته الخاصة؟ إنك تدري كم نعاني لنظهر بمظهر الأسوياء. أنعلم ماذا قال لي سامر البديوي عندما سألته لماذا تدمر نفسك هكذا؟

قال: هناك طريقان لا بد لجيلنا من سلوك أحدهما احتجاجاً على هذا العصر الملتاث: التل والنساء حتى الممى، أو الانتحار. لم أعقب رغم إدراكي الأكيد للطريق التي تمتد بينها. الطريق التي حايد عنها سامر وسائر الأصدقاء الممطشون، بعد أن سحرتهم مدة الإقامة في مدينة منى، فطابوا نفساً وقروا عيناً بالسلطة والوسكي والفضوضاء ومنازل الحُور العين. إنني أكتب إليك بعد زمن طويل من الانقطاع، أنت الذي تحيا على شواطئ بيروت وفي أوقوة وباحات الجامعة الأميركية.

تمر لماماً على «العَمّ سام» و«المورس شو» فلتني بقوافل المثقفين وتثرثون عن أحوال مدينتنا الثائرة، في حين ما أزال أزرع شوارع دمشق ليلاً، ماراً بكل الدروب التي خطوتنا فوقها، صاحباً حنباً، ثملاً أحياناً، وحزبناً في حالتي التل والصحو. إنني أتساءل: كيف يُمكن أن يحمل الإنسان كل هموم هذا العالم المضطرب داخل نفسه ولا يُجن؟!

ألا يدعو هذا إلى الدهشة وعقد اللسان؟ لا شك أن هناك طبقة ثالثة تحت اللاشعور لم تُكتشف بعد، وفي هذه الطبقة ربما تسكن حقيقة هؤلاء العرب يحجم آلامهم ونفوسهم التعيسة التي دُمُرت وتناثرت شظايا. أشعر الآن بالارتعاد وأنا أطل على تلك الساحة القصصية. لكن ما ينبغي الإصرار عليه هو المزيد من محاولات اكتشاف الزوايا الميتة-الحية في الإنسان. هل تعتقد أن هذا تبرير خائف حتى لا أقدم على عمل حاسم؟

رحلت يوماً مع منى إلى البحر في حلم يقظة. كان هناك ناس بدت أنها مرتبطة بهم هي التي تعرف أنها لم تتم يوماً إلا لنفسها. لم تصل إلى قرار حول الزواج أو الحرب. عرضت عليها الهجرة إلى الجبال والغابات لنبدأ من جديد. هزنت مني قائلة: أنت مغامر رومانسي. فاكثفت بالصمت والسباحة وتأمل جسدها

اللائلآ تحت الشمس، ثم تظاهرت أمام الآخرين أنني سوي وعاقل، وفيما بعد اعتذرت عن خطيئي واندفاعي الأهوج.

حينني الدائم إلى الريف والجبال يزداد ويقوى، بعد أن كشفت لزوجة الأشياء وحامات الدفء اليومية هنا، والأكاذيب. دمشق مدينة ممسوسة والأصدقاء ينزلقون يوماً إثر يوم. تتلاشى من نفوسهم حيثيات الجراحة، والمستقبل يلوح غامضاً وغامضاً، ويبدو أن الإبحار قد توقف إلى ما بعد هذه الجزيرة المريحة، المفروشة بالبروكار والموسلين وطنافس الملك.

تعرفت على وائل الأسدي: ضابط قوي البنية شوّه أبوه في حرب الـ ٤٨ بعد أن هاجروا من اسكندرون. يملك سيارة فارهة يصطاد بها النساء بسهولة. إنه حالة خاصة: مزيج من الجنون السادي والعقريّة والتدنّي الفردي. إنسان عصائي. متى تقول الشعر أو قلّ إنها تتعلمه. لغتها الشعرية فجّة. غير أنها عبر كلمات لا شعورية متناثرة، تحاول أن تعبر عن الحلل الكوني فيها وفي الإنسان منذ حدث السقوط. في كلماتها الفطرية نزوع مستمر نحو الأعلى. إن مفرداتها تتحدث عن النجوم والغيم والشمس بوجودانية متطهرة، وفي تعابيرها تستعمل البحار الزرق والجزر المهجورة والغابات والجحيم والمطهر المسيحي. يخيل إلي أنها دون أن تدري، تحاول أن ترثي من خلال نفسها الجنس البشري الذي هوى من قبة أخلاقه فوق أرض مغفرة بالغبار والدم والإثم. إنها تبدو لي عالمة قائلين على أرض واحدة: حياة خاصة ملوثة، منبوذة، منحطة. ثم حياة تتجلى في شعر تطهيري معاكس للتلوث يحاول الإنبياء عن أعماقها النقية، ومن ذلك الداخل تنتحب على نفسها وعلى البشر الذين أصابهم ذل بلا حدود.

لم يعد لديها ثقة بالناس الذين مرّوا في حياتها فأحدثوا لها جراحاً لا تندمل. انتهت اللزّة عن منى، غير أن ما لم ينته بعد، ذلك الخط الذي يكرّ باتجاه كشوفات جديدة. أعتقد أنه سينقطع عما قريب عندما يدهمني الملل يوماً والشعور بلا جدوى كل ما وصلت إليه. ولكن هل وصلت إلى شيء. هل اقتربت من النسوغ؟

«سلاماً أيتها العزيز الذي يعيش خارج عالمنا المتهم. اكتب متى أردت». أحسست بتعب نفسي مُضِنّ بعد أن أنهيت الرسالة فتمددت على الفراش، لم تكن لدي القدرة على التفكير بشيء، حتى منى عبر اسمها في ذهني ثم انطلقاً

بسرعة. وأنا مستلق على سطح النوم تذكرت أنها كانت قريبة منى منذ لحظات وفجأة استدركت أنني لا أعرف أين هي الآن!

مذنبكم . يحكمكم أعماماً قتلون من نسله . يطهركم فيكون لذريته دوي في طول الأرض وعرضها . ذرية مباركة ، في دمه الخمر والنساء والمكابرة والقتل وهجير الصحارى . ومن أجل أن يكون ذلك حقيقياً هانداً أقصد دمه فوق هذه الصخور . أمرز لحمه على الشوك والرمال الحارة كي يكون صلباً قوياً لا يهاب .

وفي البيت كنا وحيدين . وكان هناك الفراغ والتوحيش . وسوسني إحساس أنها خائفة مني . بدا ذلك في ارتعاشة يدها على مقبض المكواة وفي ذعر عينيها الوعلتين الوجفتين . وزغم إحساسي الشفاف نحوها ، حاولت أن أوازن بين مشاعري وهذا الوجف المهتر .

كانت تتحرك في غرفة ضيقة ، وثوبها الداخلي ينفث بي أثناء غدوها . وفي تلك الليلة تبدي جسدها تحت قبض النوم في فقه إهماله ، لكنه كان شهيئاً كما ينبغي تحت رغبتني . وأنا أنغلها سقني الحزن . مرّت ربح الخيانة فوق سهوب نفسي محملة بالأذى والتدم المتوقّع . قلت : هذه السمكة العالقة في شصّ . وما كان مثلها بين النساء في ستر أحزانها . وإذا بحث لها بذلك ابتسمت بمرارة من تخاف الاختصاب بعد لحظات : الحزن يرسو في الأعناق . لا يُباح به .

وحادثتها عن الشرق المبحر نحو هويته الضائعة ، وكيف يعيش الناس أعمارهم في النسيان واللاشعور خارج الزمن الحقيقي المخصص للجسد والنفس ، وانهم لا يدركون كثيراً المعنى الكبير لوجودهم ، ومن كثرة ما انهم الدهر التحريجي عليهم ناموا تحت وطأة الزمن والمصالحة . وإذا يسأل أحدهم : لماذا أنت هكذا ولست نفسك ؟ يجيب : جميع الناس هكذا !!

□

ديانا عالم سكوني باهت . بحيرة منسية في غابات عذراء . اعتادت الصباح والطعام والتبرج والأماسي الباردة . وبفعل الطنين اليومي هدأت فستيت من تكون . في الأيام الأولى من تعارفنا بدا كل شيء عادياً بارداً خلا جسدها الجميل الذي يشبه حجراً من رخام يلعب تحت البصر النافذ . فما بعد أذكر أن سامر البدوي حدثني عنها يوماً بطريقة مؤذية ، اشتهاها كنموذج لجسد شرقي غريب عن دمشق .

يومها قال عن جسمها : أنه إلهي في تكوينه . وقلت مغيظاً : أشتي الإنسان صفيحة من البرونز ؟

هذه أزمة الغربة ؟ ربما . أزمة الجنون ؟ ربما . لكنها أزمة الذكرى قطعاً . ليل . موسيقى من الصمت والوحشة . نساء عرايا في برار موحشة . للأرض طعم خاص ولجسد المرأة فوق التراب الحار رائحة الوطن ، ولرائحة جسد المرأة رائحة التراب .

في ظلمة الليل تنثني فوق الجسد الأخضر ، على الأرض الخضراء فتحس مجد العالم ، وأنتك والإله في مرتبة واحدة . هنا في هذه الأفاصي بعيداً عن الناس ، يحملك الحلم . وحيداً ولا من يراك . وأنت ترى نفسك ، هذه التواقة للتعدد في بحر مطلقها الشخصي ، والجسد جامح يود أن يفتتح بازدهار لا حدود له في غابات الجسد العظيم . وقربك جسد مسي يلوب عن حب . جسد مهجور منذ عصور أجدادك الدينيين ، والإيم ليس أكثر من خرافة نسبية عتكب الزمن عليها داخل كهف هُجر هو الآخر منذ أعوام ما عدت تذكرها . منى تقول : إذا لم يتحرر الجسد فالروح سجين حتى آخر الدهر .

مزيداً من الحزن . مزيداً من الحرام . مزيداً من لفقة البحث .

وتسأل نفسك لماذا يتم الجنس هنا كما يتم القتل في الغرف السرية ؟ ولماذا المرأة الدمشقية تطلب أكثر من عشيق ، تباهي بهم في محافلها الخاصة ثم تقول : هذا الذي انقرض كان عشيقاً ؟ !

هوذا العشيق الجليدي يأتي . راع محروق بالشمس والتعب . مولود من شهوة رجل ثمل كان يصلي الأوقات الخمسة وصلاة التراويح أيضاً .

« سميت الشبل وأنا أبوه . درت أزقة القرية وأنا أنادي : يا قوم هوذا الخارج من ضلعي ينمو وينام . يصير رجلاً بعد شقاء مرير . يخرج علي ويلعني في آخر الزمن لأنني أصير في عينيه عتيقاً بالياً . يهجر باديته ووجل أزقة ، ويتقدم نحو

- هذه امرأة حقيقية أبدا الختير. أنت فاقد لحاسة الشم الحارة. وفي مرات كثيرة حاولت أن أبوح لديانا. أن أقول لها ماذا تعني بالنسبة لي بطريقة صحيحة بعيدة عن الخيانة، لكن سرور كان ينتصب بيننا كجدار مهدم عاجز عن تحمل أية صدمة جديدة.

ورغم ما كان يبدو في سلوكها وكلماتها من انطلاق، كنت أنصوّر أنها موقفة ومحصنة، لا بالشرف الأصيل التابع من أعماقها، إنما بالخوف التاريخي الذي ورثته من المعاشرة والاستهلاك الاخلاقي السائر للخيانة الداخلية.

كان يودي أن أحدثها يوماً عن الامتلاك النفسي، هذا الذي يتم أحياناً بين امرأة ورجل لا يتواصلان فيكون الآخر هو البديل في لحظة الواقعة الحسية، أو يحدث من خلال نظرات حادة في المسافة الواقعة بين البصر والبصر، أو بالتصورات عندما يذكر اسم الرجل المشتته في الداخل وتحضر صورته في الذهن. كان يخيل إلي أن تلك المصارحة مهمة جداً في عملية الشفاء التي نحتاجها جميعاً، لكن ما كان يخيفني لدرجة الإزدراء، اعتقادها بأن ذلك ليس أكثر من تمهيد لامتلاكها حسيّاً.

ولا طلبت مني البقاء في البيت، خفّت أن خوفها بدأ يتبدد. أحسّت بالحرج وانني ربما كنت غفلة.

وتساءلت: أليكون سرور قد خدع للمرة الثانية؟

كانت عيناها تشعان ببريق خاص، وهي ما تزال تكوي الثياب تحت ضوء ساطع، وأنا أتكى على الحوان أدخن وأراقها. لا أدري كيف تخيلتها فوق سرير مريح، أو في بيرة موحشة تحت المطر والصمت واصداه الفراغ البدائي. وكيف تسلك نحو خوفها المترجج بالرجاء نحو فم عالمها اللطيف اللبالي الباردة. كانت هناك على مسافة أمتار من الفرج، محرومة ككل نساء الشرق تشبه آنية من خزف فوق رف منيفي.

وبقيت. شربت كأساً ثالثة. طلبت موسيقى. وكانت تروح ونجي. زنادها عازيان حتى الإبط، وتحت إبطها شعر خفيف. تمثلها ذهني خائفة، مشهية، مسكونة بفرح مجهول. من تحت إبطها تفوح رائحة خاصة توحى بالعري واللذة. الموسيقى تصدح. هي الأخرى لها رائحة. ساقاها المرميتان تشعان تحت الضوء. تحت القمر والريح. تفرج شفتاها فتوشك السفلى على المطول. أسنانها في لون

الثلج. قبض زهري شفاف تحت جسد مني خلقه الله ليكون تاج الرجل وزاده في ساعات الضيق. هوذا وحيد متروك للريح والغفوة. لم يستيقظ بعد لأن الرجل الذي يفتح كل مسامته لم يأت بعد. ولأن الرجل الذي يجي عليه أن يفتح النفس قبل الجسد.

«وها هوذا الرجل الذي يبب الاطمئنان، يمدد هناك، بشرب ويدخن ويعس بي. وأنا هنا في العالم الذي حملت به منذ الطفولة وهذا الرجل على بعد متر واحد. ما عاد غريباً كما كان يوم دخل البيت، وما عاد وجهه المنفتح يوحي بالخراب. يا إلهي كيف تبدل الأشياء بمثل هذه السرعة. الأشياء أم النفس؟ هل الزمن في الخارج أم فينا. أهو مطلق أم نسبي؟

وهو هناك بعينه الوحشيتين ولا مبالاة.

قال يوماً: المرأة وطن الرجل. لكن كيف تنعري امرأة لرجل غريب؟ هل قلت: غريب؟

ولكنني لا أروغب الرجال. المداعبة فقط. وفي تاريخ الشرق لم يحدث أن تقدمت امرأة من رجل تحبه وقلته في البدء. لكنه هنا أكاد ألامسه. أشعر بنظراته تعريتي. ساقاه ملفوفتان وصدره مفتوح وشفتاه عروقتان بلفح شمسي. إن صدره يعلو ويهبط. ينهض. يتقدم مني ويمد ذراعيه. كيا في كله يهتز وجسده يلامس جسدي. نرقص. يتحرك بي بعتان. مسحورة، عمولة على جناح غيمة وأنا مفعمة برائحتي. يضمي ثم يلقي رأسه على كتفي. أغيب في عالم مسحور. في عالم طفولي يزدهر بالحنان والمذوبة والألوان. أغمص عيني حتى لا أفتق من حلمي. بهدوء يسحني نحو المر. أشعر بذراعيه تضغطان جسدي. أنامله تسري على ذراعي. آه. غبطة. شمس تشرق علي. أنفاسه تلفح وجهي لتغفو فوق شفتي. أية حرارة تشيل في شتاء جسدي. فجأة ندخل في الظلمة. أنامله تهوي إلى الأسفل. يهس: خصص الله للخلق ستة أيام واليوم السابع خصصه من أجل ساقيك. أسمع أنين السرير فأفتح عيني. غرقتنا. لا.. وأندفع من الحجرة.

- الا تؤمن بشيء اسمه القدر؟

- أؤمن بشيء اسمه أنت.

- وهل انا القدر؟

- أجل. اسمعي هذه الحكاية: يوم وزع الله حصص الأرض على الناس كُنْتُ غائباً. ولما عدتُ توسلت اليه ان يعطيني شيئاً أعوض به عن غيبي. سألتني أين كنت يوم التوزيع؟ فقلت كنت مسافراً. وسألتني ان كنت قد صليت وذكرته خلال سفري فقلت: كادت عيوني تغمى من السهر وركبتي تُمحيان من كثرة ما سجدت.

ارتاح وقال: ايها الغريب لقد ذكرتي وانا لم انسك ايضاً. فالله لا ينسى عباده الصالحين. هي ذي امرأة جميلة وحزينة كانت مذبذبة فعاقبتها برجل شرير. اني امنحتها لك قائم معها ولتغمى عليك. عيشاً بمسرة ولا تسبب لها حزناً. هي من خاصتي ولا أريد لها غمّاً.

- انتهت الحكاية؟

- انتهت.

اشرق وجهها وفرح تهلل له جسدها.

طوقني عندما دخلت الطمأنينة قلبها، فأنجابت غمها. سألتني: ما نعمله اذن بإرادة الله؟

قلت: أجل انه مقدر علينا منذ بدء الخليقة وليس شراً يا عزيزتي أمانة. فاجأنتي: يوه. كم انت خبيث وملعون.

□

حدود التوق البشري هل لها نهاية؟ والمدينة التي سحرت الجميع في غفلة من الزمن من خلقها وكيف؟

اللبل. الضمير المستتر لدمشق، ثم هذا الموت البطيء داخل حياة التيبس حتى على الذين يملكون ذاكرة كالبرق. أية روائح تدخل مسام الجلد والنفس فتستوطن هناك. تصير ماضياً حينا. وحينا آخر تنبت كالرعد.

ولما طُوِيَتْ مَنى في ملفات الأرشيف التاريخي ظهرت هذه المخلوقات الغريبة كيثور فوق سطح الجلد.

- جميع النساء اللواتي عرفت كنّ مشوهات.

دُهِشت. فتحت فاهها مستنكرة: انا مشوهة؟!

- ١٢ -

من البيت إلى الوظيفة ثم العكس. استيقاظ وقهوة وثرثرات. حركات عشوائية وظلال باهتة من الضجر. حياة العربي تشبه الحياة لكنها تسير بقوانين العطالة. يحلم ويعيش في المطلق. يتخيل أنه يُنجَز، لكن الزمن يعبر قربه ويمضي. يقتله دون أن يشعر ويمضي. تماماً كما تعبر مَنى في رحم دمشق وتظل دمشق عاقراً. ومع الزمن تُخصى الأحاسيس. ترتخي حيوات الناس في هذا السجن الزمني الغارق في حلقة المصنوع. أردت الخروج من جلود البشر، من جلد الأيام الضجرة ومن العجز بعد أن فقدت مَنى، فاصطدمت بأمنية. وبكل ما ادخر هذا العربي المنهك من ضغط تواريسه وتوقه للتفريغ، حاولت أن أتوازن معها، غير أن الصدع توضع أخيراً وبدت لي كلمة تطهير كإعادة بزه للإنسان المشروخ منذ آلاف السنوات، لغزاً في ضمير اللغة، ربما يحتاج آلاف السنوات أيضاً حتى يفهم معناه. ولو قلت لأمنية أنني أشفى على غنوم جسدي لأطلق بعد ذلك إلى الصحة والحركة التي توقفت منذ التار والأتراك والماليك، لكانت اللغة التي أتعهدا هيرغليفية جديدة.

أواه. كم أحس بحاجة إلى لغة.

لهذا ظللت مصدعين: هي تسرد تاريخها الشخصي المُصاب، وأنا أرى جسدها يجوع حيوان لم يشبع منذ وُلد.

كانت تشعر أبداً أنها تخون، في حين أحس بشيء من الحرية وأنا أرتع في سهول جسمها النامي.

وعندما كانت تسألني: متى نمارس ذلك بحرية وحلال دونما خوف؟ اجيبها: مانفعله طبيعى. وما هو مهمّ فرح اللحظة.

تأوه وهي تعانقني كأمة عاشقة: لماذا لم أتق بك في صباي؟ آه. كم انا تيمسة. قدرتي هكذا!

- عدنا الى القدر!

- على ما يبدو.

بعد ان توقفت يدها عن الكي، عادت الى فرد الثياب ولمها. فجأة خطر لي ازعاجها باختيار سطحي: هل تدركين ان شفتيك شهيتان؟

- صحيح؟

- وان عينك تلمعان كميني قطعة برية؟

- في صغري كانوا يسموني القطعة.

- وان جسدي متناسق؟

- تمنيت يوما ان ادخل مسابقة للملكات الجمال.

- ولكنك معطوبة من الداخل!

فاجأتها الجملة كمن طُهر في غفلة، فاهتزت يدها القابضة على المكواة، ثم ضغطت بعنف على ياقة قبض مسرور، ولم تجب.

ويقول ايوب السرحان وهو يحكي خمرته: لم يبق لي صديق يا أخي. الأصدقاء الذين جثت بهم الى بيتي نهشوني بعد ان شربوا خمري وأكلوا طعامي. سألت امينة يوما: هل تحبيني؟ فقلتا أحب ابنتي وانا اريد مالي الذي هدرته على الخمر. عشرون سنة وانا اجهد من اجلها. بعثت رزقي وبيوتني وحفرت الأرض كفلح لكى تظل امرأة في مستوى لائق بنا. من وراني جنت آلاف الليرات وخيأتها عني. وذات مرة احتجت بعض المال فطلبت منها فتمتعه وهكذا وقعت في الديون والخمر. المرأة ابليس اياك ان تأمنها. في البدء تظهر لك، ولما تحصل عليها تصير افعى. تنحسك يوما ايوام يوم لم ترميك كالنفاية. هؤلاء نساء بلدنا.

وراح يكبح على نحو يوحى بالاحتضار، بينما آتية القهوة ترتعش تحت تأثير سماله المتواصل. واصل مواظله عن المرأة التي يدللها الرجل فتمتطيه. وقال بأن الرجل الحقيقي من يشعر بانه سيد والمرأة عبد. المرأة هنا لا تحب الا نفسها وثيابها واثاثها ومن خلال هذه الأشياء ترى الرجل: المرأة شر اقول لك الصدق. لئلا أن تصدق ان آدم خلقها من ضلعه. حاشا. لقد خرجت اليه من وكر في جذع شجرة بزّي ملاك ولما امتلكته عادت الى طبيعتها الأصلية.

وهجست النفس: لكنك تنسى ذلك وهي تمنحك اللذة وانت تتلوى فوق سفوح جسمها الأملس. بغتة تذكرت أي جسد آخر يتلوى فوقه أيوب البائس،

فقلت: المرأة مخلوق ناقص ومغيون تحتاج حنانا ورعاية. فقال ايوب: انت لم تجرب بعد. عندما تتزوج ستذكر كلامي.

بحققة يحكي ايوب السرحان. لقد هدمته امرأة. لكنه يحكي كذلك الذي هوى في قبره والذي كان يقول: واذا القلوب تافرت عن بعضها كالزجاج كسره لا يجبر. احفظ ذلك.

وأقول: لماذا تريد ان تورثني فلسفتك وخيبانك؟ الا يكفيك أنك مت؟ لماذا تأتيني ابدأ في هذه الكوابيس محمولا مضطداً وفي عينيك تهمة؟

دائماً كان يتحدث بالتتابع عن امي وعن الحروب القادمة. حروب العرب واليهود: منذ دخل الاسلام جزيرة العرب وهم يكيدون له. كان الرسول على حق يوم حاصر بني قريظة وذبحهم. كان علي سيف الاسلام في خيبر. وذات مساء في تلك الخيمة القائمة بين المروج قرب البحر قال: امك ملعونة لا تختلف عن هند التي لاكت كبد حمزة بن عبد المطلب.

- لكن محمداً تزوج من يهودية. كثير منهم دخل الاسلام وأعملوا السيف في اعدائه. لقد انتهت حروب الأديان وابتدأت حروب أخرى.

«أبي أيها الذي مت»، انت اعصى في القرن العشرين.

لا يريد ان يصمت ايوب المتهدم. كل الجدران سقطت من حوله وما هو يترنح في الريح، متكئا على غلاف خيل ينسجه من ماضيه. بقرة عجوز تجتر ما مضته في غروب شمس.

مضى يفهم ايوب السرحان ان هذا الزمن الذي ينطفئ يحنونه المبرق، قد اختلطت روحه وانه ليس بالحي؟

الموتوب. خائف من السكينة لأن السكينة تعني الموت. بعين ذئب ينام وبالأخرى
يرصد وحش الموت الكهين.
- انا مبتل بجسدي.
- يجسّدك أم بتاريخك ؟
- ماعلاقة التاريخ بالموضوع ؟
- اعني الارث الناقص.

تحت شجرة صنوبر في حديقة المزرعة، نرتمي. في السماء الربيعية قر دمشقي
مضي يشبه وجه منى. يتحرك مثاراً فيفرز: كنت جميلاً في صغري. قالت لي
امراً يوماً وعمري لا يتجاوز الرابعة عشرة: ابن الحرام ما أجملك. حتى أخذت
تتشبك. آه لو أنجبت منك ولداً. بعد عامين لقيتها في البادية وكنت أتلهي بمطاردة
الحشرات. آه. يا الهي اية افراح وحشية شعرت بها آنذاك. استمر ذلك طويلاً
داخل كهف عام. انني اذكر كيف كانت تمض لحمي وهي تتلوى كأفغوان بين
يدي. امرأة قاسية شهوانية لا تشبع. كان يدخن بجرارة تلك اللحظات. وهياً له
الصمت والهدوء الليلي الرطب حالة انسياب، فبدا وهو مبتل فوق العشب كأنما
يتمدد فوق كرسي التحليل. يتحدث عن طفولته وابيه القاسي: كان أميراً ذا
سطوة. لم يكن يجني. سباني الخارج وكنت اشبهه. كان يضرب امي لانها تخبي
وتحبي مني. مذ سمعت اول كلمة اعجاب اصابي زهو. يا أنهي كلمة اطراء
تسمعه من فم امرأة تضاهي لبتراً من الويسكي. كان عملاقاً بين الرجال، له
وجه مسكوب فيه ضوء القمر. لم يكن يملّ من النظر الى وجهه في المرأة. اغرب
حادثة عنه انه كان يعشق التحديق في يديه. يمررها امام عينيه وينفجر على اصابعه
لمدة طويلة. يا الهي اي معنى لهذا الحديث. لماذا أتحدث هكذا ؟ الانسان حالة
غريبة في هذا العالم. لغز. وغير صمت. لحظة من التوجس والطبيعة ساكنة.
لا ربح، لا حركة. ضوء القمر ناصع فوق الأغشاب، وفوق وجهه الأبيض،
والندى يتألق تحت الأشعة. ويستمر. آه. هو العمر يمضي. الزمن هذا الحيوان
الفرنس. انظر الى نفسي وانا على مشارف الأربعين فأكاد أصعق. تتناهي حالة
جنون داخلي. ماذا صنعت خلال تلك السنوات المديدة ؟ هل يمكن ان اكون انا
قبل عشرين عاماً ؟ لا بد أنّ الانسان حشرة لا قيمة لها.

ويصق بقهر.

صمت آخر او هو الصمت يتناسخ. منكى على جذع شجرة. عينا

كمنى ابحت عن حب. عن مغامرة لم تخطر ببال بشري. عن امرأة تحب
حتى الموت ونكره متى نشاء. تسمع صوت الزمن فتجيء. ونحس توقفه. فتدير. تسير
عارية القدمين، هاربة من مدائن المستنقعات والكذب والأثواب المزركشة. معا نحو
البراري. نائم على تخوم المدينة، في الخراب المهجورة، وتحت شمس الضحى.
نبني بيتاً من الحطب القاسي وننام عرايا فوق التراب الحار؛ نتعاقق للدرجة الحلول،
واذ تضجر مني تهجرني وبعد حين تعود. ثوي في دمي. نشد اشعاراً واغنيات مع
الفلاحين الفقراء والعمّال والصيادين. نبكي ونضحك. نفعل الجنس في الحدائق
وعلى شواطئ البحار. في كل مكان نرسو فيه نلد نسلًا قوياً كالصخور ساطعاً
كالشمس، يصلي للعمل والحركة والشعر، ولا ينسى. واذا نموت بعد ذلك؛ نموت
بلا ندم.

سامر البدوي الوحيد الذي عرف سر الزمن واكتشف الكذب والأخيلة.

قال للطيف المهمة في سماء العرب: الى اللحج!

ووحده أدرك سر المدينة المسحورة، المصابة، ففرق في ضلوعها وفي شرايينها
حتى وصل التسع. لقد اختار الوجد الحسي حتى التلف. عنه لو سألت أي
انسان: اين ألقاه ؟ لأجايبك: في الخارة او في بيت امرأة.

وفجأة تكتشف انه متزوج منذ اكثر من خمسة عشر عاماً. زوجته امرأة
ديمية من فرط حبها لها سهاها: الخفافش. غير أن ذلك لم يكن يبدل من المأساة
شيئاً. ففي اخريات الليل فقط، كان يعود لبتام في فندق زوجته بعد ان يعيا من
الدوار.

عالمه فلك يدور. يسلمه زمن الى زمن، ومكان الى مكان، بحثاً عن أصله
المفقود عبر سراديب التاريخ، وكل زمن، كل مكان يرتقي فيه يعتقد انه هو الزمان
والمكان المطلوب. انه يرتاح هنا، والولد الضال تائه داخل نفسه، داخل حسه

راسيتان فوق صفحة وجهه المغضن ، راثياً لجسده المكرم فوق عشب الحديقة .
الجسد الذي صمقه فأضاع صواب الثورة في نفسه .
- ضاعت فلسطين وما نحن نضيع . آه . العربي يسحقه القهر دون ان يستطيع
فعل شيء بالنفسه .

أي ذبول هذا الذي يتم تحت الشمس . نساء . خمر . كلمات فارغة ودوار
والعمر يتقوض . يهرم الجسد لكن الروح اقوى من الآلهة : عندما يضيق الجسد
بالروح الفتية !

ويقوم سامقاً عريضاً كشجرة سنديان ، ضجراً مني ومن نفسه ومن السكون
الذي خانه .

تنب عن الحاجز الحديدي : انظر لقد وثبنا بخفة الفهود .
في الشارع الخالي يدندن ترنيمة بدوية مفعمة بالحنين والكتابة .
نهضت وفي نفسي رغبة تقبيلها . امسكت زندها العاري وهمت أمرغ شفتي
عليه . رمقتني عيناها عتاباً مزوجاً بخوف ، ثم سحبت يدها : لا ينبغي ان يحدث
ذلك .

من باب الغرفة مرقت كسهم وفي في مرارة . أرتجت الباب ثم أسلمت سافي
للشوارع الممتعة .

مشيت . مشيت . دخنت وترنحت . ومن اقرب حانة تناولت خمرأ . ثم مضيت
فوق الخطوات القديمة .

- ١٤ -

جيل ملتهب . يشوق قبض العالم . يسأل محاله الذي لا يُطال : لماذا ولدت
هنا على هذه الأرض الناقصة في عصر يكبح رغائب الانسان الجامحة كالمهور في
فجر فتوتها ؟

وفي دمه يسري الزمن القديم جنباً الى جنب مع الزمن الذي يريد : زمن
المستقبل . وفي الأجيال التي اختلطت عليها الانقلابات والثورات ولدت محاولة
التوازن حالة انكسار تاريخي لا يُجبر . ومن الفرد الى الجماعة يمتد خط من
الاخلاص قرب خط من الكذب والخوف والمساومة والتنازلات المستمرة . بينها
سُحقت منى .

- لكن انسان هذه الأرض معرض للاندثار . اقول لرائي .

ويقول : أريد ان احيا . هذا عصر النودج .

- انت لا تؤمن بالفدية ؟

- أي سؤال غبي هذا . انك تفكر كقائد سياسي احياناً .

- لماذا لا تقول كجريح ومغتصب .

- هذه مرحلة تاريخية نحن مهزومون فيها لا محالة . كل ما فيها ينسئ بذلك .

- هل توقن فعلاً بالهزيمة ؟

- أيقنت ام لم توقن فالتاريخ يقول هذا .

- انك تتحدث عن الختمية وانت قلت انك ضد الختمية التاريخية .

- انتي اتحدث عن التكامل . عن الجيل الذي لم يبلغ بعد . الزمن الذي لم
نصل فيه الى حالة النمو الصحي . على نحو فاجعي ستندثر وحياتنا هذه تحمل جرثوم
الموت . ربما تكون تمهيداً للزمن الحقيقي ، فأنا أؤمن بصراع الأجيال كما قلت
لك ، اما الآن فنحن في التزع ، ولا يقصنا الا طلبة الرحمة .

- والحالة الثورية ؟

- هل الحالة الثورية أن نثب فوق الزمن ؟ هراء . هذه حقاكة . مكابرة سخيفة . نحن جبل يعيش بماضيه ولم يصل جبل الحاضر والمستقبل بعد .
- متى تعتقد انه يصل ؟
- بعد ان تكتمل عصور الانحطاط وتندثر . هذا النقص في فهم الحرية والانسان . هذه الحياة القبلية الدينية ماذا تعني ؟ الانسان هنا لما يتطهر بعد من موروثه الطوطمي .

- لكن الثورة حالة جديدة تغير العالم . رجّة تاريخية تزلزل سكونية الزمن .
- بالعنف . انظر ماذا يحدث . جبل اسلم التغيير يغازل رجال الدين والتجار والبورجوازية . غارق في الانتهازية والسلطة والامتيازات والتقسيمات القبلية . هؤلاء من اين خرجوا ؟ أليسوا منا ؟ انهم يتعثرون لانهم جاؤوا قبل الوقت . في دماهم قرون من النقص التاريخي والنفسي ولهذا فهم عاجزون عن تنفيذ مهام الثورة . انا وانت عاجزان ايضا . جيلنا جيل موسوم ومنحط . جبل خرج . هذا يقيني .

وهو يتحدث بألم أشعر بضغط . يكاد رأسي ينفجر . أحرك رأسي الموجوع وانمى ان يصمت راني أكاد أقول : لا تقل ذلك .
- هذا مفزع وموئس . انه يعني النهاية .

هيزأ من كلامي : هيا الى اميتك ياعزيزي . هيا . هناك تنام الثورة ! شعور قائم يغلف الدنيا . احساس من رُمي في بركة وحيداً وغُدِرَ . يسمق الحصار فأولشك على الصراخ في محاولة للخروج من هذا التيه . من هذا السجن : اصحيح ان كون الانسان هنا معطوب الى هذه الدرجة ؟

وكمن ينحط بأخافره صخراً من صوان ، احاول ان امد جسراً مع منى . هذه التي لَسَتْ في ماضي وحاضر الزمن . لكن محاولاتي كانت تبوء بفشل متواصل .

اقول لها : ليس جميع الناس سلسلة مكونة الحلقات بطريقة فيزيائية . تقول : كلكم بشئي ويقتل . يضاجع ويغتصب ويحقد . يطمع ويكذب ويريد نفسه .

اقول : حتى هذا يختلف من انسان لآخر .
تقول : جميعا . كلكم يشتهي ويرغب النوم معي . تأكلون لحوم بعضكم بعضا ثم تقتلون باسمي كذبا .

اقول : ولكن . متى انا اريد ان اغني لك في الغابات والأودية حيث لا حقد ولا كذب ولا تلوث وحيث للموت معنا . حيث الأشياء تولد مجدبة مبرأة .
تقول : سنحذر يوماً الى المدن ويعود الكذب والتلوث والقتال والخدائع :
أسير في الشوارع . ادندن اغنية . يتناهي غم وانا ألح كنّاس الشوارع والحارس الليلي وصبي المخبز : الناس البسطاء الذين يقومون بأعمالهم ، هم ينامون سعداء . ولا شيء آخر .

في العطفة الثالثة من الشارع تكون غرفتي . افتح الباب واعبر الصالون . تفتح رائحة الرطوبة والوحشة . في العثم أرتدي ثمائي وعلى السرير اسلتي كحيوان انهكه المسير . جميع ما مرّ ، حتى الماضي البعيد يعبر سريعاً ، مقتضباً ، مشوشاً .

[]

لم يحببه احد . حتى اخوته كرهوه ونهبا رزقه ، وحتى زوجته بغضته لصراخه . كان كريماً ، وفي الحق لا يخاف لومة لائم . من طلوع الفجر حتى مغيبه كان يضرب في الأرض . صار بينه وبينها حلول وعشق ، وقبل ان يموت أوصى الا بُع ذرة تراب منها .

كان يقول : الانسان من الأرض والأرض من الانسان . دمه وعظمه وعرقه تغلّ في اعاقها فكيف يبيع الانسان دمه . انظر يا بني الى لوننا الا يشبه لون دماء الانسان ؟

وكان يصلي لله وللمطر وللأماسم ، وفي أواخر الليل عندما يبدأ الكون وينتهي العمل في الأرض يستلقي في الخيمة ، ويروح ينشد أشعاراً لابن الفارض والمكزون ومتنجب الدين الغاني وأبي نواس ، ويمكّي قصصاً اسطورية غامضة عن الأولياء وأهل التقى والتصوفة . هؤلاء الذين كان يقول عنهم انهم يمتلكون إشارات خاصة ، ترى ما لا يراه البشر العاديون الغارقون في جشع الدنيا وسفالتها . قدراتهم تفوق قدرات البشر لكنها دون قدرة الله . يستشرفون المستقبل لأنهم الصفوة المختارة . لقد شَفَتْ نفوسهم يا بني وخلصت من كل دنس . تطهّروا بالتأمل العميق في الكون فانفصلوا عن نغاهات البشر ودنائهم ، فاقتربوا بذلك من الباري تعالى حتى صاروا أحياءه .

واذ يسأله : ألم يكونوا يعملون ؟ كان يجب بانهم انصرفوا الى المعرفة وطرق

الوصول. عافوا الدنيا بكل مغرباتها فانتصروا على رغباتهم وبذلك نجحوا في امتحان الباري لهم، ودخلوا المطلق. وبخشية كان يسأله ان كانوا يشربون الخمر فيرد بجديّة صلبة: الخمرة طريق من طرق الوصول الى المعرفة، عندما يشرب المؤمن الخمرة الله الباطنية، تصفو ذاته ويدخل عالماً آخر لا يعرفه الا الذين أوتوا نور الكشف في نفوسهم.

واذ يرد بخوف: لكن الخمرة محرمة في كتاب الله ؟

اذ ذلك كان ينهّد مستوياً داخل الخيمة السهلة المطلة على البحر، متأملاً النجوم التي تلمع في سماء صافية: الخمرة التي يتناولها المؤمنون يابني شيء آخر غير هذا المزيج الأبيض الذي تراه. هذه أمور خفية لن تعرفها الآن لأنك لم ترشد بعد. وفي غمرة حلولية متشعبة يدندن مطلع قصيدة: «لا تشرب الراح الا مع أخي ثقة موحد عارف بالعين والميم»، وعبر الفضاء العاري والسهول الخضراء يتأوج ذلك الصوت الصوفي الشجي.

□

من اين أتى هذا الماضي المفرق في القدم والسيان ؟ ولماذا أتى الآن ؟ هو كان صوفياً لانه متدين عاش الحياة من خلال ما اعتقد. عبد الله والأرض، وسكنته القوى الخفية. وانت تؤمن بشيء آخر اسمه الانسان. والانسان مذهب ما يخلق والله حكاية قديمة جسدها العجز القديم عن تفسير ما وراء الظواهر. وانت مسكون بمنى لانها التغيير ونقيض الثبات، ولكن منى لا تؤمن بك وتقول عنك: مسكون مثلهم بالارث والنقص تلا الزمن عليك حكم الاعداء.

صديق قديم قال لك: اذا جاءك الأرق فتخيل نفسك على شاطئ بحر والريح تهب ناعسة رخوة. تصور انك محمول على بساط تمحلي نحو جزر بعيدة واصوات نوارس البحار رخيمة حزينة تصوي في اذنيك. آنذاك ستنام حتماً. لكن سامر وواثل وهدي وأيوب ودبانو ومسروور وامينة وراني، كيف ينام من يتذكرهم في جميع الليالي ؟

- ١٥ -

الوظيفة. هذا المستنقع البيروقراطي، تنفطس فيه منذ الصباح فلا تستيقظ الا وانت على شاطئ التلف. يلوث نقي العظام فيك. ومع نسخ الأيام المتشابهة تتحول كتلة آلية بلهاء مشتقة من الكرسي او المكتب. للكرسي والمكتب رائحة زخعة فقدت انتشارها من كثرة ما عشت في الحياشيم، والداخلون الخارجون دمي تأتي وتنصرف بطقوس تشبه طقوس المصلين الوافدين الى الجوامع والكنائس في ايام الجمع والآحاد.

واحد. اثنان. ثلاثة. عدّ حتى تسقط اعياء فلن يتبدل شيء. تلف يومي. تفسخ زماني يسحق البشر ولا جدوى. استرقاق يشد آلاف المواطنين الاستهلاكيين. يرتفعهم الى الكراسي والمناضد، كأنما يحكمون يساقون منذ الصباح بألية الأيام نحو غرف الغاز ذات الروائح الفاذة، ورائعهم.

بمرارة أضحك وانا اذكرك ان ايوب السرحان وظيفة امينة وقد أحكم ذلك الشرع الشريف، في حين كانت زوجة سامر اليدوي وظيفته، لكن أحداً منها لم يكن يداوم في عمله.

سألت سامر اليدوي يوماً: لماذا تصدعت الحياة بينك وبين زوجتك ؟ سخر من سؤالي وقال: المرأة قطعة غيار تتلف من كثرة الاستعمال. - لكن الشرع يقول: المرأة رفيقة العمر !

وينخر: بالنسبة للذين صارت احاسيسهم مآخوراً.

- ولكن انت لم تتزوج بحب ؟

- بلى. ولكن هل الحب مستمر كالسهم باتجاه واحد ؟

- لماذا يحدث الانحراف فيما بعد ؟

يقول: الطبيعة البشرية كالبركان. بعض البراكين تنور مرة واحدة ثم تتمد. والبعض الآخر يظل في ثورة دائمة. الشعراء براكين متحركة عندما تحمد يكون الموت قد

أقبل. تزوج أبي ثلاث نساء جميلات والأخيرة كان عمرها لا يزيد عن سبعة عشر عاماً بينما ناهز هو حدود الستين.

— ألم تخنّه ؟

— كان رهيئاً قسباً يتمتع بطاقة جنسية لا تُحد. رغم كبره كان يتصرف كشاب فتى. كانت مدللة يمضي في فراشها جُلّ وقته وكان يرضيها.

ضحكت: الولد طالع لأبيه.

في خلاياه تمددت غبطة سرية، وفي عروق وجهه سرى الدم. دم ينسب عن فيض جنسي ووثوق ورائي أصيل.

□

ذلك الماضي السحيق وحده يلوح مطهراً من الرجز. يشبه اكليلا ابيض في ليلة عرس وفوقه تحفّق حاتم بيض. وهم يسرون فوق مروج خضر ومزهرة والسباه ناصعة كبحر رائق. بذلك الحلم الذي مضى ويعود الآن، وفي جميع الأيام السود، كانوا موثقين. أخذهم ماضي آياتهم وطفولتهم التي مضت، وعمل الدروب المسدودة والمفرقة والحرقرة. كانوا يتقدمون ببطء سلحفاة في العصر النووي المدهش.

وانا اغادر سامر البدوي بعد ان التفت حوله اناس لا طاقة لي بالبقاء معهم تساءلت: لماذا يكرر العربي مجده الغابر ؟

كنت أسير في نهار دمشق تحت سباه توجي بالمطر.

وكانوا قد بدأوا الحديث عن السفر والطعام والياب والسيارات والمنازل المؤنثة والنساء وأنواع الويسكي، ثم تشبّع الحديث عن الحيات الشخصية وما مرّ في حياتهم من نكات ومفارقات وبطولات طفلية، وكان سامر نجم الحضور. تألّق الجانب البيومي وتواترت حكاياه المختلفة. استطالت حتى غمرت الموجودين. فانسجبت حتى لا أكرهه.

كان الناس يعبرون الأرصفة بمجانبة نهر يجري، واختلطت ابواق السيارات بقطرات الزرد ورشف الشاي في المقاهي المنشورة على ضفاف الشوارع. كان الوقت عز الظهيرة.

سرت بين الناس. وحيدا حيناً ومع سامر البدوي حيناً آخر. كيف يكون متوافقا مع الناس ثم شارطا لقوانينهم في أن؟ كيف يخدع بعض من احبوه وما دروا انهم مرابا عاكسة. محطات راحة للذي يبوي ركوب القطارات فلا يمل من هجرته ؟ هل كان يبحث عن شيء مفقود ؟

لقد قال لي في ذلك اليوم: كان ابي يطيل النظر الى المرأة. يسافر في وجهه ثم يمسده بلبونة وشغف. احيانا كان يتعري تماما ويتفرج على ذاته لقد رأيت ذلك بنفسي. يومها كان في اقصى حالات الخلل. وما أحب أكثر من دمشق.

— دمشق مركز العالم. كان يكرها كآية محفوظة.

وفها كان يهاجر من جسد الى آخر. من امرأة الى أخرى. ولم يكن يبحث عن شيء. كان يفرغ رغبته فيها، رامياً خلفه كل اللوائح والشرائع التي استنت في غيابه. تملأ الى الأقصى داخل جسيمه الأنيقوري قبل ان يدمه الموت المفاجيء. وفي جميع الأيام كان يبدو تعباً، لكنه كان يولد من التعب طاقة جديدة للبدء بالسفر من نقطة المركز الى اية نقطة من محيط الدائرة.

واذ نبدأ اللقاء مع الحسوات الأولى للخمر، يهاجم الضعف الجسدي في الانسان. يرنو باحتقار الى جسدي التحيل ويقول هازئاً: انا اشك برجولتك الجنسية.

فأسفزه: التجربة تثبت.

يتفرز فيهاجم: منحن. منحرف. ديوث. ثم ينهد حاسباً كأسه: امتصتك امنية ولم تترك فيك غير العظام. انظر الى نفسك اهذا جسد ابن آدم ؟ — وهل جسدك جسد شاعر ؟ انت مخلوق لتكون مصارعاً.

ويصيح: وهل ينبغي ان يكون الشاعر هزلاً شاحباً كي يحتاج مواصفات شاعر ؟ المهم الحيوية النفسية.

— لا. سيدي. لا. للوق النفسية حدود. انا أرى ان الرومان من أعظم الشعوب. في هذه المرحلة على العرب ان يكونوا في قوة الرومان ليحروا وطنهم. — بأنني انت بليد ومغفل. هل الرومان اعظم من اليونانيين ؟

— هذا ليس عصر الفلسفة والأدب بالنسبة لنا. نحن أمة مستباحة ومهددة بالانقراض. لسنا بحاجة الى أرسطو وأفلاطون وكازنتراسكي. اسرائيل تكتة مدمجة بالسلاح تذكر بألمانيا هتلرية، ومن اصل اقل من مليوني نسمة هناك حوالي ثلاثمئة ألف مقاتل على استعداد للانقضاض علينا واجتياحنا. وانا أشك ان تستطيع الأمة العربية بتجمعة تجنيد مثل هذا العدد الآن.

— ياإلهي. نتحدث بطريقة لا مثيل لها في الغباء. ألمانيا كان لها فلاسفتها وأدباؤها. نيشة وفخنة وكانت وغوته. اسرائيل ايضا لها فلاسفتها وعلمائها. بهم تبرر وجودها وتقع العالم.

- هذا عصر القوة لا عصر الفلسفة والشعر. نحن ممزقون سياسياً ونفسياً،
ماززال نعيش على إجماد طارق والحجاج وعقبة بن نافع. هراء. منذ عصر الانحطاط
ونحن في حالة دفاع عن الذات. لم تُخلق بعد في نفوسنا حالة الهجوم. حالة
الهجوم فينا تفرغ عن طريق الكلمات. فتى تنتهي حالة الثرثرة اللاجمدية هذه ؟
- على أية حال المواطن هنا لم يتشكل بعد. غير ان هذه الأمة اقوى من
الموت والانقراض. قد تستمر اسرائيل ردياً من الزمن، لكن اي انسان يفهم روح
الشعب العربي وتاريخه ويحلل، يدرك ان اسرائيل بتكوينها العنصري الديني ستزول.
- هذه الأمنيات الدونكيشوتية لا تكفي، هذا العصر ينبغي ان يكون عصراً
اسبارطياً بالنسبة للعرب، وانا افهم ان الحزب الثوري هو المسؤول عن ذلك. هكذا
حدث في الصين وهذا ما يحدث الآن في الفيتنام.
من سبأ دمشق انقضت الغيوم وماهطل المطر. كنت قد شارفت بيت مسرور
الكائن في حي المزرعة. شردت احلامي نحو عالم منى: كيف استرد هذه التي
استلّت مني دونما ذنب، أنا المعطوب ام البشر الذين يحيطون بنا ؟ أم هذه
الدمشق المزلقة كسمكة من أيدي جميع الصيادين ؟

- ١٦ -

- «الى اين يمضي بك اللاشعور ايها العائق الفاسق؟»
الخطوات تضرب جلد الأرض ولا تتوقف. تسير وتسير وتنفوس ثم ترغمني
وتقوم. متعباً فارغ الفترات وتتابع الجري على الطرقات ذاتها. الايقاع نفسه للأرجل
والتصورات الداخلية المشتبكة في الدهن المريض حيناً والصاحي أحياناً. مع الناس
ثم وحدهم تحاول معرفة وحدة الانسان متملساً بقوة البصرة العجز والقصور، يسبح
في بحرهما طفل تائه رمي على حوافي التاريخ بعد ان انسل من نور الماضي وسقط
في ظلام الحاضر. لقد ارتبكت وانت تسير فتفوّست العظام من جراء المشي الميكرو.
وفي زحمة هذا التفجر الميكانيكي والمقلّ ضيعت أباك. تصبح بلوعة من ضلّ
طريقه في سرداب ملوّ حالك: أين انت ايها الأب القديم ؟ اعطني بصيصاً. ولا
يأتي البصيص وترفض قطع جبل السرة رغم انك لا تسمع الا صدى صوتك
الجريح.

وتبدو منى وحدها الضحية في هذا العالم المشحون بالعواطف الكاذبة. وبقينا
كنت شبه عاجز من استرداد ثقتي بي وبالبشر المحيطين بها، لكنني لم أكن يالسا
بشكل مطلق. كنا مازال نلتقي في بيتي وبيوت الأصدقاء خلال فترات متباعدة قبل
ان نرحل. نثرثر عن الأحداث اليومية النافهة وكان هذا معذباً. فأمامها أبدو ممثلاً
بشير السخرية، وانا أرمي كلثاني وهي تدخن مبهتمة، لأقّة ساقا فوق أخرى بينا
لحمها المحرم يتنصّب تحت بصري. احاول إثراءها عن الرحيل لأن ذلك سيسبب حزناً
وكآبة. بلا مبالاة وسخرية تنبضان من ذرات شفثيا وبريق عينيها، كانت تجيب على
شفاعاتي بهزات من رأسها الصغير، ثم تتمدد على السرير راسمة بلفافتها دوائر،
تنأملها وهي تتصاعد نحو سقف الغرفة ثم تتبدد.

وأنأملها وهي ترفع قدمها اليمنى على الجدار. تحركها ارتفاعاً وانخفاضاً كأنما
تكتب برؤوس اصابعها. واذا ترفع ساقها أكثر، ينحسر ثوبها وتحت الضوء ينساب

فخذها الوردى.

- بماذا تريدان أن أشفع اليك كي تبقى ؟

تبسم : بك .

- بي أنا ؟

وتومئ : وهي تحس لفاتها ثم تنفثها .

أفهمه : لماذا تبهزين منا جميعا ، منى ؟

- أنا لا أهرأ من احد .

- لكنك تسخرين مني الآن !

- أبدا يا عزيزي . انتم الذين تفعلون ذلك بي وبأنفسكم .

- منى . انت لم تحسني الاختيار . ألا تعتقدين انك فقدت القدرة على ذلك ؟

- أنا لم اختر يوما الا مرة واحدة وقد فشلت . انتم اخترتوني فيها بعد .

- خسرت مرة فقط .

- هذا يكفي .

- لكن الرجال ليسوا نسخة واحدة .

- تزيد ان تقول انك تختلف عنهم ؟

- المسألة ليست على هذا النحو الفردي تماما .

- ولماذا حدثت شيق رجل نهم الى ساقى ؟

- لأنني رجل محروم ونافس !

- انت كالأخرين تبغي أكل . كلكم ينشد صيده ثم يمضي .

- منى اسمحي لي ان اقول لك انك مؤادة . ربما كنت ابغي جسدك . لكنني

اريد ان تمكثي بقربي وفي داخلي الى الأبد . نحن مرتبطان بأقوى من الجسد وانت

لا تريدان ان تدركي ذلك . عندما اقول لك انت شيء خاص موثق بتاريخي في

الحاضر والمستقبل فأنا اعني ذلك فعلا . انا بدونك لاشيء . نحن بدونك ضباب .

ينبغي ان نغرق ماضينا ونقدم في التجربة حتى الأقصى . بدون أب بدون أم بدون

أخوة حتى ولا أصدقاء الآن . نحن بداية هذا العالم هذا ما أحسّه ملك أبدا .

برية وحذر تملاني ، وفي وجهها الماضي والجرح يتصاليان مع الخوف . كان

رجلها يفرغني . في هذه المرة سأفقدوها ربما الى الأبد وهذا يعني استحالة بناء صلة

جديدة من هذا النوع .

في دمشق تعلمت كيف تفكر المرأة وكيف تعيش . البيع والشراء وتبديل الرجال كما تبدل الأحذية وحقائب اليد . وما كان باستطاعة امرأة ان تفرس في نفسي كما غرست هذه الطفلة التي نمت خارج المستنقع . كنت أقول لنفسي علي أن أوطئها على الاقتناع عموماً بكل ما تبقى في داخلي من صفاء ان اشفيها من حالتها ، بعد ان وطلت نفسها على العزوف عن الالتصاق بالمغامرين والانتهازيين .

□

بافتراة عادية استقبلتني ديانا ، مفسحة المجال لدخولي وكأنني زوجها أو أخوها . سألتها عن مسرور فقالت انه خرج منذ دقائق .

كانت ترتدي تنورة ضيقة تظهر تقاطيع جسدنا الموحى باللائحة ، وقد اكتحلته ، وفي شعرها المشرج المثنى حول عنقها غرست بزينة بيضاء .

- أكنت تتأهبين للخروج ؟

وقالت بأكذوبة بيئة : لا . ثم استطردت : كنا سنذهب الى السينما وفجأة طلب مسرور الى العمل .

هبطت على الديوان ، وجلست هي بقربي .

اشعلت لي سيكارة وكان وجهها قريبا . وجه قحي ناعم وشفتان تلمعان بربض شهري . خامري احساس مفاجيء بضم وجهها بين راحتي كفي ، وان اغلها علي اكتشف ما وراء هذا البوت الرائد في عينها ، واذا تحركت ذراعي بتلصص نحو الأعلى ، اصطدم بصرانا . بغتة رفعت رأسها ونهاوت على الكبة المجاورة .

وسألتها : لماذا غادرت الديوان ؟

فاثبتت ببرود : عيناك هائلتان .

كذبت : أنا معجب بزينة شعرك .

- وأردت أن تلمسها . ماه ؟ ضحكت .

نظرت اليها : كان عطرک مثيراً .

غنجت : عطري فقط ؟

ولم أنبس .

ورمت رأسها بحركة مزهوة الى الوراء ثم نفخت دخان لفاتها في الفراغ .

كانت تنورتها منحسرة الان وفخذها سائين ، ولم تحاول سحب الثوب

ولا ضم ركبتيها ، وبدا ذلك عفويًا ، وكان ثوبها الداخلي المخرم يبرز قليلاً . في

الكنبة كانت غارقة والكنبة تضمها، تستوعبها تماماً، والمسافة بيننا قريبة بحيث لوخطوت خطوة واحدة لصرت في حضنها. وكانت تنفّس بسهولة، وبدأ ثدياها ناهضين يخفقان على مهل وعنقها مُتلأماً. كالتئال بدت امرأة حقيقية، كاملة، مثيرة، عابقة، متوحدة، لكنها كالحجر هناك.

وحدث شيء آخر. تحول لأمري بدل مشاعري. حدث ذلك آنياً كما تنفجر شرارة دوغما ضجة.

ولم أستطع رصده تماماً رغم انهاري به. أذكر انني بُهتَ وأنا أتصور الحالة وهي ترق في ذهني.

وكنا في غرفة النوم وهناك جثم سريران أبيضان وخزانة رمادية، وجلس على أحد السريرين واعتقد اننا كنا عائدتين وكان الغروب باهتاً وموسياً في ذلك الصيف الخزين، وفي رأسي كان المثلث عن امرأة رائعة ذكية وجذيلة، تحب الوحدة والشعر والجنس والبراري. وكانت هناك اسطوانة تدور بموسيقى حزينة مقعمة بالروائح والتذكريات، وكانت السائتر زهرية ومسدة فوق التوافذ، واحسست طراوة السرير فتمددت فوق الغطاء الابيض المصنوع لعريسين ربما. وافعمتني رائحة جنسية لذيدة فاحت. من المخذة. كنت أضع رأسي فوق رأسها، واذا انتشرت الروائح داخل نفسي وجلدتي رغبت احتواها. وسألتها آنذاك: أنتامان منفصلين؟ فأجابت: أكثر الليالي. وقلت: كم مرة نمت عارية معه؟ فقالت: مرة واحدة. واذكر انها كانا متزوجين منذ عام ونيف. ثم سألتها: هل تجردت من ثيابك تماماً؟ فأجابت: كما ولدتي امي. واهتجت مثلذذاً بالأسئلة: وكان عارياً هو آخر؟.

فقالت: أجل.

- ومارسنا الجنس؟ فأومأت. وبدا في وجهها امتعاض. وقلت: كنت حارة ثم ابردت بعد ذلك؟ ونفت استنتاجي. فسألها: لماذا؟ واذا قطبت حاجبها ظهرت تقاطيع صدغها: كان جسده خفيفاً. وسألها عما أخافها في جسده فترفت: لا أدري.

والحجت: بل تدرين. هيا قولي. فصرخت محاصرة: كان جسده مغطى بالشعر. لقد بدا كقرد. وقلت: وكان معمولاً متوثباً.

- أجل كان ذلك خفيفاً.

ونشوة خاصة سألتها: وأنت ماذا تذكرت؟.

وقالت: لم أتذكر شيئاً. كنت كالحجر ولم أشعر بشيء. لقد مارس هو الفعل.

- وبم أحسست؟.

وقالت بصيقل: بسكين تحترني.

وارتفع صوتي: كان يخنسك اذن. ووثبت ممسكاً زندها العاري فترت ذراعها وابتعدت: دعني. وصفتها: أنت مريضة. وصاحت: انتم مختصون لا تختلفون عن الوحوش في شيء. وانفلتت هاربة في الممر الضيق. وتوقفت الاسطوانة. ثم سمعت نجحياً هناك.

□

هاأنذا تعود ثانية. تراوغ نفسك وهذه المرأة التائبية. رافضاً ما حدث في الماضي البعيد. نحاول اللوثب فوق الوقائع المرضية التي اعتقدت انها أحابيل لتغطية مراسيم الخيانة. لقد حدثت الخيانة في الذهن وانتهى الأمر. وذلك الرجل الذي ادرك بالخدس بعض قوانين الانسان يقول: النية تسبق العمل. هو الذي فسر الخير والشر والحلال والحرام بالشرع الشريف وما فهم قوانين الرغبة، والتزف الداخلي للطبيعة البشرية هذا الذي يقصف الاعار في متصفها ان لم يجد مسرباً حرراً.

وفي مساء ما غالى رائني برد الفعل فقال: قتل طفل ولا قتل رغبة.

قرع الجرس، فنهضت ديانا فتفتح الباب. وولج البيت رجل جهم طويل يشبه رجال الاساطير القديمة. في وجهه جهامة وهيبة ويرتدي عباءة.

سلم مصافحاً اذ وقفت لاستقباله، فشعرت بكفه العريضة تسحق أصابعي. خرجت ديانا من الغرفة لتدخل ما حمل الرجل معه من حاجيات، وبقينا وحيدين.

سألني عن مسرور فقلت بأنه في العمل ونغن بانتظاره. بين حين وآخر كنت أعلو وجهه الغضب المخدد، للمجون بقسوة قديمة.

لم يلزمنا وقت طويل للتعارف، وانصبت اسئلتي عليه. اسئلة عادية بدا

خلاله مزوجاً على غير هيئته، وبدوت وأنا اثرثر معه انساناً في منتهى اللطف والاستماع. عندما خرج ليقبض على عشاء السفر، أعربت لديانا عن دهشتي به. فقالت بأنه قامسى كثيراً قبل خروجه مع أسرته من فلسطين وغمرتني أن أكون حذراً أمامه لانه زيمت لا يفوت صلاة.

وقلت: أعرف ذلك. لكن لابد أنه يعرف أشياء كثيرة عما حدث في الماضي. فقالت: أرشيف. قاتل في الجبال في عام ١٩٣٦ وفي الـ ٤٨. وقد قُتل كثيراً من اليهود والانكليز.

واذ عاد استأذنت منه. ودعته فلم يعترض لخروجي بهذه السرعة.

□

في اعتقادي انني لم أكن مريضاً. ربما كنت مخطئاً في هذا الظن. لكنني كنت واعياً نسبة عالية من حالتي. وما تبقى كان مشوشاً، وبين حين وآخر كان يعاودني وسواس المرض. يصل لي درجة ان أعرض حالتي على طبيب. ومن أطرف الامور انني كنت احضره في عيالتي ثم أبدا حواراي معه، وخلال الحوار كان يسألني عن طفولتي فأسرد له حوادث عادية مرت. لكنه كان يلح علي أن اتغفل أكثر واذكر الحوادث الاستثنائية. اقول له لا اذكر إلا هذه. لكنه كان يلح، وعبثاً احاول البعبار. يسألني ثم تشكرو فأقول: فقدان الرضى في النفس والجسد. واذ ينسم بعذوبة من يدرك ذلك يسألني: ومن هو الراضي في تفكر؟ فاشير نحو البشر السارحين تحت الشمس، لكن الانتماسة تعود اليه ويقول: هل تعتقد انهم راضون عن حياتهم؟ لكل حالته المرضية الخاصة به. فأسأل: حتى الاطباء يا ترى؟

فريد بهدوء واثق: حتى الاطباء ليسوا بناجين. وبارتكاس ذاتي أعترف له بالجويع والملل والقبول والرفض وحس التميز والعادية، ثم هذا النوسان بين الأحاسيس النفسية والتوضع المادي للأشياء ثم أقول: أليس هناك تعارض بين هذه الامور؟ فيقول ان الانسان بطبيعته ملوك والنفس الانسانية مزيج من التناقضات وهذا يعود الى الطفولة والتربية والوراثة والثقافة.

وافصح له قليلاً علي اثره: ترى لماذا أرغب قضم لحم الجسد الانثوي عندما اعجز عن الارتواء منه. يفكر قليلاً ثم يقول: هذه عودة داروينية تثبت صلة الانسان باجداده أكلة اللحوم.

اقول: لكن أنا من سلالة امضت جل تاريخها في الصلوات والتحريمات وممارسة الحب في العتم بعد منتصف الليل. سلالة معطلة. شفاها بدل القبل. تحسني الخمر والشاي، وايدبها بدل العناق والعمل اغرقت نحو العادة السرية، وركبها امحت من كثرة السجود. عيونها ترأقب النجوم والسماء والمطر تنتظر هبوط مطلقها منها. يا عزيزي الطبيب هذه السلالة اعاقها ساحة حرب بلا هدنة منذ العصر الذي قتل فيه طرفة بن العبد لانه هجا عمرو بن هند الملك حتى عصر الثورات المجيد هذا.

وينسم قائلاً: علم الوراثة احتمالي. هناك بين الشعوب المتحررة والتي قطعت أشواطاً في الحضارة حالات مرضية مشابهة وأكثر حدة في الاستثناء. ثم حالات مشتركة بين الانسان لا صلة لها بالتاريخ الخاص.

واذ لا اقتنع كثيراً بما يقول، أسرعه. أمضي في الطرقات مهلوساً بوطن حر، بانسان يحيا بعيداً عن العقد والتشويه والمخاوف. وطن بلا خيانة. وطن حر وغير جائع، وطن لا وجود له إلا في عيالتي المهترئة.

وأنا امضي احاول التغلغل نحو احلامي الآتمة والاضطهادية. مشاعري اللاشعورية نحو ديانا وسمية وكل النساء الشهيات اللواتي يعبرن شوارع دمشق، اعربين في ذهني دونما خوف من الشرطة الاخلاقية وآيات الله البيئات. واذ تشرق منى داخل هذا العالم المائل، اشعر بالشفاء والهدوء.

- وهل تعتقد ان هذا كل الازمة؟.
- أزمة من؟.
- ازمك.
- ماذا تعني؟.
- قد يكون ابوك برجاً هوى ولا خير منه لكن...
- ماذا تود أن تقول؟.

كان يحدق الآن في وجهي بكل ما في عينيه من شراسة وانتهاك.

وسأله: لماذا تصرين قبل العملية؟.

يفغل الغياب. يضع يده على صدغه: لا ادري. أشعر بحاجة ماسة لان أضرب. عندما تقوم بذلك تحس بانك افرغت شيئاً من قواك ولا تلبث هي أن تنعم. أحب المرأة هادئة مستسلمة في الفراش.

وكحيوان عطش دلق الويسكي في جوفه . وكانت هناك موسيقى صاحبة .
وراح هياجه يرتفع . وسألته : هل تحب الموسيقى؟

فابتسم باحتقار ولم يجب .

وقلت مازحاً : هل تسمع موسيقى خلال عمليات التعذيب في القبو؟
كأنما صمت : لماذا تسأل ذلك؟

وقلت : مجرد سؤال خطر لي .

كل جسدي راح يطعنه بنظرات ذئبية وقال : هل قال لك أحد بانك انسان
قدر وابن عاهرة؟

وضحكت : لا اعتقد . ربما سامر يستعمل شيئاً من قاموسك الجبان هذا .
على أية حال ربما اكون قدراً بحكم التصافي بك هذه بدهية . لكن امي مع
الاسف لم تعرف غير ابي فلم تكن لها اية أحلام وكان أبي حنبلياً في قضايا
العرض . انتهى تقريرى . هل لديك اضافات أخرى؟
- أنا اشك انك ابن شرعي .

ولم يكن قد تمل بعد . وارتفع حَسَّ الاهانة : أنا لست ابناً شرعياً أما أنت
فابن شرعي لهذا العصر . رجل قوي يتسلط على النساء والرجال . يملك سيارة
ومركباً حساسا . تنظر الى شارانك في المرأة فتزهو وتحس بان العالم تحت قدميك .
لكن هل نظرت يوماً في مرآتك الداخلية لترى ماذا أنت؟
- ماذا تريد أن تقول؟

هزه : لا شيء . محض دردشة عن الاولاد الذين جاؤوا سفاحا والذين هبطوا
خطأ من صلب آبائهم . هذا كل ما في الأمر .
وفهقه مزديراً : تبدو عالم نفس يا عزيزي الصرصور .

- هاه . انك ترى جيداً كيف تنظر الى الناس . هم في مراياك ليسوا اكثر
من صراصير . تعتقد جاداً انك تحكم العالم أليس كذلك؟
وبفوقية قال : انني احكك شئت أم أبيت .

وضحكت مشفقاً : بل ربما كنت المحكوم ولا تدري . تحكم نفسك داخل
غرفة مقفلة يفوح منها الرعب والجبن . فيها تمارس العابك . صدقتي أن أحداً

لا يخافك خارج القبو ، ويؤسفني أن أقول لك انك مهشم وأجوف وشمسك مشرفة
على الغياب .

ودخلنا في حوار جاد . أنا على الأقل لم أكن أمزح . خيل إلي انني قد أمضي في
التعربة حتى النهاية . وإذا رأيت عينيه ارتغتنا ، حضرتني شفقة واعية . كنت حَقِيقاً من
هذا البنيان الكاذب الموشك على الانهيار . وددت القول : أن هذا خطير وقاتل !
فأدركت ان هذا لا معنى له .

استقبلت وجه منى بيشاشة. دهنتي غمة مفاجئة وهي تقول: هؤلاء هم أصدقاؤك. شعرت انها كتمت صفة: النهنون.
صححت لها: هذا تعميم خاطئ. ينبغي أن تميز بين الظل والحقيقة. بين المبدئي والمرحلي. احكامك قاسية منى.

وفي ذلك الزمن العصيب كنا نتأرجح أنا وهي عبر تيارات جارية، شديدة الانحدار. وما كان بالامكان أن نتناكس لينفذ أحدنا الآخر. وكان النهر عكراً. تسبح فيه هوام غريبة بعضها جائع والبعض مهووس، والقسم الاكبر كان محمولاً فوق حطب طاف يتشمس وينام على الاطراف وفي الفجوات البعيدة عن الاصطخاب. وروت لي كيف عرفتهم جميعاً، وكيف اعتنقوها زمناً. حوْماً حوطاً وهاموا بجسدها لكنها قدمت لهم الازدراء واللامبالاة وختمت حديثها قائلة: كانوا في النهاية مثلين هزليين يشيرون منتهى السخرية والمرارة.

ولما قلت: ولكنك اصبتني برذاذ احتقارهم دونما ذنب. انعطفت نحو ميسالينا فحككت عنها بأسي عميق. ولأول مرة سألتني عن ابني القادم من امرأة أخرى ماذا سأسميه؟ فقلت بانني لست راغباً في الزواج. والحتّ بمزاج جدي: لتفترض انك تزوجت واعطتكَ زوجتك غلاماً؟.

فقلت: لا ادري. سمّوْ معي.

وضعت اصبعها في فمها ثم نظرت نحو سقف الغرفة: آدم!.

سخطت: أنا معقد من الأنبياء.

ردت بعذوبة: آدم كان انساناً مثلاً. وعمرت بعينها اليسرى: اعني مثلك. انفصل عن والده وجتته وماضيه من أجل امرأة. واردفت: يتزوج آدم ميسالينا ويدان من جديد كما تحب أن تعبر. ما رأيك؟.

وقلت: ولكن كيف يلتقيان؟ هي في القاهرة وهو في دمشق وبين القاهرة ودمشق مسافات شاسعة صعبة العبور؟.

واستطردت: أنت فعلاً شاعرة ذات خيال ولا أخصب منه.

وقالت بعفوية: كما التقينا. أتذكر؟.

(حدث ذلك في غروب خريفي في بستان مشجر معشب، المكان كأنه ضاحية من ضواحي المدينة. كان هناك سواقي يجري فيها ماء صاف وتحت المياه حصى ابيض ورمادي وطحالب خضراء. وبدت كأنها قد شردت عن أهلها. وراحت تثب فوق العشب كظني آمن. واذكر انه كان معي بندقية صيد. وفجأة كأننا انبثقنا من جلد الأرض وجهاً لوجه. ودهشت. سألتها عن اسم المدينة فسّتها. وقلت: هل انت منها؟ وماذا تفعلين هنا؟ وأين أهلك؟ ونظرت نحو عجة من اسفلتي ثم ابسمت. وجئنا على ضفة ساقية، واذكر انني كنت فرحاً بوجودها وتأملتها. لم الملح خبث المدن في وجهها وراحت تداعب مياه الساقية برووس أصابعها. كان لحمها نقياً لا غش فيه، وصلباً. وابتدأت تتحدث دونما خوف. وقلت في سري: ربما كانت هذه هي التي تبحث عنها. وقلت: لورآنا أهلك معاً؟ امسكت عوداً بأيساً وكسرتة وقالت: ما علاقة أهلي بذلك؟ وقلت: نحن شريقون. وضحكت حتى كادت تقع على ظهرها. انحسر لونها، وراح نهذاها الصغيران يرتجان بجوية تحت بلوزتها الخضراء، وخصلات من شعرها الاصلي تنسكب فوق وجهها حاجبة قسماً من عينيها المشتمين بومض غريب. وسألتها لماذا نضحك فنهت: قل لي. هذه ضحكة غريبة أم شرقية؟ مرت لحظة صمت. كان الماء الصافي يغمر بعض ساقها. وسألتني من أين أنت؟ ولماذا تحمل بندقية؟ وهل أنت صياد حقيقي أم تمثّل دور الصياد؟ فأجبت بانني لم أتوغل في الصيد بعد. واذكر انها تحفّظني ان كنت صياداً فعلي الباثبات ذلك. وقلت: ما جازتي؟ على شفتينا وضعت سبابتها. هذلت السفلى ثم مدت عنقها نحو. فرح طلاع اجتاحتني وخفت السقوط في التجربة. كانت البندقية في حضني وأنا افكر بكيفية التجربة وهي تنظر نحو متحدية. وفجأة خفق فوقنا طيرا يمام كانا يطيران بسرعة عادية. لست اذكر الآن كيف حدث ذلك وبمثل تلك السرعة الخاطفة. لقد هوى أحدهما كما بهوي حجر فوق العشب. وكنت أنزع الطلقة الفارغة بينالطائر يمزقه الألم هناك نائراً دمه على الأعشاب. واستطال زهوي اثر ذلك حتى بلغ شفتينا. حدث ذلك كله كالبرق، كانت واقفة اذ ذاك على ضفة الساقية وفي عينيها سكون

ودهشة. وتحركت قليلاً نحو الطائر حملته وهو في زعره الأخير ثم رمته الى.
ولم تنبس. سرنا معاً فوق الاعشاب وتغلغلنا بين الأشجار ثم -رجنا من البستان وثبنا
في برار فسيحة. ولم أعد اذكر شيئاً).

[]

فما بعد خمد الذهول، اختلط الشهود بالمثلين، والصيادون بالقتلة، وعادت
دمشق إلى سكوتها القديم، تتابع سيرتها في البيع والشراء، في الضحك والصلاة. كما
عادت منى غربية في هذا العالم.

شيء خاص حدث خلال سني التحول والارتكاس. لقد سكنتني تلك المرأة
على نحو يقرب من العصاب، في الوقت الذي بدأت فيه انهياراتي النفسية تشارف
حدود الرفض لجميع الآخرين.

ها أنذا أحس بهم في لحظات الصحو النفسي وهم يمشون. وأحس بها وهي
تقبل (أبكون هذا تعويضاً شخصياً مختلفاً ضد الوحدة والخوف من الانقراض
المفروض). أحسهم تاريخاً عابراً، حُير على جدران ذاكرتي لكنه عصي على
اللمس. متعرد على التكوين السوي. بينما تقدم منى بية مودة كالشفق،
وهم يمشون بأعازهم وتواريخهم الملوثة بالوحل كأنما اخذتهم غيبوبة.

(ها هم هناك مُقلتون بلا ذاكرة. غارقون في مستنقع التاريخ. لقد ولّدوا في
عالم مختلفة متناقضة. عوالم فردية. جاؤوا من بلاد قصبة مطرودين، ملهوفين،
مسكونين بالاحلام والمجد والظلمة. وهنا عاشوا بنجني لا حدود له لماضيهم وللرحم
الذي أنسلوا منه يوماً، بعد أن نسوا أن يبنوا مدن نفوسهم في صحارى مقفرة
يحدّها الانقراض من الجنوب والاعتصاب من الشمال ومن الغرب البحر ومن الشرق
الرمل. ونحت جلودهم كل وشل التاريخ).

من ثارات الجاهليين وغاراتهم في الليالي الدامسة، وصرخات الثقيفي اني لأرى
رؤوساً قد أيعت، حتى الانقلابات الاقليمية التي تعيد بها أرض العرب،
ولّد جيل الثارات المعاصر. جنس يمارس كالتقتل. انقلابات. واتهامات تطفن
كتصل خائن في الظهر، بينما فلسطين موطوءة ما تزال ترفرف في سماءها نجمة داود.
ثم نقول لنفسك: الرجل الجاني خلف مكتبه سيد قومه، والسيدان العابران فوق
الارصفة أحدهما أرسطو والآخر لقمان الحكيم، والذي يخترق الشارع بسيارته الفارعة
موسى بن عمران. والفراغنة يتجددون في العصر الحديث، بينما السائمة تعبر مغلوطة

محكومة بالنفي والخروج بعيداً عن حركة التاريخ. ولكن من أين جاءت هذه الآهة
المزورة؟.

- منى أنا لست سيداً ولا بطلاً ولا نبياً ولا فيلسوفاً. لست أكثر من مارق فقير
بلا لب وبلا أم، سقطت خطأ هنا. أعبر وحيداً قلب هذه الصحراء الملتهبة المحونة
نحاً عن قطرة ماء.

- ألم تلتق بنبعك في الخارات وفي جسد أمينة وناديا وتصوراتك المحرمة؟.

- أبحث فبين عنك.

تنهقه: أي تعويض خسيس!!

وتبدأ تخدعني عن هجرات نائية وعن أوطان لا كذب فيها ولا خيانات. مدن
مغلقة بالشعر والعمل يسكنها اناس بسطاء يتشبهون بالأطفال. يأكلون الخبز الناصع
من عرقهم بدل لحم اخوتهم. يشربون النبيذ المصنوع من كرومهم التي زرعوها بدل
دماء الورد. في تلك الأوطان يقطن الحب المقدس والعمل المقدس.

كانت تدبنتا جميعاً نحن نسل النقص والحاجات العضوية. بعد أن خبرتنا
شهوراً وسنوات ولم تتغير. ويوم ارتقت دخول غرفتي بمجانبة لم أتصورها تحدث في
بلاد الجموع والطوائف، صحت من فرحي: منى أود أن أقذف بك نحو النجوم
ثم اتفأك عارية. أوسدك اضلاعي وبعدها أموت بلا أسف. ويومها تعانقتا بخبرة
ما يزال طعمها في جسدي. فبا بعد أغلقت أبواب منى واستصمى علي الولوج. وفي
لحظات انتهازية، وهي تقدم جسدها كحجر، كان الاحتقار يغمرني فأشعر
بالتساوي مع سائر الذين عبروا هذا الجسد العظيم.

يقول راني الحزين: أيام عصبية ستمر. أيام أشد حلقة من عصر هولاء
وتيمورلنك. السبي العربي هذه المرة. شيل الغضب في أعماقي: نبوءة تك تبط
العرائس. من أين تأتي بهذه اللوائح السود وهذه الأكفان؟ يتحدث عن العلاقات
اليومية للناس. عن الكذب والصلاة والغش والأرصدة والنيمة والتبطل الذي طغى: أحدهم
بخفي سهرة لمدة ثلاث أو أربع ساعات وهو يثرثر عن الخضار وأسعار اللحوم وآخر
أنواع الطبخ. ثم ينتقل نحو الالبسة والازياء والاندما الشرف العربي، ثم ينحني عن
أسعار السيارات وغلاتها بعد منع استيرادها. ينتقل بعد ذلك ليعتد مناقب زوجته
وقدرتها على ضبط مصروف البيت وجودة ترتيبها للمنزل ونظافتها. تصور هذا النوع
من العلاقات يتم في زمن يهدد فيه إسرائيل بسحق العرب واعادتهم بدأوا إلى

الصحارى. هذا مثال من ملايين الأمثلة الأخرى. وبعد ذلك تقول لي من أين لك هذه الأكفان السود؟؟.

وأقول: المواطن ما ذنبه. لماذا لا نعيء الدولة شعبياً؟ المواطن معزول! - قد تكون القيادة مسؤولة. والقيادة كما قلت من هذه الامة. لكن المواطن هنا لا يهتم بغير نفاهاته الشخصية: وظيفة. أكل. سكر. رشوة. وساطة. مضاجعة. جمع الاموال بالطرق اللاشريعية. ثم شتيمة الدولة في الاماكن الخاصة. هل تضع لكل مواطن شرطياً أو موجهاً سياسياً؟؟.

- أنا أرى أن مرحلة التحول الأولى للمجتمع، خاصة المجتمعات المتخلفة تحتاج نوعاً من الضبط القاسي الموجه. تغيير المجتمع لا يتم بمثل هذا السبب. نحن نعيش في مجتمع متسبب. مجتمع ما يزال محكوماً بقوانين بورجوازية من الاسفل الى الأعلى. ينبغي تغيير القوانين والتشريعات البورجوازية الدينية قبل أي شيء.

- على أية حال. تغيير التاريخ والانسان لا يتم قبل مرحلة زمنية تستهلك جيلاً أو جيلين هذا ما أفهمه عن صراع الاجيال والتصاعد نحو الافضل، وخلال ذلك لن تنتظر اسرائيل. انها متقدمة علينا مئات السنين العقلية. وهذا الزمن زمنها. - اسمع أنا أقول ملك بفكرة الأجيال، لكن الثورة يمكنها أن تختصر الزمن. عندما تكون هناك ثورة حقيقية يولد شعب حقيقي. ويكون الزمن لها لا لاسرائيل. هذا هو قانون الارادة والشعوب.

نحو مجار أخرى ينعلف الحديث. يبدو رائي فرحاً على غير عادته فيحدثني عن لبنا وروايته. الرواية التي مضى عليه أربعة أعوام وهو ينحت فيها مثل فلاح يضرب في أرض مجفرة. لكنه متفائل بها رغم القسوة التي يعاني منها: من الصعب أن تنشر هذه الرواية في وطننا. هذا ما احسه دائماً. سوف تفهم بطريقة مختلفة. كل ما في هذا الوطن مؤس ومجزن. ينقبض وهو يتناول كأسه. "يحتسي منه فيعتقد حاجباه ويلوح العكر في مشيئة عينيه: لو كنت شاعراً لرثيت هذا الوطن بأبدع من مراني أرميا وأنا أراه محمولاً على الراحت مضمخاً بالدم يوارى فينا. لقد قتلتاه. نخبك ونخب الاوطان القتيلة.

بعد انقضاء السهرة في النادي الصيني، نسير فوق أرصفة الصالحية. تنعلف باتجاه شارع أبي رمانة. يضرب رائي الرصيف وحيطان الابنية برأس حذائه. يخرج شبابه وينوح. يصير الليل مرثية. تنعلف. على نعم الناي يوصلني الى بيت أمينة.

يقول: سأجلس هنا على الرصيف اغني لك وانت تمام في أحضان خليلتك ما رأيك؟.

اعبر البوابة الحديدية السوداء بهدوء. اطرق الباب بينما ترتفع موجاع الناي في قلب الليل الجليل.

وتطارد، فيهاجر خوفاً منها نحو الصحارى وهذا النواح الذي تسمعه هوبكاؤه على فراخه وأرضه الخصبة التي هاجر منها.

كانوا يتحلقون تحت الخيمة يحضون الشاي التي أعدها لهم، يستمعون اليه في أمور الدنيا والدين بينما يتناول خمرته على مهل. ويسأله أحدهم: لماذا تتركه يأتيك بالعشاء وحيداً في الليل؟.

فيجيب بثقة: عليه أن يراجه الحياة لوحده. هل أدوم له؟.

- ولكنه طفل، والقط في الليل يزرع الفزع في قلوب الرجال.

ويقول: في قلوب اشباه الرجال. ثم يضيف ممتراً: هذا من صلي. نسلي لا يخاف. جده قتل الذئب حقاً بيديه وأنا قتلت الضبع بالعصا بينما التندقية معلقة في كتي. ابن الفلاح الاصيل لا يهاب الموت لأنه يعيش مع الموت.

وكانوا يعرفون تلك الحوادث، ويعرفون انه روى ذلك أكثر من مرة على سامعهم. وعندما كان يشعل كان يُصاب بحالة من التصوف لا مثيل لها. وغرّفوا عنه احتقاره للضعفاء من البشر والنساء والجناء. كان يبدو قاسياً جباراً وهو يروي لهم حوادث قديمة عن الشعراء والقديسين، ويدافع عن أبي نواس كأعظم متصوف رحاني، وكان مثاله في القوة المنني. واذا يسألونه لماذا يجهلهم كان يبتسم باحتقار: لم يكونوا كذبة مثلكم ومثل شيوخكم الخرامية، ولا جناء وتبساً لا يفهمون من دينهم وديانهم إلا ما تفقهون يا بُهْمُ السواحل الكسالى.

ثم يردف بصحو وأب: ورب الكعبة بامكاني الآن أن اخلق أفضل منك. الاقطاعيون الكلاب يسرقون الماء والأرض أمام أعينكم. يبيعونكم ساعة الماء بمئة ليرة وأنتم كالخشب المسند لا تتحركون. انظروا الى هذه الأراضي كيف اصفرّت وبست أمام ابصارنا ولا تحرك ساكناً.

- ماذا يبدنا؟ لقد اشترى الماء من الوقت فصار ملكهم. هل نلاطم العين غزراً؟.

وبحث: الدولة! الوقت! هذه مياهانا يتكونها تجري الى البحر واراضينا تحرق من العطش. بشر نحن أم حجارة؟ ونحن لو فينا ذرة دم لتحركنا. أنا اشارك اذا كان الدم يجري في عروقكم.

ويقول أحدهم: وماذا تفعل يا شيخ عبد الله؟ الاقطاعيون معهم القانون ونحن ما معنا شيء.

- ١٨ -

لقد أحب تلك السهول بالشغف نفسه الذي أحب فيه الله حتى صار جزءاً منها. حتى في الشتاء بنى كوخاً احاطه بورق قصب السكر الجاف وطيلة الفصل القارس نام فيه. وكان ينام معه على صوت الريح والمطر ودوي البحر. في تلك الليالي الموحشة روى له أموراً مهمة عن الطبيعة والله والانسان والروح الحية في الاشياء واندماج الاشياء في حركة واحدة، وروى له أن روح الله قاعة في الريح والانسان والحجر والماء وهذه الروح خالدة لا تفنى.

وفي جميع الاصباف كانت السهول مخضرة. أراضيها والبحر. كانت لها رائحة خاصة شديدة الجذب، واذا كان الصيد والسرير الليلي والصراع مع الثعابين والوحوش تذكر. كان اسمه يشب عفوياً الى ذاكرتهم وهم يسبحون على حافة الساقية، يذخون التبغ الرخيص ويتحدثون عن المواسم وعطش الأرض والافطاعيين القساة.

من الغرب بلوح الافق البحري، وبين حين وآخر يسمع زقو الثورس، هذا الطائر الذي لا يتعب من النواح والسفر من الجزر الى الشطآن ومن الشطآن الى المراكب التي أوقدت مصابيحها، وراح بجارتها يشندون وهم يرمون شباكهم وصناراتهم المطعمة.

وفي تلك الليالي البعيدة الهادئة، كان يعبر فوق السهول وفوق خيام الفلاحين، طائر الكروان وهو يغني بعذوبة وحنين من فقد صديقه. وكان يسأله عن هذا الطائر الحزين الذي لا يعبر إلا ليلاً فيقول له انه يهاجر صوب الصحارى. ولا يذكر انه رآه يوماً. صوته كان يشي في أذنيه في أخريات المساء، وظل في نفسه شوق عميق لان يرى يوماً طائر الهجرات هذا.

ويسأله لماذا يهاجر في هذه الأيام فيقول: في الجزر التي يعيش فيها، تأتي طيور غريبة شرسة في مثل هذه الأيام، تحتل مساكنه وأراضيه بعد أن تقتل فراخه

- معاولنا تشق الصخر فلماذا لا تشق رؤوس الاقطاعيين ومن معهم ؟ الانسان لا يموت مرتين. نموت اليوم لنولد غداً. الحق يؤخذ بالقوة والفلاح يظلم مسحوقاً حتى يثبت انه قوي .

واذ كان يشرف على ريع السهاري والخيمة ، من وراء التلال القريبة ، ويرى الفوانيس المعلقة ، يرحل خوفاً فيكف عن الغناء . يشعر بأنه قوي فيقول في سره : أين أنت يا ضلع طريق السهول الذي أفزعني أمي منه ؟ وكالرعد يأتيه صوت أبيه ، كأنما حدس بقرب وصوله ، فيرد بقوة من اطمأن الآن : ها أنذا ! .

- هيا يا شيلي هيا . أنت خائف ؟ .

- لا ... لا . أبداً . مازقاً صمت الليل . يحس لصوته رعشة قادمة من صمم القلب . اذ ذاك ينظر اليهم شامتاً . يحس جرة من كأسه ثم يقول بعنجهية مخمورة : هذا الشبل الصغير عندما ينمو سيبي بناتكم ويدي أولادكم العمش . بصمت يرنون الى وجوه بعضهم البعض . يهزون رؤوسهم وفجأة يفجرون بالصضحك .

من الطرقات البرية الضيقة المزروعة بالغار والشوك والحجارة ، الى شوارع الصالحية وأبي رمانة والمهدي بن بركة . ومن الضواحي الفسيحة والازقة المسكونة بالحربة والوحد ورائحة العشب والتراب ، الى ضفاف الارصفة العامرة بالبيوت الفخمة والفنادق والمقاهي والخازرات وأوكار النساء .

كذلك الحال من انطاكية وصدد الى بؤرة الثورة : دمشق الحبيبة ، المتألقة ، الشملة ، الوضاحة ، العاطية ، فردوس الحالمين بالجهد والخلود ، اختلط العالم واشتبك الوهم مع الحقيقة .

سطح حياتها كان يبدو رائعاً . وخلال لقاءاتها لم يكن هناك ما يوحى بالقلق . لم تكن تمضي دقائق إلا ويضحك مسرور على نحو يوحى بالسكينة النفسية ، واذ ذاك كانت مراسم البلاهة تنضح . كان وجهه يوحى بهذا الانطباع ، بينما تنسم حركاته بارتباك ظاهر ، تكاد تنفي عن خشية باطنية من وجودي .

سألها : أبقار مسرور ؟ .

فردت هامة : من الطير اذا عبر فوق ! .

- أخاف انه يغار مني ؟ .

- لا أعتقد .

- سأقول له ذلك جهاراً ! .

كان مسرور يبدو فرحاً بهذه اللعبة . لم يكن يصدق انه اصطاد سمكة رائعة وان هذه السمكة له وحده وانها هنا في اناة تحت بصره . وأعجب ما كان يثير الدهشة فيه انه لم ينس يوماً يحرف عن فلسطينه التي هوت .

واذ دخل جبهته : غازلت ديانا في غيابك . بلاهة مبتسمة يرد : خذ حريتك . أعرفها اكثر منك لا تعذب نفسك . نصيحة أخ لاختيه لا تعلق .

- لكنك تتركها وحيدة وأنا آتي في غيابك .

- يا جيل ما يترك ربح .

- نمشي ساعات في الليل وأنت غائب .

- تسرد لي كل شيء .

- يعني رابط حقل يحمية ؟ .

- الراعي وحده يعرف النجعة الجرباء من الصبحة .

- أنت حر . لقد أعذر من أنذر . اذانمت يوماً لا تقل تعنوني في الغفلة !

كانت ديانا تبتسم خلال الحوار ، وتدخلت أخيراً : لا تهتم مسرور ، هذا انسان فضائحي بالكلام فقط . لقد حاول لكنني صدته . وعجزتني لئلا رد الفعل . وانيه مسرور نافراً : ملاعين . أتملونها في غيابي . ديانا . نحن اسلام هاه ، وعند الحرة رقتك تُحَرِّ . وهره ضحكة صفراء .

وقلت : لا تطفأ . يثبت . يعيش التقدمي الثوري المعاصر . يا ...

واشتركتنا معاً في الضحك .

□

في مساء ذلك اليوم قال الرجل التاريخي والد مسرور هازناً مني ومن مسرور الغائب : أهذا جيل يمرر بلداً ؟ هذا جيل نساء وقلبيته وحكي .

كنا نجلس في ساحة الدار . وكان هناك عشب وجدار مرتفع وديانا تتشع بغلالة شفاقة مهددة على كرسي من قش ، مادة ساقيا العاجيتين . وفي وجهها حزن خاص .

وتابع الرجل القديم الجاني قربي : عبدالله خان. هاه ! قاد جيوش العرب ثم عطعم في الخلف. طيب أمنا. اخواننا هؤلاء الذين زحموا الدنيا بالاصوات والتحرير لماذا لم يحرروها. اسمع أقبل لك؟ شهاب الدين... عيب نكل في حضور الحرمة. بدا نرقأ وهو يلوح رأسه بيأس. في جيبه بان غضب وراح يهاجم بصراحة مدهشة. بصدق من جرحته المأساة وخيل اليه انها اندلعت وهماهي الجراح تفتق. حكى عن المآسي التي وقعت والمذابح والمؤامرات والخيانات وحرب القسّام ضد اليهود والانكليز. وقال انه عصي في الجبال شهوراً وحاول الانكليز أن يرشوه ليكتف عن حربهم. أعطوه مربيّاً لكنه استمر في مهاجمة المصفحات والدوريات بيندقته التي استولى عليها من المصائب اليهودية. وكانت معه «شربة» ذبح بها ضابطاً انكليزياً برتبة كومندان. كان الانكليز يتقدمون نحو القرى والجبال بحثاً عن الثوار ووزّاهم الدوريات اليهودية. كانوا يسلمونهم فلسطين قبل خروجهم. واذا كانوا يفسلون في الثور على المجاهدين، يهاجمون القرى الآمنة يدمرونها ويذبحون الاطفال والنساء كما ذبح النعاج.

وسألته: ولكن الارض لماذا بيعت؟

واحتد: كلكم يسأل عن ذلك. الذين باعوا الأراضي عائلات اقطاعية هاجرت من سورية ومصر ولبنان كآل سرسق وغندور وسلام والحلي، أما الفلاحون فلم يبيعوا شيئاً واحداً، لقد أرغموا ودفعوا على الهجرة بالقوة. قُتل من قُتل وطُرد الباقي. أنت لم ترّ الارهاب الصهيوني والمذابح ومعسكرات الاعتقال. ولفجأة كشف عن صدره: انظر. واراد أن يكشف عن ظهره فاستحيا. ولاح صدره مزمزاً بأثلام عميقة بدت وكأنها الثامت لنفسها. كان الآن في قة غضبه وقهره.

وسألته: لماذا استسلم؟ فقال: لقد طوقوني ولم يكن معي خرطوشة وقد تشتت شمل الثوار. ثم أردف وهو يزرر جلبابه: في الماضي كان يوجد رجال أما الآن. هه. أين الرجال؟ يا ابني عمري الآن ثمانون عاماً. اعطني بارودة من هذه التي تسمونها «الكلاشينوف». لا ادري ما اسمها وسوف ترى. في ٣٦ حاربنا بينادق من حرب الـ ١٤ من أصل خمس طلاقات واحدة تطلق، وبعد أن نحمل نشلح الرصاص على بعد متر.

وقلت: لكن هذا العصر لم يعد عصر البنادق. أصبحنا في عصر الصواريخ والتبايل والمخابرات.

فاتنرت عقداً غضبه: ماذا يفيد كل هذا أمام شجاعة الرجال. في كل العصور الرجال هم الأصل. صرنا في عصر الحريم يا ابني. المرأة هي التي تأمر الرجل والرجل ينفذ.

انجلت غمة ديانا فحاولت التدخل: ما دخل الحريم بفلسطين؟ انت رجل خرف لا ندري ما تقول !.

نظر نحوها ثم تحول الي: اسمع كيف تخاطبني. أنا كجدها وتحدث معي هكذا. فكيف اذا ما خاطبت زوجها. أمهذه زوجة؟ هذه فرعونة أجازنا الله منها. المرأة في زماننا اذا ما تحدث الرجل تصمت. يقول لها موتي تحب. أما الآن فالعياذ بالله. اجربنا يا رب العالمين من هذا الجليل. وتمم وهو يدرج لفاعته: لا بد ان القيامة على الابواب.

كان الألم منشوراً على عيابه، بيتنا حاولنا مشروع ابتسامه أنا وديانا على كلمة فرعونة.



هو الحزن ثم اليأس، يزحان نفساً قوية كالتيار، متوهجة كالغضب، عندما الزمن يأخذ بعقل كل الانفعالات، عوّلوا الرجال المتأججين الى مجرد خرق رمزية في جبانة التاريخ. غير انه مكابر يحاول أن يخترق الزمن ويخطو. ومن تشوش ذهن العربي احتسّى برود الفعل، وطعن أخيه وومي الخسائر في ظهره، ما عاد هو في هيب الزمن. ويقول عسوراً رافضاً: لست للمزيم. انما انتم الذين أوقفتم دائماً اطلاق النار عندما توقف العقل عن حيوته. وعندما تحولت الشجاعة الى تعويض صاحب ضد الاستعمار والإستراتيجيات والتحضير الثوري الطويل الأمد.

وهم الآن يقهرونك لأن دقة التاريخ يدهم. وأنت ضعيف وفقير في هذا الوقت، تسكن الطوابق السفلى في حين يسكنون الطوابق العليا. يقولون للأشياء: كوني تكن. والذي يحصد خسران الوطن أنت، وبك أبا المخلوع الصغير تسمح كل هزائم التاريخ، والذي قاله سامر البدوي عن روح الشعب صحيح. لكن الشعب كما قال راني غائب. وروح الشعب تسكن في الالم والتعدي. ولكن هل في تاريخ العالم ما هو أكثر ألماً وتعدياً من هذا الذي يحتاج وطن العرب في هذه الايام العvisية؟ وحتماً تنتظر هذه الروح حتى تخرج من منفاها؟ وهل نمة لعنة مست تلك الروح فارجت دونها الابواب حتى كادت تفتح؟.

ولأن تلك الأم كانت قاصرة وغبية كان يحقرها. كانت حكاية النسل تعذبه. ولذا مذ بدأ يحسن المشي فصله عنها. كان يرفض أن يكون من نسلها الغني القاصر. ولينشئه على هواه، روى له حكايات عن الصيد والقتل واختراق الوديان واللبالي الثلجية. كان يصطحبه معه بعيداً عنها الى البراري والسهول، ومنذ بدأ يعرف التسديد اشترى له بندقية ودربه كيف يطلق النار على الطرائد، وكان يردد على مسامعه: النساء كالافاعي اسحق رؤوسها جيداً.

انه يتذكر الآن بوضوح كيف كان يضربها بكل قسوة ووحشية، بينما يتمزق ألماً اذ يراها مكمومة تحت جسده المنحني. قبضته تنال عليها بلا شفقة، وعيناه تبرقان لاهتاً كحيوان طعن للثو.

يحسده الصغير يحاول أن يجمعها، وهو يبكي والضربات تنال فوقها. واذا يتوقف، يسب ويصيح لم يخرج الى اقرب خيارة لينفث ما تبقى من غضبه. في ذلك الزمن العميق المنسي، كان الصدع يبدأ شعيراته الأولى فوق زجاج النفس، وبين الشعيرات كان الخوف والمقت، يرسان معالم تهشيم الماضي والصلة المقطوعة بينها.

وفي يوم قانظ طارد أفعى في حقل الذرة فقتلها قبل أن تصل وكراها. أفعى سوداء اصابتها في وسطها فانثلت وراحت تتململ بوجع مادة لسانها الاحمر. بوحشية ضربها على رأسها مرة ومرة ثم تناول حجراً هرس به رأسها حتى خمدت لكن ذيلها بقي يتحرك. وتذكر كلمته بان حركة الذنب لن تتوقف حتى يطلع القمر.

بعد ذلك أسك بذنها وقاسها على جسمه. كانت أطول منه. سحبها الى السياج المجاور للخيمة ونشرها فوقه كقطعة جيل فبدت كأنها لم تمت. يومها وهو يعود الى ظل الخيمة شعر بخوفه وقد انكسر، وانه الآن رجل في نظر ذلك الفلاح القاسي الحكيم.

- ١٩ -

جيداً كنت أعرف تاريخها من الجميع. ويوماً ما لم أسأها عن التفاصيل. لكن أحزن الأشياء تحيل كل واحد منهم انه ما زال يجيها في الوقت الذي يخونها مع كل مشرق ومغرب شمس.

لقد تجاوزت حزنها حتى الالهال، وكانت تنيء عن ذلك بقولها: الأوفياء الخونة يتحدون عني في مجالهم كسلعة في سوق النخاسة. يتاجرون بي ليستمروا.

وفي تلك الأيام تحدثنا بجمرة عن العلائق والزمن. وقالت بأنها كتبت قصيدة رمزية عنوانها الفصول. وقلت لها اقربي لي شيئاً منها. وبسخرية مرة قرأت المقطع الأول:

«في الخريف تبدو الاغصان جافة،
كذلك الأرض

وفي الصيف تغور الينابيع تحت جلد الأرض
واذ يقبل الشتاء تشتعل الذكريات
وتنبثق

لكن الربيع يظل خديعة كاذبة لها روائح
سريعاً ما تتبدد».

وسألنا: هل تدرين جيداً ماذا تكتنين؟

فردت: لست ساذجة كما تتصور. كل ما في الامر انني احاول بالشعر التعبير عن ألمي المكبوت. وقلت: بان حالة الشعر عندك فطرية لا واعية بحاجة الى شيء من الوعي. تعابيرك تنسم برومانسية ذات طابع طهري والعصر الذي نحياه عصر متأجج.

وقالت: قد أكون مثالية. لكن قل لي: ماذا يكون الانسان بعد أن يفجعه الواقع؟

-- شيئاً آخر غير الارتداد الى النفس والدوران المركزي حول الذات.

- مغامرة أخرى؟

- أبعد من المغامرة.

- لكنني ابتليت بالمغامرين. هل أعدّهم لك؟

قلت: لا. أعرفهم. ما قصده حالة جديدة من الصحو والاستيقاظ أبعد من السلبية واللامبالاة وعشق الذات.

وقالت بغضب: عشقت وعشقت بما فيه الكفاية، حتى صرت مومساً على شفاة هؤلاء الناس. في جميع الفصول خيبرتهم وماذا كانت النتيجة؟ ابنة مرمية في الجيوب وزوج قتل ثم عشاق سكارى ونرجسيون يبحثون عن ملذاتهم، سفلة وسفاحون غارقون حتى رؤوسهم في امتيازاتهم. وجوه متشابهة. كلمات متشابهة. ساحات حرب. زيف. كذب. ضوضاء. بيع وشراء. وبعد هذا تسألني عن الحب العفوي. الحب النابع من القلب؟

كالريح تعبر البحيرات، مكونة خلال هبوبها أمواجاً. كالبط يهاجر موسمياً من مناطق الدفء نحو المناطق الباردة، هكذا تبدو رحلة العبور فوق دمشق المسحورة: وطن منى والحياة.

وغير الروائع، غير الماضي المورق بالحزن، وغير العجز، لا يبقى خلال هذه الرحلة.

هوذا المطر. شوارع مبتلة وشجر عارٍ إلا من الأغصان الشبية بالأضلاع، تشفّ تحت المطر المضاء، وفي الذاكرة تذكرات تمضي. صور وأطياف للحظات عبرت لا تعود. حزن باتساع هذا الفضاء ولا شيء آخر. وعن الفرامل تُرفع الأرجل فتمضي سيارة وائل، والزمن القاتل هو السيد بلا منازع.

كان مضيقاً مثيراً للشجن في تلك الليلة الممطرة. المساحات تتحركان بآلية رتيبة مضجرة. مُسهبان فوق إسفلت زلق على طرفيه أشجار. وكما دته كان موثقاً بماضيه المستلقي في قرارته. في ذهنه مليون حكاية حدثت أو هو مستعد لاختراعها ليثبت أنه شيء خاص منفرد في هذا العالم. وما كان في ذهني أي شيء إذ ذاك يستحق الاهتمام.

ويخرج عن صمته. تحدث عن القذارة والخيانة والجنس كيف يسد بوابة الإبداع في الإنسان العربي، ثم السياسة تقريباً عن حالة الجنس المحتقة. كانت سرعة اندفاع السيارة أو تباطؤها يتناسبان مع الحالة الشخصية. وبدأ مدركاً على نحو غوغاني القصور العام للأشياء، لكنه لم يستطع أن يوضح ذلك. تناول الحزب والدولة والإنسان وقال: لا جدوى من كل ما يحدث. يبدو أننا محدوعون ومسقون كسائمة في تيه ليس له نجوم.

وسأته: لكنك تستمر وأنت تدرك ذلك؟ وإذا فجأه السؤال ابتدرني: ما العمل؟

وحوم في ذهن السؤال: من القرية إلى دمشق ومن دمشق إلى القاهرة، ومن حطين إلى عصر الانقلابات الصاخبة: ما العمل؟

كان الجواب غامضاً بقدر ما هو واضح. ممكناً بقدر ما هو مستحيل. ولوهلة بدا وكأن العرب بانتظار معجزة كتلك التي حدثت يوماً في صحرائهم في الزمن القديم، لكنها لن تكون ساوية هذه المرة.

وسألني: جيلنا هل يستطيع ذلك؟

- في أي جيل إذن؟

- ربما في جيل آخر سيأتي.

ونحرت رافضاً أن أكون ضحية. وقال: نحن ناقصون.

قلت: يمكن سد هذا النقص. لسا أكثر نقصاً من الصينيين.

وقال: حتى يسدّ هذا النقص نكون قد مضينا.

قلت: عندما تكون هناك ثورة تحدث المعجزة. ينكسر زمن ويبدأ زمن آخر.

تألفت: إنك تتحدث أبداً عن الثورة، ما هذا الذي نحن فيه إذن؟

قلت ساخراً: وما قتله وما صلبوه لكن شُبّه لهم!.

[]

جدّ جدّ جدّه، هزم الرومان والصليبيين والأتراك والطلبان والانكليز والفرنسيين. - والأميركان والصهاينة. هل يخرج لهم خالد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد القادر

الجزائري وحسن الخراط من القبر؟

ومن يحيط الوطن إلى خليجه، كان السطاء يدركون كيف يمكن أن يُهزم الغزاة، لكن القليل من المتنطعين لقيادة العصر والإنسان كانوا يدركون أين يكن سوس الانقراض!

وهؤلاء بالذات، كانت جبال السلطة قد أوثقتهم وحرمت عليهم تحطّي الحدود بغير جوازات سفر موقعة من المؤسسات التي اخترعوها لتكون السد بين العربي ووطنه. لقد انعطبت ذاكرتهم.

منذ سبعة عشر عاماً وهو ملقى. قعيد البيت منسي. مسجى على فراش وثير، حاملاً بين ضلوعه المطعونة كل الحزن وكل القهر وكل العجز.

- وائل...

ويهرع إليه. يسأله: من ملك؟

فيجب: صديقي شبلي.

- دعني أراه.

ويظلي.

ولأول مرة في حياتي أراه. غمرة من الرهبة والجلال والحزن العميق تنتشر في داخلي. جاهداً يحاول النهوض ليلمس فأرجوه ألا يفعل. أحس بقبضته القوية تجمع أصابعي تكاد تحطمها فأسحبها. ويطلب إلي أن أجلس قربه.

المطر يريخ في الخارج بخفوت يثير الوجد، والرجل الذي بدا صحيح الجسد وهو ساكن، يبتسم ويسألني عن أحوالي وصداقتي مع وائل وأحوال الوطن. باقتضاب أجب وأنا أتملّ وجهه الخابي الوبيض وعينيهِ الواسعتين وشاربه الكث وصدوره العريض.

كان نصفه الأعلى مرفوعاً قليلاً يستند على مخدتين بينا النصف الأسفل ينساب تحت اللحاف، ومن طرف خفي كنت ألمح ذلك النصف الميت.

من السرة حتى الرأس كان يتحرك، ويتحدث بحموية رجل صارع الحياة وما خاف العواقب. وقال بمرارة: لكن الإنسان يقع أخيراً كما ترى. الجسد يخون الإنسان في النهاية.

وسألني إن كنت قد خدمت في الجيش وفي أي مكان، فقلت بأن خدمتي كانت في القطاع الشبلي من الجبهة. شعرت بنظراته تخترق جدران الغرفة. بينا لاح في وجهه ظل من أسي قديم. وقدم وائل ومعه القهوة. وقال لوائل: دخن. دخن. وقدم لصديقك مع القهوة. وقال وائل: لا عليك بابا.

والح عليه أن يدخن ففعل محرّجاً وقدم لي، ودهشت أنه لا يدخن في حضوره.

لم أكن أدري كيف أثّره ليحكّي لنا شيئاً من ذلك الماضي الذي عاشه في معارك حية، رغم أن وائل حدثني قليلاً عن ذلك وفي كتب التاريخ والبيانات السياسية قرأت حتى أتخفّت.

وقال وائل: بابا. صديقي يعرف عنك قبل أن يراك!

وهز رأسه دهشاً: وماذا يعرف؟ وقلت بسرعة: أنك أحد أبطال فلسطين.

وقال: بل قل أحد الضحايا.

وههمت: الضحية بطل مزدوج.

وهز رأسه: ولكن ما الفائدة!

وسألته: هل تعتقد أن فلسطين ضاعت بالخيانة أو الجبن وهل تعود؟

وببطء رفع نصف جسده. لم يكن ينظر إلينا عندما بدأ يروي عن بداية الحرب، والتقدم المتواصل بلا مقاومة من جسر بنات يعقوب إلى كموش ونجمة الصبح حتى صفد. حقول الألغام تفجرها أجساد الرجال. أصوات: الله أكبر يا فرسان العرب النصر لكم تقدموا فالهيوذ يفرون أمامكم.

كانوا يدخلون القرى والزحف مستمر. كنت قائد فصيلة مشاة، والأسلحة قليلة وكذلك الذخيرة، لكن عزائم الرجال وإيمانهم كانت من فولاذ. بنادق من مختلف الأصناف. خناجر وبناريد صيد وفؤوس لكن كان هناك رجال بالمعنى الصحيح يأكلون الأرض ويخيّفون الموت.

كان يضغط على الكلمات محرّكاً قبضته أحياناً وفي عينيه بريق ولدته الآن ذكرى المعارك. وروى كيف دخلت الجيوش العربية في أبار من ذلك العام الأسود.

العام الذي أصبح تاريخاً كعام سقوط القسطنطينية وبغداد، وأن دور المجاهدين أصبح ثانوياً بعد دخول الجيوش العربية.

تفاءلنا. أصبح النصر مؤكداً. أربعة جيوش بدأت زحفها من أطراف فلسطين وقائدها الأعلى الملك عبد الله وقائد العمليات كلوب باشا. وتواردت الأخبار وانتشرت بأن اللقاء سيتم في تل أبيب وانتظروا. وكانت النتيجة ما حدث.

وبدا الآن حزناً منكباً. طلب لفاقه فأشعل له وائل ففر الدخان بغضب.

عندما كان يحكي لم تكن له ملامح مميزة. وجه حزين ومقهور، وبصويرة كان يتحرك. وخلال ذلك كان وائل صامتا كحجر يعصر يديه ببعضها البعض، زافراً تنهداته مع دخان اللقائف التي استلهمها، ومظم الوقت مطرق نحو الأرض وسألته: لكلك لم تجيني تماماً عن سؤالي. أعني الجين أم الخيانة؟ وقال يوثق: كنا بحاجة إلى فصل انتحاري عندما اصطدمنا بمحلول الألغام ولم تكن لدينا كاسحات الألغام. كان لابد من شق طريق للجيوش المتقدم عبر هذه الحقول. تصور أي نوع من الرجال كان أولئك الذين تطوعوا وهم يعرفون أنهم سيموتون. بالرتل على عرض متر كانوا يتقدمون. اثنان اثنان على خط متواز. وبدأت الانفجارات وشظايا القتل تتطاير مع أصوات الله أكبر. هذا ماذا تسميه؟

- بسالة خارقة ولكن هل هي منطقية؟

وقال: معارك بيرل هاربر وانقراض الطيارين اليابانيين على الأسطول الأمريكي في الباسيفيك منطقية أم لا؟ ثم هل كان لدينا كاسحات الألغام في ذلك الوقت ونحن بأمر الحاجة إلى خرطوشة؟

- لكن كانت هناك فوضى لا مثيل لها. لقد خيضت تلك الحرب على غرار حروب الجاهلية القديمة. الحرب لا تكسبها الشجاعة فقط.

ورد: هذا صحيح. لم يكن هناك تنظيم. كنا نقاتل بفصائل وكتائب لا ارتباط بينها. ولكن كانت هناك الخيانة والأسلحة المتخلفة والفاصلة. كانت القيادة العليا متواطئة مع الإنكليز واليهود. فكلوب باشا سحب قوات الجيش الأردني التي كانت مراقبة في اللد والزملة بحجة الهدنة الأولى التي تمت في (١١) أيار. قبل عشرة أيام من الهدنة ليتيح لليهود فرصة التآهب لاحتلالها. لكنه أخلف

وعده عندما استؤنف القتال في (٩) تموز فسقطت اللد والزملة. وكان القصد من ذلك تنفيذ أوامر الملك عبد الله الذي أراد توسيع حدود مملكته على حساب تقسيم فلسطين مع الصهاينة، ولكي يحقق ذلك لم يسمح للجيش العراقي بالتدخل. فبني مجدداً حتى غادر فلسطين. وتحققت هزيمة الجيش المصري بعد تسليم اللد والزملة حيث انكشفت ميمة هذا الجيش. كما سحب عبد الله الكتيبة الأردنية التي كانت ترابط في النقب ففتح بذلك الطريق أمام الصهاينة ليحتلوا العقبة، وعلى هذا النحو عزل الجيش المصري في منطقة الخليل وقام سور من القوات الصهيونية بين مصر وما تبقى من الضفة الغربية، لقد عرف الصهاينة تطلع عبد الله لحكم المنطقة الباقية من فلسطين، وطلبوا منه المثلث مقابل اعترافهم بالوفد الأردني متكلماً باسم الجيش العراقي في مباحثات الهدنة ببرودس، وقد قبلت الحكومة الأردنية بذلك. وهكذا استطاع الصهاينة البقاء في القدس واحتلوا اللد والزملة وتوسعوا نحو الجنوب فاحتلوا العقبة بعد النقب. خلال أيام تمكنت الجيوش العربية من احتلال القسم الأكبر من فلسطين، لكن هذبة الخيانة أصباحت كل شيء فبا بعد. أنتم تعرفون ما تبقى. وبقسوة سحق عقب اللقافة في المنقصة.

كيف تذكرت منى. ووالد وائل الأسدي يسرد التاريخ الأسود. لا أدري! كان المطر ما يزال يهيم، وجو الغرفة مغلف بالدخان والأسى العميق. وتنهذت وائل المقهورة تصاعد بين حين وآخر.

عدلتُ عن سؤالي الأخير: هل تعود؟

وأنا أرى منى منقبة عن دمشق، وائل يضرب بعنف وجوهه وصدور ورقاب الرجال. والنساء على السواء دون شفقة. وإذ خيم الصمت وثبت إلى غيلاني صورته محمولاً فوق حفرة نحو مركز إخلاء الجرحى، ثم حضر وائل.

لم يكن يسمع صراخهم. وجهه قان مهتاج. والوجوه والصدور والأرجل تتشنج ثم ترتعش ثم تسقط اعياء وأحياناً تدوع الحركة إلى الأبد. جرحى ومشوهون وموتى. خرجوا من تلك الأقبية المظلمة. بالكف والصفي وأشرطة الكهرياء والأسياخ الحماة. ضربوا. وكانت أصواتهم تتخادم وتغتصم الجدران. الحجاب بعددهم الذين أذلهم رعب ما يحدث، سمعوا الصراخ. وكان هو هناك على كرسيه هزاز بين عشرات ميعدات التعذيب وآلات التسجيل والهواتف والأرائك المربعة.

يدخن ويخسني الويسكي ويسمع الموسيقى، كان هناك بوجهه القاسي المعجون
بالفطرسه ومرارة الماضي. لا يعرف الابتسام أبداً.

- ٢٠ -

كان الإنجاء الآن شوارع المدينة التي لم تُرتد بعد، أسفل قاسيون حيث
يفترض الأمان من العيون. وما كان أحد ليصدق أن فرق عشرين عاماً بين كل منا
نحن الثلاثة يعني الأمومة أو الأبوة. وعبر الشارع الخالي بدأت سمية تنط كأرنبة
اجتاحها فرح آمن.

نلج شارعاً آخر خافت الضوء مسيحاً بالياسمين والخلو الإنساني. في الظلمة
نحاذي عرائش الياسمين. أمسك أصابع يدها اليسرى. أضغط فتضغط ويهزني وجع
جسدي، فأهفو احتضانها في هلام الظلمة مثاراً بعيق الياسمين. سمية تقبل والبة
امامنا فتحدرد ذراعي عن خصرها. تقطف زهرتين تناول أمها وتناولني. تمنح قربنا:
سنسمي هذا الشارع... ماذا ماما؟

وتضحك أمينة. ترفع كتفها خبثاً: لا أدري. سمه أنت! وتضغط أصابعي
فأقول: شارع الروائع. يفتخر ثغر سمية فتقول: لا. شارع العشاق. لم تقفز بمتعده.
الشارع ذاته سرنا فيه. في هذه النقطة حاولت تقبيلها. كنت أرتعش من الخوف
وضوع الياسمين وذكريات منى. أذكر أنني أوقفها قرب هذه العريشة، ورحت أتملى
وجهها الناعم العذب وشفتيها المتدفعتين يتحلى سافر نحو الأمام. كان خداهما بين
راحتي كني. وعيناي مثبتتين مباشرة في عينها المتقددين في الظلمة، وكان نحرها يلعب
تحت انعكاس الرغبة. وفي تلك اللحظة كنت أحبها، وفي تلك اللحظة لم تكن
هناك خيانة. فقط كان الخوف من شيء مجهول سيسبب ألماً في المستقبل. كانت
بشرتها حارة تحت أصابعي، وثدياها يرتجفان خوفاً وشهوة وتوجساً. وتمنى كل منا
أن يحدث ذلك الشيء الخاطف العذب. وفي تلك اللحظة تبدت عاشقة باستسلام
لا صفة له. كان كلانا يرتعش. وكان تعارفنا طفلاً لم يعرف الملاسة بعد. بدونا
كأنما نولد في هذا العمّ الخاص. وتمنى كل منا لو يعود سنوات إلى الوراء. يدبر

عربة الزمن نحو الاتجاه الصحيح. كنا صامتين في مدار الزمن. وفجأة سرنا كما قبل الثواني التي عبر فيها هذا البرق، وبيننا مشى الحزن.

ها نحن قرب سفح قاسيون، أمام حديقة نفثش عن مكان للتسلل داخلها. أطلب من سمية أن ترصد حركة الحارس الليلي. تقول سمية لتشب فوق السياج لكن أمينة تحبس بالحرج. وتتوقف.

دمشق تحت أبصارنا. مرج من الضوء الملأ والسطوح الحجرية. أنفط زهرة أناولا أمينة. تشمها، ثم تقيها. ويجنو عاشقة تنظر نحو وتأوه. أرفع بصري إلى وجهها المغضن وجسدها الصلب فيتأنيبني حس الائم. أحدها عن السفر فتقول بأنها على استعداد للسفر معي الى أي مكان في الأرض. أقول بأن أمامي مستقبلاً ولن يطول غيابي. فتلفت مذعورة: هل ضجرت مني؟

أكذب. معها كنت أكذب عدا لحظة المضاجعة. لا أستطيع أن أفهمها معنى الضجر، ولا معنى خياني في دمشق. ومعها اشعر بأعياء اللغة. ولوقلت لها: بأنك صدفة. مجرد اعتراض مرضي اعتراني في غياب مني. لفهمت مني بأنها شيء لا قيمة له. وكان ذلك كافياً لتحطيمها. وسقول أيضاً: هكذا الرجال إلى أن يحصلوا على المرأة عبيد وبعد ذلك يلفظونها. كلكم كلاب وسفلة.

كان صعباً حتى الاستحالة إفهامها معنى النقص الحسي والنقص في الرجل والمرأة. وإذا غرقنا في حديث السفر والرحيل عن دمشق شككت بأن ذلك تبطين للهروب منها. وما كان ذلك صحيحاً تماماً. فقد بدت الأيام الأخيرة مشحونة باليأس. وعادت الأفراح القديمة حول الاغتراب والإكتشافات الجديدة خارج الوطن، تنددن. كان ذلك حلماً قديماً عشته زمناً قبل أن تفتد دمشق. وكانت أمك تسميه: الموال الذي يدوم في رأسك وستغنيه يوماً.

لقد عاد الموال القديم. أحسه الآن يزغف من جديد طالعاً من جدران الذاكرة، مدقداً كالموج بعد أن باشرت دمشق انسحابها وبدت الاكتشافات وآمال الذهن ومنى. مجرد أسطورة صاغها خيال طفل ربي مهاجر، كان يبحث عبثاً عن أمان وينابيع حجب وحرية وشموس لا تغرب.

هي ذي أمينة تحف بي. سمية تجري فوق الرصيف. تقترب حيناً ثم تبتعد عنا. تسير بصمت. من بعيد تلوح مدن غربية. مدن فيها ناس يحملون وجوهاً

جديدة أود أن أعرفها، لغات أتعنى لو أتعلمها. حضارات، علائق وقم مختلفة، وكب لم أقرأها. بعنف كنت أهدف للخروج من هذه المدينة العتيقة، لأن أجري صوب تلك المدن الغريبة.

اكتشفت سمية ثغرة في سياج الحديقة فهرولت نخبرنا. ودخلنا.

كان الناس يبرون رائين بدشة إلى هذه الأسرة المستلقية بلا مبالاة فوق العشب.

وقالت سمية: الناس لماذا يحدقون فينا وكأننا لصوص؟

وسألنا: أنت ما رأيك؟

وأجابت مباشرة: الناس سيئون.

قلت دهشاً: سيئون! لماذا؟

- لأنهم يشكون بالاحوة.

وقلت: ولكن. هل نحن أخوة؟

قالت باستغراب: نحن أصدقاء وأهل فلماذا يأكلوننا بعيونهم؟

ضحكنا معاً: عيونهم جائعة. ساعيم سمية!

وخرجنا.

اتجهنا نحو البيت. صوب جامع أيوب السرحان حيث بقم طفوسه مع الخمر والزمن، منتظراً عودة المرأة التي أخلصت له كل سنوات ما قبل القطة.

[]

عندما احتوتنا الغرفة في تلك الليلة، كانت حبيبة رابعة، لكنها كانت خائفة من الشكليات. وكنت مصمماً على إيقافها. وفي تلك الليلة حككت لي بأنها محبوبة على رجل لا هم له إلا الخمرة والدواور خارج البيت. رجل منحرف يعاشر سفلة الناس في الأماكن المشبوهة والخارات. بيدد أمواله على ملذاته ولا يعنيه بيته. وأذكر أنني قلت لها أنت إنسانة ولك حياتك لا تبالي به، عيشي عمرك كما ينبغي لامرأة جميلة مثلك. حدث ذلك في الشتاء، والمطر ير على النوافذ والريح تحفق بالستائر الحمر فتواجهها على نحو عذب مثير. وكانت قبالي، وجهها متألّق بفرح جديد، وجسدها مستلق داخل ثوب النوم المشجر. جسد خيل إلي بعد أن روت

ويكون اقتال ويكون جوع وجور وقلة دين وأسأوت مسموماً. أنظر إلى هذه الأراضي كلها كانت للأسرة. باعوها واشتروا بأنماها خمرًا ونساء وزندقة بعد أن هاجروا وسكنوا المدن. وفي معظم الليالي كانت روحه تحوم فوق هذه السهول. وقبل الفجر يأتيني بعامة البياض ووجهه الحزين. كنت أرى السمّ واقفاً تحت جلد وجهه.

لم يكن يحدثني. كان يقف فوق رأسي كشاهدة قبر وأنا أرتجف. سمموه يسرقوا الأرض. اكتفى بلعنهم وهو يخرج من منازلهم. في الطعام وضعوا السمّ ولما أحس بسرياته عبر دمه صاح بخادمه: هيا يا شذود. هيا. على الرف يوجد دواء داخل زجاجة خضراء تأتي به وتعود كالبرق. ما عاد بإمكانني أن أسير. خذ الزرقا يا شذود وسابق الريح. وقال شذود: ما الأمر يا سيدي؟ وقال جلدك لخادمه: السمّ يا شذود. هيا. الكلاب سمومي.

وانطلق الفتى يخترق الريح. ودّ لويطوي الأرض. وهو يروي كان حزناً. قال بعد صمت: مات جلدك هناك بين الأعشاب. عندما عاد شذود رآه وفي فمه حفنة عشب وتراب.

كانت له رؤى القديسين. لكنها كانت قديمة ومشوّشة. كان يتحدث وهو بين النوم واليقظة عن عوالم غريبة كأنما يخاطب أرواحاً. يحكي في صمت الليالي تحت ضوء القمر عن أزمنة غابت. الخير والشر. الحلال والحرام. الكتب السرية وتبوءات المستقبل. كان يقول بأن قطع الأصابع الخمس تعني شيئاً آخر غير الأصابع. فالأصابع تشير إلى الوقت، وقطع الوقت يشير إلى الغياب، وأول أصبع قطعت هي رأس الحسين في كربلاء، والثانية تشير إلى الكتب التي رُميت في نهر دجلة. عندما تنمو وتكبر اقرأ أبانواس وابن عربي وابن الفارض وابن سيرين. وسألته عن ابن سيرين فقال: عالم جليل يفسر الأحلام بغير ما تظهر في الرؤيا.

إن ذلك ليبدو الآن مثل ضبابية. أحاول استعادته فليزّل. محض طيوف تشبه طيوراً لا تُعرف أسماؤها. كان يهجس عن رجل غريب يخرج من عين الشمس ومعه رجال قلائل. رجل لم تعرف الدنيا مثله. عندما يأتي يصيح بالقوم صيحة يسمعها أهل الأرض والسماء. يكون ختم اللغة وسيف الله. ذلك الرجل سيعيد الحق إلى نصابه. يجمع الشتات ويكون له في الأرض دوي. يمتطي فرساً بياضاً

حكايتها المؤسبة مع زوجها، انه قد مضى عليه دهر من الاغفاء ولم يلمس. وقلت بعد أن شربت القهوة: أمانة أنت امرأة فاتنة ومظلومة. وابتسمت بخفر خافضة بصرها نحو الأرض. في الليلة ذاتها عاقتها. في البدء مانعت كأني امرأة شرعية، ثم استسلمت بكل الريح المحتبسة من قرون داخل جسدها. حدث ذلك وأنا أودعها خارجاً. ضغطت على أصابعها فضغطت هي بدورها. تراجعت عن الخروج. بهدوء سحبت كفي. وضعتها على كتفها ثم ما لبثت أن انزلت نحو ظهرها. كنا نرتعش وقد صار جسمها الآن بين ذراعي، وكنت أحس ارتعاد جسدها الطري الأملس تحت أناملي، وإذا دخل وجهي تحت دغل شعرها المناسب، والتصق خداننا، هبت رالحتنا الأمومية الهيجية.

على الخوان قلبنا بشغف وعذوبة، على شفتينا وعنفها وخلف أذنها. وفي تلك اللحظة بدت مسحورة، ملتهبة كحجارة الصيف. كانت تتنفس وتئن بكل جسدها الذي هُجر. وفيها بعد سحّت كما ينبغي لامرأة عاصفة تعرف العشق لأول مرة.

[]

هكذا دمشق المدينة التي لا تنسى. المدينة التي نحن إليها بعد أن تغادرها بزمين قصير. امرأة عذبة حارة لا تعوض كما عبر سامر البدوي، كاهن الجنس: تسحيك يوماً إلى مخدعها، تعطيك ما ترغب، وفيها بعد تصبح ممسوساً. ثم لا تلبث هي أن تبدأ بالانسلاخ والهجر بحثاً عن فريسة جديدة فنية.

ولم يكشف أحد السر.

وقبل مملكة أيوب السرحان تقوّضت ممالك.

وقالوا أنها ملعونة أبدي الدهر.

وقالوا أن دم هابيل يصرخ.

وان أرواح الأنبياء الذين هلكوا في مغاور الجوع تهمّ في ظلال قاسيون مطالبة بالثأر.

وقال ذلك الفلاح الحكيم: انهلعة. رأيت في الحلم أصابع يدي اليمنى الخمس وقد قطعت بفأس، قطعتني يد أخي، وسألته لماذا فعلت ذلك؟ فقال تنفيذاً لوصية الجد الأكبر. قبل أن يموت لعننا وتنبأ لنا بأيام سود ستعاق فيها الأراضي

وعليه جبة خضراء. يعبر الصحراء شاهراً سيفه والقوم وراءه. سيفه يقتل الأعور الدجال وفي الجبال والسهول ينشت شمل اليهود. يختبئون وراء الصخور والأشجار فتصبح كل صخرة وكل حجر: يا عبد الله. هذا عبراني ورائي. ذلك يكون نهاية عصر التسمم وبداية عصر مضي نعم المسرة والسلام أرض الأنبياء إلى الأبد.

□

صرح السيناتور ميناحيم بيغن (للتبويرك تايمز): «لم يعد هناك ما يسمى بفلسطين بعد الآن. فأرض إسرائيل التاريخية لا تتسع إلا لشعب واحد هو شعبا اليهودي، وعلى هذا الشعب أن يعيد مجده القديم بقوة جيش الدفاع الإسرائيلي وعلم النفس.

- ماذا تعني بعبارة علم النفس؟

- الفهم السيكولوجي التاريخي للعرب. أعني النشاط الفعّال لشعب حيوي خلاق مقابل الكسل والضيوضاء اللامجدية لشعب مؤهل للانقراض.

- هل تعتقد أن بالإمكان إزاحة ملايين العرب من أرض جذور حضارتهم فيها راسخة وقديمة؟

- إنني أسألك بدوري كيف أرحّم الهنود الحمر؟».

وفي مساء ما تطور الحوار بيني وبين ديانا حتى شارف حدود البوح. وفي ذلك المساء أعلنت رفضها الحاسم لأي تماس مادي بيننا. وأحسنت بأن ذلك الرفض لم يكن نابعاً من الضمير الأخلاقي المستكن في نفسها. فقد بدت الخيانة غير مجدية وهي ستؤدي إلى الكثير من الغم والتأنيب الاجتماعي. وإذا حاولت مهاجمتها بأن العلاقة الكاذبة بين اثنين تبدو أكثر خسة من الخيانة الحسية، اكتفت بالقول: مسرور إنسان طيب القلب ويقدم لي ما أريد.

ولما تحدثنا عن الحب، قالت بازدرء أنها تمقت حتى الموت تلك العملية التي وصفتها بالقدارة. ثم أضافت بأنها نوع من الافتراض الحيواني. وأوضحت لها أن في الأمر خطأ، وإننا في الشرق ربما كنا نمارسها بشكل وحشي. لكنها في أساسها ليست هكذا. ونحن لما نصل بعد إلى فهم الاتصال الجسدي كطقس طبيعي يشعر

به الإنسان ويقوم به كما يقوم بالاستحمام أو الطعام أو شرب الماء بعد ظمأ، وأنه يعطي إحساساً مغبطاً بالراحة والصحة.

وسألتها: أنت مثلاً امرأة كل ما فيك ينضج بالاشتهاء والعذوبة فأني صير أن يشتهي مسرور النوم معك فتواصلين معه بمنتهى العفوية؟

وقالت بأن مسرور شديد الهياج وهو يطلب ذلك دائماً وأنا أشعر بألم حقيقي إذا عجز عن بلوغ حالته.

- لكن من الصعب على كل رجل أن يفهم حالة القصام هذه. يريد من المرأة أن تكون امرأة بالمعنى التام للكلمة.

وصمتت. وضعت راحة كفها على خدها، وبدت في سهوم وضيق.

- هل تشعرين بمرض ما. قولي ديانا. عليك ألا تعجلني مني؟

- لن تقول له؟

- لا.

- أنا أنتشي بالمداغة فقط. عندما يقترب ذلك الشيء اللعين أشعر بالاختناق، أرى مسرور وقد تحول من إنسان طبيعي إلى حيوان. تنتفخ عروقه وهو يهلث. يهجم علي كأنما يريد افتراسي. في رأسي تدور الدنيا فيتجسد أمامي وحشاً بأنياب وأظافر. ويبدأ ألم لا حدود له يمزق جسدي. ذلك لا يطلق. لا يطلق!

وتبتدى في حالة غريبة ماثلة لحالة الفعل ذاتها، فأحس بأنها أفصححت أكثر فأشعل لها لفاقة. ومرة أخرى يرتعني الصمت. على الجدار أرى الصليب فوق خزانة الكتب يهتز داخل غشاوة عيني، وتبدو المرأة العالية في الشفق ممددة على الصخور في حالة نزع.

أحضر كأساً من العرق أمزجه بالماء وبهدهو أحتسي. يومها كانت غارقة في الكنية مستسلمة في ذهول خمنت أنه نوع من التأنيب. بعد لحظات تحدثنا عن الماضي والأهل الذين غادرتهم، ومدنيتنا والبحر. وبشغف خاص راحت تسرد ذكرياتها عن الطفولة والجيران وأبويها والغربة.

حكايها عادية تشبه شروق الشمس وغروبها. وأيام متشابهة بين بشر متشابهين.

كلمات وحركات لها بدء ولها نهاية وبين هذه الحكايا كانت تسرح. زواج. طلاق. اعتراضات طلبية مراهمين يرمون كلمات غزل. وصديقات يثرثن عن الفساتين والأحذية ويبرزن من المراهمين. ومع الزمن يترام هذا النسيج كما تترام الطحالب فوق الصخور البحرية.

ذلك كان وجهاً آخر من عالم ديانا التي اقتلعت يوماً عن شاطئ البحر من بين أسرتها لتكون زوجة وفيه لهذا الفلسطيني النائه.

□

في جميع الأمكنة كان الشرق بشطريه الرومانسي والواقعي، شبيه سراب في صحراء شاسعة. يستغرق العمر ولا يُطال. والجليل المبتثق يحاول أن يكون، فيتنجزاً في بئسه عن الأمان والسرية. عن امرأة هي الأرض حيناً وحيناً آخر المطر أو العقيدة. وإذ يتصدع يعود مقسوراً، فيمضي ما تبقى من العمر كذبة ضالعة في سفر الزمن الخادع.

- كله كذب في كذب.

وأقول لمنى: لا. منى. لا. شيء آخر. ربما كان البحث عن الهوية المفقودة في مطاوي التاريخ.

فقول: أبداً تكذبون. كلماتكم. سلوككم. ثيابكم. جلودكم. ماضيكم مستقبلكم. في دمائكم يجري الكذب. تأكلون الكذب وتشربون الكذب. وتنامون في عجاج كاذبة.

أنتم: إنما نحن أطفال يا عزيزتي متى نبحت عن أب!

الماضي يختلط بالحاضر، كذلك الكذب بالصدق وتوهم أننا نجيب عن الانتحار إذ تفلت منا الحياة الحقيقية وتبتدع كرمل البحار.

ويجهد. راني لأن يجبا حياة داخلية مثارة، مطلقها بلا حدود مع لبناء في إطار خاص مرتعش بالخلق.

- الراححة هي ما نغيبه. هناك يكمن السر الأعظم.

ثم يقول: ولكن من منا يستطيع أن يصل منطقة الروائع!

وبعد منتصف الليل تعبق دمشق تحت المطر والسكر والخلو. تلمع الأشجار

تلك الأرصفة والجدران. للصمت صوت وللذكورات. لحفيف النخل إيقاع من الشجو. إيقاع من الألم. دمشق.

تسمع خطو الزمن داخلك فيشف العالم. يصحو. تقول الريح: أنت كتيب. وحيد كحجر في صحراء. وفي ليل عام يصاعد أنين امرأة. حفيف ثوب من الدمقس على سرير منفرد. ناي بعيد، بعيد، يتأوج مقيلاً من برار مهجورة. أصوات حاملة كل يؤس العالم. كل قهر الزمن الطاعن بلا شفقة. صوت سامر البدوي وهو يشق اهباب الشرق علّه يكشف الهوية التي ضاعت. صوت وائل الأسدي الموهل في مرابا النار عبر أجساد البشر الذين تحلقوا عن أبيه في معارك العرب الخاسرة.

- بماذا تفكر؟

- بالجئس مدخلاً صحيحاً لمعظم بلاوانا.

- أليس هذا مبالغة؟ والجوع؟ والحريّة؟

- ما أعنيه عن الجنس مطهر. يبدو الإنسان هنا مصاباً بأصفر ما في حياته، ليس حرّاً لأنه غير موجود أساساً.

- أعتقد جاداً أنني مريضة؟

- إسمعي ديانا. سأقول لك شيئاً لا أدري مدى إدراكك له. أنا أعتقد أنك مصابة بالثشت الحسي. في جسدك مناطق منسية لم تتجّج. مناطق هجرت عبر الزمن فعجزت عن استقطاب الأنوثة بحيث ظل المركز الرئيسي مهملاً. التثيت حدث في المناطق الثانوية ولهذا تتأثرين بالمداغة في هذه الأماكن.

في البدء دهشت. ثم افترت هازئة. سألتني: إيه. ثم ماذا أيها المحلل العظيم؟ قلت: ولهذا أنت لست سوية. أنا جاد فيما أقول.

قالت ساخرة: يبدو لي أنك أنت المصاب. أتعرف بماذا؟

- بماذا؟

- بمرض اسمه فرويد.

ابتسمت: لكن فرويد كان طبيباً.

- بل كان مهووساً وقد أورثكم هوسه المرضي.

لست أدري كيف اتبع في المخيلة التاريخ الشخصي منتهجاً بالتاريخ العام.

ترامى ذلك ككهف في وادٍ عميق راحته زخعة، مسكونة بالعظام الحيوانية والإنسانية. وسوست النفس: هل لنا شمس؟ هل لنا مشفى؟

فجأة تزعج سحر ديانا. من جسدها فاح نثن حضاري حملته الريح من مستشفى كبير يمتد من بدء الشرق حتى نهايته. بدا لي غاصاً بأناس يرتدون ثياباً صفراء بفوح منها الكلوروفورم، يتحركون بطريقة تثير الغثيان، وتثير الشفقة. وطراً على جميع النساء تحول جديد. اكتست فيه أجسادهن شعراً كشعر الماعز والقردة، فتبدلين بقرون كبيرة وأظافر تفوح منها رائحة حموضة، ورجن يرقصن رقصات همجية مفعمة بالتقرز والسخف، وحوطن جميع الرجال تنتحب دونما صوت مسموع.

كان قلبي منقبضاً الآن. حزناً كما ينبغي، عاجزاً عن فعل أي شيء حتى الحركة.

الفصل الثالث

مستمرة هذه الهجرة ، والحزن مستمر ، وتاريخ العرب ينجلي شيئا فشيئا عابرا
عصور الانحطاط التي تجهد هي الأخرى لتستمر ، والجبل المبتق آكلا ذاته يود أن
يصرخ : لا !

في الطريق يقع . على الشجرة واصله الماضي بالحاضر ، وهذا الوقوع ربما كان
إنباء بوطن آخر . بخلاص ربما . لكن هذا المطعون يرفض أن يكون الجسر .
وتسأل : كيف بينى وطن حقيقي اذا كانت منى مفصولة عنك ؟ وتقول ديانا
بلا مبالاة : مات زمن الحب . وما فائدة الاشياء كل الاشياء عندما يموت الحب
أو ينحرف ، وما مسوغ وجود الانسان ؟
واذ تسألها تقول : هكذا العالم !

غير أن راني القادم من بيروت لا يعتقد ذلك . مقيم بالتوقعات العذبة
والخصب المستقبل ، يزرعه في أرض لينا العذراء . أرض الاكتشافات والذرات
المستعصبة على النظريات ، ومرقا طفولته المغتصبة .

عائد ، وكله يقين من تجربته والفتوحات التي لم يصلها بشري .

يفرح بسألني عن منى وأمنية والليالي التي مضت . وعن دمشق .

فأجيب : منى سترحل ، وأمنية تحلم بالزواج مني ، وأنا تائه في النمل اعتق
الحزن والمرارة والفوضى والبحث ، ولا نقطة . ودمشق هي دمشق . نثرثر عن بيروت
ودمشق . عن الناس والاحزاب والشعراء والافلام . عن الموت والابداع والقضايا
الصغيرة .

نسكرا احتفاء بلقائنا الجديد ، ويبدأ الدوار داخل جسد المدينة وتشيل الحكايا
الحياة في السريرة . الحكايا التي اختزنها الغياب .

- من كل الآخرين أنت ولينا . أنا وحيد وضعيف لم أبع يوما الا لك . آه .

عندما يخون احداً الآخر يجب أن يتحرر. ليس سهلاً موت الاء. قل لي: هل تحب أمك؟

- لا !

- كانت نخون؟

- كانت غيبية وحماقة تكره أبي. كان يقول لي: من العار أن تكون أمك !

- كان أبوك قويا وسليماً؟

وأوصى أن نعم فينهذ مناسياً: اتعرف معنى الا يكون الاب سليماً؟

-

- أحاول أن أعوض عنه فأشعر بالفشل. لينا تستطيع اكمال نقصي. لينا الاب والام والصديق. آه أنت لا تعرفها.

ويتابع: هذا يحزن إلى أبعد حد. يا لينا الحبيبة كم أنت عظيمة وخالقة. تصور انها تعتقد أنني لا أحبها كما تحبني.

اعذرني اذ أقول لك انني أعبد التراب الذي تدوسه. أرجو ان تفهمني. ارجو ذلك بكل جوارحي.

على جذع سنسرخت تستريح جبهته، وفوق أتلألهما يبرغ وجهه ويبدأ يندندن حنيناً فيروزياً، يمتد عبر الليل وجعا غيبياً للمرأة المستوطنة دمه. المرأة التي ماتت بين يديه ذات مساء بهدوء ومحانية.

دمشق الرائعة مستلقية فوقنا ونحننا. صامطة كالبحر.

وفي الذاكرة ترق تجربة سامر البدوي وعشقه القديم لزوجته الحزينة، وعطف ديانا على مسرور العنس، ثم ايوب ومملكته المرقضة: فأتمنى أن احصي رائي من هذا العطب الساري في النسل. اثني عن السفر نحو جزر السراب المسكونة بالقيظ والملل. وأستيقظ غبً غيبوية اخذتني بعد حوار حاد مع منى. فأذكر بانني حدثتها عن الحرية والاختيار والعربي الجديدي الذي يجرق ماضيه الآسن ويتقدم فوق ارض من رماد نحو ما يريد، نحو ما ينبغي أن يكون، وأن فقدان التواصل بيننا يأتي من طرفها هي التي لم تكسر بعد جدار ماضيا وتحرق هشيمه. وأتذكر أيضاً بأنني صارحتها بأن هذه الهوة القائمة بيننا وسُغتها حالتها المرضية التي تبدو مستعصية ومهيبة، وإذا ما استمرت

يجب أن نتفكر، واذ حاولت أن تعيد اسطوانة الاتهام، فاجأني غضب مسدود دفعني الى تحطيم الزجاج وقذف ساعتني اليدوية فوق جدار الغرفة.

من الصالون يأتي نسيجهما. أخرج من الغرفة فأراها مستندة الى الجدار وفي يدها محفظتها. تبدو لي في حالة نعيصة مهانة، أسمع دمعاتها براحة كني فأشعر بسخونة خدنها. اسحبها الى الغرفة وهدوء اجلسها على السرير. الشيء اللعين الذي يطلع الجلد كلما انفردت بأمرأة، يموت في تلك اللحظة. تنزاح المرأة ويولد حب خاص يشبه نمو العشب تحت الثلج. حب ملون عميق ودافئ. أضفها الى صدري، ويتكى رأسها فوق قلبي الذي يخفق، فتدهمني رغبة شئ ضلعي واحتوائها.

- كنت تبكين اذن؟ سامحيني.

ورويدا يتخامد.. نحيبها، يبدو وجهها وشفتاها بعد البكاء قانين. اقبلها فوق خدنها فبدا الطمأنينة بالصعود من قاع البحيرة التي اعتكرت، وعلى وجهها لارجواني يرسم صفاء صامت.

- نحن نحب في عالم مات الحب فيه. كفكني هذه العبرات ! ويمضي زمن قصير. لكنه مديد في بحر النفس وفي وحدتنا المفصولة عن حركة العالم. الطفلة التي اغتالها الزمن قبل أن تنمو، تجلس قربك، هادئة وعمرورة. وانت رجل نصف صادق ونصف محادع تمثل طراز عصرك. نحاول أن نخرج عليه فتعثر بملايين شباك العناكب وقد نُصبت على الدروب التي تغرقها. دروب مفضخة قبيل سقوطك من الرحم المنجس. وانت تريد الكفاية والصدق المطلق والحرية، واذ تفتقدوا يرن الكذب النسبي فتتراجع عن الانتحار، وتبدأ تنسج حلم الغابات والبراري والعودة الى عري الاجداد القدامى.

- انما نحن سيئون بالاكره. اغفر لي. منى. ربما مثلت دوراً لا أريده ولا أصلح له.

وتنهز رأسها: ما فائدة كل هذا العذاب. نهلك أنفسنا بالالم والعالم لا يبالي. حالة حرب تقني نفسها بنفسها. وتطلب لافاق تم تتكى على الواسدة. تدخن وتعدق في السقف.

واسألها: هل تعتقدين أن الفطرة سيئة الى هذه الدرجة؟

تفت الدخان ببطء: لا أدري. ما عدت أمايز الاشياء.

أحدثها عن النقاء في عالم يختنق بالسمم، وأنتي بدأت أشعر بالانتيار وعدم القدرة على المتابعة، وأن الانسحاب رغم لا جدواه يظل الحل الأبعد إلى النفس: قد يعطي بعض الطمأنينة والعزاء لكنه مغفرة فردية مردودها سلبي. وتنفض عز انكسارها. تطفي اللقافة في المنفضة: لو قلت لك انني احبك ماذا يعني هذا؟ نحن اثنان فقط والناس هنا حيوانات يحكم الحاجة والعلاق القائمة. وانت وانا لسنا انبياء أو آلهة لنفسي كل شيء وتبدأ من جديد بصنع ذرية غير ملوثة، وحكاية نوح اسطورة قديمة، ولو افترضنا انها حدثت فما الذي حدث بعد الطوفان؟ ما تفكر به لا يبدو وهم شاعر بائس. اننا محكومون داخل مصيدة قدرة وهذا التسمم يحتاج الجنس البشري منذ الخليقة.

على الارض كانت الشطايا، وخارج القرعة في مكان ما من المدينة، كان ايوب المحطم، وكانت هناك المرأة التي دُهِمت ولما تبلغ سن الرشد، كانت هي الاخرى محطمة، وكانت منى صغيرة عندما تهم رأس زوجها بسكين اخيه الجشع القاسي الراغب جسد منى العصفوري، وعلى بعد من هؤلاء يستلقي مسرور المطارد منذ عام ١٩٤٨ وقد أرسى سفينة فلسطين المهاجرة على شواطئ ديانا: الهة حبه التي صادته وهو منهك.

□

ارغب ان تكوني لي في جميع الثواني والدقائق والساعات والايام والاشهر والسنين. لكن لحظة ملل ستمر يوما بنا واذا ذلك ما فائدة كل الحب. سأتحول الى ما صار اليه سامر البدوي سدين الخمر والنساء الاخريات والمهجرات الليلية. انا انسان ملول يا عزيزتي أمينة.

وجه راني يشرق شغافا بالحب الذي لم يتحطم بعد: لينا تختلف. شيء آخر باصديقي. في كل ثانية تنفتح عن عوالم جديدة، لينا كون خاص. أتدرك معنى أن تكون امرأة كونا؟

- لا. عزيزي راني، فهني محدود في مثل هذه الامور. هات حدثنا عن الاكوان المولفة.

- أنت مصاب لا بد كأي.

- ربما. لكن انت عاشق بائس على ما يبدو. بائس من نوع عظيم. ويزنخ فوق ضفة الشارع، مأخوذا بكشوفات لينا. وفجأة يلتفت نحو:

يشير باصبعه: أنت ماذا تعرف عن الناس المطعنين. عن الناس المهزومين في الاحرام؟ لينا مجد شخصي وتاريخي بدونه أنا ذرة في هبوب الريح. سكوت موني. المرأة وطن خاص. تاريخ مفقود. سلام في أزمنة الحرب. بحر وضوء في هذا الظلام الروحي الممزق لقلب الانسان الوحيد. وبصوت برج الشوارع والجدران والصمت يصبح: أيها المتروحدون كذئاب في الصحارى. أيها المهجورون والفاشلون. يا قوانين الزمن العلمية هأنذا أبصق في وجوهكم جميعا. أين انت يا سلام العالم الروسي. أين أنت أيها الموسيقى. اعزني. المجد للشعر في الارض و في الناس الكآبة والموت للعقل.

ص ت كالقبر. فراغ. ألم. وليل أصم. ثم راني الذي ركه جني.

حتى النفس الانسانية في ختام هياجها تصير الى ورق ذابل. الزمن وحده يبد المخلوقات يثمر على طبيعة الاشياء، لا يولد ولا ينمو ولا يعيش ولا يتعاد لا يمل ولا يموت.

- أنا اعرف منك بالمرأة. ويستطرد سامر ملك المدينة بلا منازع: المرأة الدمشقية صبوة مغلقة. يبيض يشبه الكفن، فصوص حان خجول. ساء عذراء ترغب ان تحويك لكنها وهي تعانقك تسأل: أين البروكار يا حبيبي؟ كل جزرك واكوئك مسكونة باللعن والضفادع والمقايسة. انتحب حتى يتمزق قلبك. وحتى اذا ما ذهبت الى الحرب فأنت تموت كما الكلب. متى تدرك أن العالم يجري بقوانينه الضاحكة والباكية، القوانين التي تدوسك وتمضي. قوانين المادة كما يقول ماركس. قوانين السلعة. حتى القيم الروحية تخضع في مدينة دمشق لمبادلات الريح والخصارة.

وفي ذلك المساء نتحدثنا عن وائل وحالته. وقال عنه بانه ليس تافها كما ترى. فقط هو انسان كتيب يريد ان يدفع عن نفسه هذه الكآبة التي تهرتها. وثرثرا عن القصاص والتعويض والطفولة المنتهكة، وقال: انت تبحث في نظرية التفويض وتريد اثباتها وهذه قضية معقدة وضد الوجود البشري أصلا. اما مع الانسان بخيره وشره. وانتهت الى التهمة فقلت: أنا لا أبحت عن شيء. فقط ألاحظ وأضع اشارات بعد استلة؟

- ابدأ. انت تحاكم البشر وانا لست مع الادانة. لماذا يكون الانسان مُداناً في العالم؟

- حلكم تمتسي. الامر انني أود ان افهم الانسان بدوافعه الداخلية المستبطنة وهذا لا يعني الادانة. ما أود قوله هو: لماذا العربي ثابت في حركة التاريخ العامة؟
- ليس ساكتا تماماً إنما متباطئ. والسؤال هو: لماذا يحدو بإيلو في عصور الالكترون والصواريخ والكومبيوتر؟

فوقنا كان القمر. وكانت هناك غيات تطارده. كان الآن مُتَرَعّاً من علله الشخصي. واذ سألت: ولكن لماذا ينشد نحو السماء كثيراً؟
قال: مأساة العربي انه يبحث عن الحالة التوفيقية بين الغم والارض. واستطرد: في عصور الاجداد كان هناك اطمئنان. الله كان اماناً ومثكلاً. الجليل المعاصر مزمع برصاص التاريخ وضربات التغيرات الجديدة. السؤال الاساسي هو: كيف نقيم قيماً معاصرة مطهرة من التحريجات الدينية المقرضة مبنية على اساس دوافع الانسان الطبيعية؟

كثيراً ربما ينبغي التفكير بديانا: الهة الجنس المنحوتة من رغبات مسرور وتوقه الخائب. والقائمة في ساحته كحجر بارد. لقد قال عنها يوماً: ان الذي هوى من رحم أمها بعشقها فكيف بي أنا؟

ولكن: أين تكن المواقف الحسية لهذا الجسد الرخامي العظيم الميت؟
ولو سألت مسرور لأجابه: وأسفاه!

حزين كما هي حزينه فلسطين المحتاجة الآن بعد ان استولت الغزاة من جميع اصقاع العالم: كيف نحررها مسرور؟

- انت تعرف جغرافيتها؟

- تمزقنا بين الجغرافيا والتاريخ.

وفي الرأس تشيل الاصوات. قديمها وحديثها. الدينون والاصلاحيون والبرجوازيون والخونة. ثم الدورون المعاصرون. اصوات تمزق الوتر نفسه مع بعض التلويحات المثيرة. وتر شارف الانحما والقطع من كثرة ما ضرته الأنامل.

- ما رأيك مني؟

- كذبة وجبناء. عشاق سلطة وانتهازيون.

- مسرور. ألاستطيع ان تفعل شيئاً؟

يتمد على الاركة ويغمض جفنيه. هكذا يبدو الجواب المغمس في لحظة الصمت.

قربي ديانا ربة الجسد المختل. ساقاها المرمرتان تتأرجحان، ووجهها اسيل، وعيناها ليل بلا اسرار. هادئة، وحيدة، مغتصبة. قليلاً وعذراً يفتح جفنيه كأنما يتوجس خيانة، فيرى أرض الموت والخيانة والغزو. أرض المسيح والتي أسرى إليها محمد. المرأة التي خانت بعد ان غادرها زوجها الشرعي تاركة جسدها للنوء والحزن. الترقات متواترة مع مسرور اكتشفت فيه رجلاً مسلماً يغار من الريح اذا ما هبت على ديانا، ينازع ان يكون معاصراً كيلا يتهم بانه متعصب عتيق.
- سأذهب. بامكانك ان تبقى مع ديانا. وهو يهم بالخروج من الغرفة يلتفت: عزيزي لن يضايقك ذهابي هاه. سأعود.

يرسل اليها قبلة في الفراغ ويغمض. في فضاء الغرفة ينسحب احتقار دفين. تبدو ديانا تمثالاً من جبس ليس كثيباً ولا فرحاً. وثن صامت. من قاع اللاشعور ينفض احساس غريب. توقع ينوس بين الشك والثقة. يتغلب هيبس المرادة. اختبار آخر.

أراوغ فأنتظر بالخروج. تصر أن أبقى.

يصير المستشفى غرفة موشاة بسناثر من حرير اخضر. منورة بضوء خافت ورائحة امرأة خرجت للتلو من حمام. في الزاوية سرير مغطى ببياض مغسول وممطر. وفي الخارج مطر. الدنيا ظلال وروائع جسد يتعري. جسدان في لحظة النداء الوحشي العذب. والجسد موجة مندفة نحو شاطئ حار. الدنيا بحر حريري في غسق حريري. رجل وامرأة يستلقيان فوق جسد البحر. إنه العربي في المظهر والشمس على كتف المنيب. ألوان زرقاء وبفسجية وخضراء. ألوان حمرء معسولة بالرغبة والشوق السري القديم تنهد فوق السرير، فوق حرير البحر. والغروب قوس قرح. الالوان تمتزج بحركات تنبه سقوط ملايين الشهب داخل ليل أخضر.

الرجل يدخل كهف البحر تدخل هي فيه. جسدان من توق حريري لامع وصاف. الجسد في البحر والبحر في الجسد. يتلاصقان. ينحلان. موج من ألم. موج من عذوبة. يصيران الموج. يرتفعان معه ويهبطان. يتقدمان. يتراجعان. الحرير في الحرير. الاشياء خضراء: البحر والسرير والسناثر. الشمس والليل. ثم الرغبة

والمطر، كذلك البحر والجسد. الجسد والبحر. بحر ممتد أخضر لا نهائي. بحر
حريري نغوصان فيه. تلاشيان. سكينه. البحر مقبرة.
وأطلب كأساً.
تقدمه.
أحتسي بطريقة وحشية.
عن امور نافهة تثرثر.
وعن امور مباشرة أحدث.
تنحرف نحو امور أخرى.
أدخل بوابة الأثل.
تدرك حالتي.
أقول: الخمرة هي المشفى.
قليلاً تشرب.
أشرب. الشيرازي يقول: اعطني الكأس في مرآته نبصر احبابنا الغائبين.
تبتسم وهي تصب الخمرة.
أفكر بأخذها.
تنحرك في البيت.
تثيرني الخمرة فأشفي ريلة ساقيا.
تعود.
احدق فيها.
تضع ساقاً فوق أخرى.
- يا الهي أبة امرأة أنت!
بغرور تبتسم.
- المرأة كهف الرجل وبخيره.
تلتمع عيناها.
- هل قال لك أحد أنك امرأة كاملة؟

تغير ساقيا بمركبة غريزية.
أشرب.
بابتسامة شهوية ترنو إليّ.
- ومرغوبة من الرجال.
وجنتاها تتألقان.
أذكر. آه. البحر.
قلبا يخفق رعباً من الخيانة الحسية، ويعود البحر مولداً موجات أخرى.
يخبو العالم وتتضوأ غرفتها، أنصورها تنحرك وقد استيقظ سبات جسدها. وتدق في
جسدنا طولاً أفريقية، سريعة الايقاع، متوحشة.
- تأني متأخراً مخموراً؟
- حبيتي.
- لا تقبل إلا ليلاً وتريد دائماً ذلك الشيء اللعين.
- جسدك كعبتي.
- ولكنني خائفة ان يفاجئنا يوماً.
- مفاجأته خمرته.
وتأوه تحت ضغط جسدي.
ظلام. غرفة معزولة عن البيت والطفلة ترسو في بحر أحلامها. في الظلام
نلتحم.
امرأة كاملة محرومة. ورجل مخمور بلا عزاء.
بحار. بحار. والدنيا غسق.

□

كل الأوطان منوية. يقول راني: مرحلة تاريخية. الكل ضعفاء. ويضيف
الآخر: وجينا. امرأة بورجوازية نافهة تحضر السهرة فتنزق: أنا أكره الفلاحين:
أجلاف ووسخون!
أقول: أنت من سلالة أيوب. واضيف بعد الكأس الخامسة: لكنني أنبتك

بأنها سلالة في طور الانقراض. ما عاد لها زمن. بالناسبة هل تعرفين السيد أيوب السرحان؟

تتور بحقد: أوه. أوه. يا للجلال!

أقول: قد تكون رعاة وأجلافاً لكننا لسنا من سلالة التار.

— لماذا قدمتم من قراكم؟

— لافتداء مدينتك المفتوحة للبيع والشراء والمجوسيس.

— حرّروا فلسطين أولاً.

— ولكن من الذي قال لك أن التحرير لا يمر فيك يا عزيزتي؟

ينعقد غضب يتلوه صمت. كراهية تطوف فوق المرأة المشككة على الاختناق.

تتحرك بدوية سامر القدبة: أنت جميلة ربما، لكن اسمحي لي أن أقول لك انك تافهة بما فيه الكفاية.

ويصمت راني. على الجدار تتصلب عيناه ممدقتين الى سر الضعف البشري.

يقول أحد الحضور وهو يرفع كأسه: أيها السادة نخب النساء البرجوازيات المتدفقات في أواخر الليل.

بينما ترفع الكؤوس: تغص المرأة. تشرق دمعتهما. تبدو محاصرة في حلقة جيل جديد يحتقرها ويشتمها.

ومن غيابة الذاكرة تنبثق فلسطين كالريح المدمى، ثم يأتي معها العربي المشارف انقراضه، والعربي الواصل الأصيل. هنا في بيت مسرور يتوهج الصراع مكشوفاً. انها يصطدمان على نحو فاجعي. ديانا صامنة تكفر ما عاد فيه غير العظام، وفي الداخل ثارات. قهر قديم استكن في النفوس يشب الآن.

مرة أخرى تأتيني فكرة تجتاحني كريح صرير. أود أن أهر راني: لماذا تريد أن تنجو؟ دعنا هنا نفثش عن أوراقنا التي ضاعت في شقوق الأرض. يدوي صوت مزمن لا تعرف بدايته. يشهد المرأة المخذولة وهي تنشج ماضيها المحطم. ماض خلق يقعي في بيت أيوب السرحان، بعد أن خاتنه زوجته واستلبه الفلاحون أرضه، فأحس بتاريخه القديم وقد تمرغ وانتهك. تتمم المرأة المخذولة: أنا غريبة في هذا العالم!

بؤس بورجوازي تقول ذلك، فريد سامر البدوي: أي منا على استعداد

لإيلاس غربتك يا سيدتي. نحن هنا بارادة النساء المتوحدات وأحد ما لا يسمعه أن يرفض لجسده مطلباً.

باحقار تقول: متوحش قدر.

— هذا إطاره.

— أنا أمقتك.

— وهذا تعبير معكوس عن الرغبة.

— النساء مخدوعات بك.

— أرجو أن أكون عند حسن ظن جسده العظيم.

مسرور صامت كأهله أخذته غاشية، ومُخرج. كل شيء يتبدد. يأخذ حالة من الحلم والذكرى. تصوير الأشياء غيباً أبيض. قوس قزح أو موسيقى. وما كان ليس ما يكون. مجرد حكايا عابرة في ليالي النفس، والنفس المبدعة وحدها تحتفظ بالذكرى والرائحة والموسيقى.

ذلك ما يبقى من كل التاريخ الذاتي والانساني، وما عاده قبض الريح. وإذ تشق منى عباب البحر والريح، يقبل الفرح. تقول المسرة: هوذا الفيض الشمسي ينير غم العصور.

— أحبك بطريقة مختلفة وأنت لا تدرين.

نسم تقول شيئاً عن الذين أحبوا وخافوا. وعن البذار الخصب في أراضي العقم. وتعكس لها عن الحنان، عن المرأة التي تدفئ الروح المعذبة وتغني، فتقول: هذه عصور الأحذية والموسلين يا صديقي الشاعر.

— بل أزمة التجزئة والانقراض.

يحنّ الدونكيشوت: العربي سيد القدر. العربي له تاريخ ومن له تاريخ لا يموت.

منى تروي حكاية دودة القز التي تغزل الحرير ثم تموت داخل الشرقة: العربي ماذا يغزل في هذه الأيام؟

ومع راني يأخذ الجدل طابعه الدرامي: نحن الآن في عصر الضحايا الفرديين. من هذا المجموع المأخوذ باليومى والقانوني ينهض الذي يقول: لا. هذا الذي يرى نسوغ الأشياء جيداً فيصبح باللاً المختار: أن هبوا. ثم يلقي بنفسه قادماً.

- طز. ما الفائدة. المجانية ليس إلا. أنا ضد هذه المجانية العبيثة. التاريخ يتحرك ككل. ويتابع مهتاجاً حقاً: المرحلة التاريخية تستهلك ذاتها. العربي يعبر التيه الرمادي. انه طائر العقاء. لكي تعود الاشياء إلى أصلها الأولي لا بد من تفافم الموت حتى يشعر كل ابن آدم انه هالك وان الخطر يعينه. هذا زمن السكين وإذا لم يتعلمها كل عربي ويمتشي الدم بدل الخمر فتبًى بالانقراض. بغير ذلك لن يخرج الطائر من رماده مرة أخرى. يصمت. يتابع خطوه على الرصيف. خطو رجل مصدع، محرور، لكنه يحزن بطل على حواني الموت والحياة. فجأة يقف تحت شجرة: أتعلم بماذا أفكر الان؟ أحلم بالخراب. أجل الخراب. ان تضرب هذه المدينة بالفتائل فلا يبقى مأوى. ان تتحول جميعاً إلى لاجئين. تلك المرأة التي سهرت معنا ضعيفة. أكر ذلك لكنها مطمئنة. كلنا مطمئنون. البيوت المريحة قائمة والخمر وافر والكلبات والأصدة. الناس تبيع وتشترى. تكذب وتضحك. هؤلاء ماذا يعرفون عن أوقات الحجب والوجع. ان يكون وطن أو لا يكون.

يبدأ قر دمشق بالشحوب. الأرضة تلعب بالفصم والمطر. في الريح الرطبة أسير. رائحة دمشق تهب كما تهب ذكري مقعقة بعدوبة تجتاح القلب والحنايا. دمشق متوحدة مثلي تحت صمت الزمن القاتم، وقلبي العاشق لدمشق يبحر في الروائع والمجرة الليلية.

- «لماذا تموت دمشق العذبة الحقيقية».

لكن بوارد الموت كانت تهب رغم ارادتي من جميع الجهات. تمنيت لو أدفنه عنها. وألاً ترحل مني إلى ما وراء الحجارة والكذب. هي ذي تخرج من ضلعي طفلاً في لون زهر الزنبق. فوق العشب تمشي عبر السهول الخضراء التي هجرتها وأنا طفل. العالم يزدهي بصفاة غير محدود. فوق العشب تجري. مشيكة أنامل يأناملها: هذه مروج طفولتي. تغرغر ضحكة كالفجر. وفوق العشب المبتل نخب: هنا شممت روائح الفصم والخصب واللبل. اصارحها بأنني لا أحب أمانة ولا ديانا ولا ناديا. تحت جناحي اضعها وناسفر بين ظلال العشب والصخور التدية. قرب خيمة نمر: هنا حكى لي كيف تقتل الأفعى ولماذا يهاجر الكروان في الأضياف المقمرة من جزره البعيدة ولماذا ينوح. تلامس أقدامنا طراوة العشب. تسأل بغربة عن هذا العالم المصماء. أقول: هذه بلاد الفقراء المفقطين على حب الأرض والعمل والماء. تمتد بناييع نغمها تتغلغل في التراب والصخر. وحشة وصمت ومدى. هاربان من الكون الملوث: هنا تشرق الشمس من وراء الصخور. تنمو فوق العشب

ثم تمام في البحر: انظري إلى البحر الأخضر إله كوننا الذي لا يغيب. وقلت: هيا تشدي شراً للأرض. وبصوت أخضر تغني. ومن أفق البحر ينبثق وجهه القاسي التعب موجاً بصفاة لاحد له يسألني: إلى أين تبحران؟ ونسبر. أطوقها. أصابعي تداعب خصرها الأخضر. كالرعد يدوي صوته: انتا هالكان!

وأقول: انشدي أيضاً. تطوقني لآفة شعرها الشمسي حول وجهي. الروائع التي أحبا تهب: الأرض والطفولة ومنى. أنجلي الآن ونحل معاً في مجد الأشياء. فوق العشب نرتجي، تنمرغ برائحة هذا الانقراض الممتد. إلى أضماها. ادخلها أيضاً فأسمع صوت الضلوع. أشعر بجراثيمها فوق المروج فأقول: نحن من رحم واحد. غني أيضاً. وتدخل في الموسيقى والروائع المجدية. ها نحن نرتجي حيتين في التراب. نبت. نخضر. ومن ثم زهر والريح تماوجنا. يطل القمر ومنه يخرج وجه أبي وعلى نقره أول اقترارة عرفها.

□

أي رضى تمدد فيه الآن. هذا العالم صحي ومريح. لقد انفجر الضغط. بعد خروج القيح الحديدي يبدأ سلام العالم. تقول وهي تبسم: أنت من انصار الثورة الجنسية ثم السياسية. هاه؟

تبسم وأنت ممدد على الخوان فأرداً ذراعيك. احدهما يبطق عتقا والآخر سائب.

- حديثني عن طفولتك.

- لماذا تهوى حكايا الطفولة؟

- حكاياها نقية لها رائحة خاصة.

تحت منابت شعرها تدب الأناامل. تنمو كقطرات بين عشب له ملمس الطيلسان. توغل هي نحو طفولتها، نحو حب قديم في حي قديم. الروائع ترتقي داخل غابة نفسها الخريفية فتكتسي زهراً ربيعياً. وجهها يتألق، ويشع صدرها العاري شقائق وزرجاً. دفء الفرة وسلامها يمنحانها وجداً مؤثلاً. كأنها صوتها بنوح للمرة الأولى قادماً من وطن منسي، دفأً حزيناً. غبطة بيضاء تغمرني. أتذكر الحلم الذي مضى وهي تسرد قصة حب طفولي لم يعمر أكثر من شهر. انطفأ لكنه ترك في الذاكرة جرحاً لا ينسى.

كانت الأنامل ما تزال تمارس بهدوء طقسها في كنيسة البشارة الوردية.
 ووجهانا يقتربان فأحس لفتح الحرارة. وتساءلي ان كنت أحببت في طفولتي. فأجيب
 بأن حب الصغار يشبه قصيدة بكرأ تدندن في النفس وتخرج للمرة الأولى دوماً
 تصحيح. بحركة غريزية ترفع حالة قبضها الزهري مغطية بها النصف الأعلى لتديها.
 فجأة أسحبها فيلتحم الوجهان أخذاً كلتا شفتيها بشفتي. على كني الأيسر يستلقي
 رأسها بينا يغيب وجهي في ذواب شعرها.

كانت تنفّس ببطء فوق لحم كني. أهاجي اللعج الخارج من جسدها
 فضممتها أكثر: كم أنت عذبة الآن!
 - اضغظ أكثر. أريد أن ألد لك طفلاً.
 - سيكون عظيماً وفاشلاً دون شك.
 - سيحبها بلا أب.

- أنا أحبك اذن أنا موجود. أقولها مزاحاً. فوق الجلد أشعر بحرارة الدمعة.
 لحظة من الوجد تمر الآن. أتمنى أن نبقى هكذا إلى آخر الدهر بارتعاش أميس
 لها عن غابات قصبة خضراء، عن كهوف مهجورة لم يطأها البشر، وعن بحار رزق
 ومروج تستحم بالشمس وتترد بالليل، نسكنها ناسين مدن العالم الغاصّة بالكذب.
 وإذ تلفحني أنفاسها المتباطئة، وبدء حركة من وجهها الذي ينسحب،
 أتذكر عالمها المرتعش وهربها من شيء مقيم فشلت حتى الآن في انتزاعه من
 نفسها.

بهده ترفع رأسها. كانت العبرات تنساب في عاذة أنفها. بشفتي مسحت
 الدمع فأحسست بالحرارة. وبدت الآن عذراء تشبه الغابات التي أحلم بارتادها. بين
 تديها غمرت وجهي. وبما لا يحصى في كل مكان من صدرها وعنقها ووجهها،
 قَلْبُها. في أرجاء الفرفة حملتها. بدت خفيفة كالنساء. غنيت لها لتفرح،
 ورفقت. فابتسمت وقاضت عبراتها، ثم دخلنا في الغيبة.

- ٢ -

وكان ان جاء زمان عصيب لم نحسب له حساباً فيما مضى، زمان تساوى فيه
 الحب والكراهية، الابداع والغباء، الانتهاز والثورة، وفي ذلك الزمان الفاجع نسّرت
 الأعشاب القسرة وراحت تمتص جذور الخصب والحب.

زمان شبيه حد المدينة، وملايين البشر كانوا يعبرون فوق ذلك الحد. وكان
 الكثيرون يخون نحو الشمس المحرقة، بينا آخرون يغربون باتجاه اللج، وكانت
 الذاكرة وحدها المنجي من هلاك محقق. وفي أي مكان من أرض العبور لو سألت
 العربي: إلى أين تخفي؟ لأجابك: مع الريح!

وفي ذلك الزمن كنت أمضي نحوها. وكانت منجاني. عنها تحدثت بحارة
 واختارت باختيارها التي والكراهية. وقال الذين في سمعهم وقرو: انما أنت أحقق
 ومثالي. تضع رأسك تحت القفصه بجناً. وكنت أقول وأنا أمضي بعيداً عنهم: لشد
 ما أنت وحيد بين بشر وحيدين. ومع تراكم الأيام الحزينة، همت بشوارع المدينة
 وصمتها. أوصفتها الليلية ومطرها. تلك الأشياء كانت تبدو لي في أوقات الضيق
 وحدها الملاذ.

وجاهدتُ كان يحاول أن أكون استمرراً لافكاره، لرغبته التي هوى بها في
 ربح الأم.

وبتزوج تمردي شبيه بثورة البحار، كنت أحاول التنصل من ذلك الاستمرار
 المجاني. أن أكون أنا بعيداً عن تاريخه المقم بالأساطير وقوى الغيب. انني أتذكر
 الآن حكاياه عن الأحداث المخيفة، من قتل الحسين واحتراز رأسه بسيف الشعر،
 الى نفسي أبي ذر الى الصحراء وأبناء أبناء سباً وعذاب آل ياسر، واذا أحاول أن أسأله وأنا
 أستلقي قربه في الحيمة البحرية: هل الله انسان؟

يصرخ في وجهي بوحشية واستنكار، يستغفر ربه ويتمتع ببعض الدعوات. بعدها يشرح لي أن الله كفاية كلية، قد يتجلى شيء من روحه في أنواع من البشر الخاصين المتفوقين على البشر العاديين، وهؤلاء قد يختلفون في الجسد والزمان، لكنهم روح واحدة خالصة ونقية تتميز بقدرة أعلى من قدرات الناس لكنها دون قدرة الله. واذكر انه ذكر أسماؤها منها: يوشع وشيث ويوسف وهابيل وسقراط وأفلاطون والمسيح.

أما الله فطلق لا يجد أجلّ من الجسد والزمان والمكان. وينيرني متحدّثاً عن العقاب والثواب واللجنة والنار ويوم القيامة والحساب الأخير، ويظهر الرجل المنتظر الذي يخرج من عين الشمس، ومعه رجاله الثلاثة ليملأ الدنيا عدلاً وقسطاً بعد ان ملئت قبله جوراً وظلماً.

لغة غريبة كنت أسمعها منه فأرتعد من الذعر، وقبل أن أنام أسمع دعواته واستغفاره في صمت الليل وروحة البراري على أنغام أجيح البحر الرتيب.

وفي تلك الليالي كنت أرى أحلاماً مخيفة عن رجال يسرون فوق شعرة الجنة والجحيم، فيسقطون في مراحل مليئة بأسفلت يعلّي، ثم أرى نفسي في أراض مزروعة بالأفاعي، وفي حضور رجال يقتلون ويمثل بهم، يعذبون حتى الموت ويسألون أسئلة لا يحاب عليها، فتسلخ جلودهم وترمي أجسادهم إلى نار متقدة. بعد أن شئت أدركت إلى أي حد كان ذلك الرجل التعب تعباً ممزقاً بين الله والأرض. واذ قررت رفضه حدثت بمنى على نحو طفولي مراهم. اذ ذاك كانت الأسئلة محيرة، لكنها كانت مثيرة مشحونة بدنياميكية شاب يرغب الالتصاق بالأرض. ويومها لم يكن رفض السماء شيئاً يعبر بمجانبة الريح.

لكنه ذات ظهيرة مات. كان موته مؤسّياً، وأذكر انني بكيت لفقدانه بفاجعة لا حدّ لمرارتها. بدون مقدمات مات. حدس هو بذلك. وفي عالم لا يقدم تفسيراً لكل ظواهره، تموت وازدادت وحدتي. مع الآخرين ناقشت مسائل معقدة كان الموت أحد أطروحاتها غير المعقولة.

- وأنا الآخر ساموت أيضاً ولن أمال ان كنت أرغب في ذلك أم لا. تموت أيضاً وقرأت. ناقشت وتاملت. فرحت وحزنت. انتمت ورفضت. عشت واكتشفت. وما هي دمشق أخيراً تحت شمس القرن العشرين: الاحتلال على الأبواب واللاحب. الفردية والجبن والسطوة والقمع. التجارة والكذب. الخيانة

وعلامات الاقتراض. مدينة من الأشواق تبحث أجيالها عن الطمأنينة، وقليل من فيها يفكر بهوية هذا الضائع تحت شمس القرن العشرين.

- وائل ما فائدة الثارات الداخلية؟
- أبي!
- سامر لماذا تلتف عمرك بين الخمر والنساء؟
- أنا وليكن من بعدي الطوفان.
- مسرور لماذا لست في الحرب؟
- ديانا!
- أيوب لماذا زوجتك تحونك؟
- الماضي هو الخائن.
- راني أنت جاد في البحث في الجمارك نحو النفوس التي فقدت رضاه؟
- عندما تكتشف السر النفسي تكتشف أرض العربي المهجور!
- ما رأيك في الاشتراكية؟
- اذا اكتشف قانون الحرية تكتشف نظرية الانسان الاشتراكي.
- وفلسطين؟
- شرط الحزن هو في كل الأماسي. نحكي ونفرح ونغني ونسأل. نشتم ونحب. وفي أواخر المساء ينيخ الحزن في الغرف السرية. حزن مسحوب من ضلوع العجز والتسويغ. ثم نخفي في تيار الوقت كما الأوراق الساقطة في تيار النهر.
- كان واضحا انه جبل يرتعش في القطاع الأشد خطورة. القطاع الأشد كسفاً عن نفوس ورثت تاريخاً مضطرباً. تاريخاً قانونه اليومي الدين والكبت والكذب والاضطهاد.
- ولما أفصحت لراني عن الفزق والمصالحة بين ما ينبغي وما هو قائم وضباع منى بينها قال: التقيتاً قبل الألوان. وأجبت: بل بعد الألوان. ثم أردفت بانها في نفسي قبل قدومي إلى دمشق. وأنت تذكر ذلك. هل نسيت؟ وأذكر جيداً كلمته: لو ولدتما قبل عشرين عاماً وتزوجتما لكان الأمر مختلفاً.
- أحاول أن أعطفها نحو الجبال الوعرة.
- وينه: أي رومانسي صغير أنت!

يومها أجنته : لو تنظر إلى نفسك كيف تتحدث أبداً بوصاية . بطريقة من يخيل إليه انه اكتشف أسرار العالم والنفس بينا البشر في نظرك ما زالوا في طور القروء؟

- أنا أحرّم صفاءك في هذا العالم العكر، ومن بين جميع الذين عرفتهم كنت الجدير بصدّاقي، لكن صفاءك تحول إلى مرض . هل تدري انك متصوف عصري؟

ويومها أذكر انني حاولت الدفاع . جهدت لأوضح له فكري عن النقاء والتزامي ببنى ضد الخدع القائمة، وان كلمة متصوف بمعناها الديني لا معنى لها، وان بعض المفاهيم والمفردات التي انتصفت بالدين يمكن أن تكون ذات معنى بالمفهوم العصري، وليس الدين بمجموعه ميتافيزياء صرفة لا صلة لها بالحياة وأعاق النفس البشرية، والحكاية وما فيها هي كيف ننتيق من التاريخ بمعان جديدة غير فاقدة لأصولها . ثم تحدثت عن ردود الفعل في الثورة وتسميها بالدين الشائع والخوف، وان الماضي ينبغي أن يكون حافزاً لا مخدراً وقيلولة، وان هذا الجيل الآن يتكون بين قطبي الاهانة ورغباته الشخصية، ينسحق تحت ضربات الخيبة والتحويلات المغامرة والفرز من ماضيه، وهو اذ ينصاع لعلائق الدين المرضية، يقتل الثورة معتقداً بأنه يحميها.

وقلت : حتى نظهر فعلاً ونقيم ثورة لا بد أن يسيل الدم وتدمر الشرائع الاستسلامية والقوانين السائدة التي سننها البورجوازية الدينية في هذا الوطن .

واذكر يومها انه تحدث بحماسة عن تدمير العلاقات القديمة التي سهاها عوسج الأرض، وألح إلى دور السياسي ودور الشاعر وإلى السطوح والأعاق . وقال بأن الشاعر الذي يبدو منبؤاً ولاجئاً هنا، يشكل الضمير النفسي للأمة باختياره المغامرة الخطرة في أعماق النفس الانسانية حيث الاسلاك والروائع العطنة، وكمون عصارة الأرض المحجوبة عن الشمس .

واذ ذكر عبارة عصارة الأرض، استوقفته قليلاً مبدئياً لملاحظة حولها : بأن هذه العصارة غير الشمسية ربما كانت هي ما نبحت عنه وان أوراقنا ربما سقطت هناك . وتابع فكرته عن وجهي السطح والأعاق بأنها ربما بعلان المعادلة الواحدة . لكنه استطرد سائلاً : هل يمكن للعين أن ينبج؟ جرب أن تقترب من تلك الأرض المحتلة : الدين . الجنس . الحربة . هل تعرف من أين سيأتبك الرصاص

والحمارة؟ كيف تطاردك الكلاب؟ وكيف سترى هناك كحشرة دونما ضجة : لقد سقّ أوثاننا . هيه . لكي نكون بشراً ينبغي أن يحطم كل فرد منا أوثانه الداخلية . ويقلب شفتيه ثم ييصق . بصفته تحدث صوتاً كصوت الطلقة في أعماق الليل الساكن : السياسي على ضفة والشاعر على ضفة أخرى وبينها وادي اللغة . لغة الشاعر جارحة مسنونة تهوي عميقاً نحو العصارة، أما الآخر فلغته خادشة، أقيّة متوازنة، بينها وبين العوسج حوار ودغدغة .

كان المسير قد أودى بنا إلى سفح قاسيون . من هناك كانت تبدو دمشق ملائلاً راقدة تحت السفح، وكانت الخمرة قد طارت . على حافة شريط حديقة مسورة وكأ كوعيه وراح يمدق نحو دمشق .

في أية لحظة كنت أتوقع منه شيئاً آخر غير مقدمته التي بدأها، وفي أعماقي كنت أعشأ ذلك . لقد عرفت فيما مضى مزاجه الحاد وفرديته والأذى الذي أصيب به، وشغافته مفرقة في البعد كنت ألس هشاشة التحامه بالمدينة . كانت توجد في ذهنه من خلال أشواق صغيرة، من خلال حنين يرف في ذاكرته، لكنها لا تحتاحه كسامر البدوي الذي عبر يوماً عن هذا الحنين : حنيني إليها لا يختلف عن حنيني إلى جسد امرأة .

بعد أن ملأ عينيه من جسد المدينة المزدخرة بالأضواء والصمت، وقف ثم اتجه نحو . كان وجهه كليماً فيه قسوة تغطي ألماً داخلياً يجهد لإخفائه . سألتني ان كنت أحب دمشق فابتنست . وألح أن أجيب عن سؤاله، فقلت بأنني لا أكرهها ولكنني أحب الريف والبراري أكثر . أنا لا أطيق هذه المدن التجارية .

انني أتذكر الآن كيف سخر من هذه الخرافات، فسأها شطحات صوفية ساذجة، ووسمني بأنني ملثث بأرواح الأجداد الذين مضوا وصاروا حكايا منسية أنسبت إلى أساطير الشرق المسكين المتعلق بأذيال المطلق في عصر النسبية وغزو الفضاء : شرقك المقدس . بمقت مرير ساخر ذكر الكلمتين الأخيرتين . وأضاف بأنه قد قرر الرحيل مرة أخرى، وان هذه المدينة كغيرها من مدن الشرق لا تقدم إلا الفشل والتبرير والروائع الكريهة والمقايضة، وانه ينبغي هدمها واعادة بنائها . وقال : عث هنا وجود الانسان وباطل . الكل باطل باطل ولا نفع من أي عمل يعمل . نحن غنا طفيليون على مائدة التاريخ . محض أفراد مغيبين في غابة نغوطننا أحراش الوراثة والبيئة والدين . وكلما حاولنا التقدم خطوة إلى الأمام تنعثر بهذه الأحرار .

إلى الجحيم كل ما هو قائم. قال ذلك بثقة داخلية مطلقة، فأحسست انني أواجهه الآن عارياً تماماً، مفصولاً تماماً.

لم أعد على مسمعه قضية عصارة الأرض التي لم تر الشمس بعد، ولا قضية الأوراق المفقودة. كنا الاثنين الآن. وبيننا مسافة. انكسرنا اذن. كسراً لا جبر له. ما عاد لنا غير هذا الثابت الليلي تتحرك فيه ننثر آخر المرآتي، ونرش روائح البخور. وكما قال وائل: نحن المحمولين اليوم لا الآباء. النفوس افترسها ذل وانتهاك. رجّها رجّها حتى صارت في لون الغرين. هشيم، مساحة منه اندلعت فيها حرائق شاسعة عصبية على الاطفاء. «وداعاً يا وطني» هوذا يقولها الآن. سمعها في بيروت بعد أن خرج عصر يوم محروراً مصدعاً من مبنى الجامعة الأميركية، ولكن هل سمع صوت مناجم بيغن: «أنتم الاسرائيليون ينبغي ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون بأعدائكم. عليكم ألا ترحموا العرب حتى تدمروا حضارتهم التي سنبنّي على أنقاضها حضارتنا نحن»؟

راني غضب وغرب في ليل جهنم. وأنت هنا. لا راحلاً ولا مقيماً. قائم بين السيف والنطع بعد أن لمع البرق أخيراً، شاطراً قوس قزح إلى ألوانه الاساسية. تقف على مفترق الدروب الثلاثة: درب السد السائر فيه لن يرد. ودرب الحريق ودرب الفريق. وعليك أن تختار يا علاء الدين.

الفصل الرابع

هي الريح ، والعربي مقذوف عبر تيارات. بعنف تدوي. رياح من بلاد
قصية. والريح النفسية دائمة الهبوب مشحونة غيظاً وثأراً. عصفاً تهب من الداخل.
والعربي حكاية قديمة حديثة، ضائع هو في مجرى سردها. والريح الاعصار قادمة
من بردى وميسلون وحطين والقادسية وذئ قار وكعوش والطفولة. ريح مفعمة
بالموت.

وفجأة تلك الشجرة. ختام المريثة ومحنة النوم. أخيراً توقف خلايا الجسد
بإيقاع الفجعة. والذي يوقفها ابتجاس الدم الحار من الرقة والشفتين والزندان
القويين. من الصدر الفتي. هو الدم وهدي محظية عربي القرن العشرين، ساكنة
هي الأخرى. على شفثها ابتسامة جمدت في لحظة الفجاءة. كل شيء ساكن
الآن. حتى الريح والزمن، فوق الجنتين.

الذي كان جميلاً وقتياً. والذي عرف الفرح وجنون الجنس. والي أقيبة دمشق
المظلمة، سقط الآن.

- هل تعتقد بأنك سفاح؟
- أنا أعيد إصلاح الكون المختل.
- وسادي.
- حيوان متغطرس تدين البشر وأنا أمقتك.
- أحد أصدقائي كان يقول: علينا أن نرثي للضعف البشري.
- لست ضعيفاً. أقوى من كل آفتك أنا.
- لو لاحظت يوماً أنك تكثر من استعمال كلمة «أنا».
- أنت وتاريخك قضيب وفرج لا أكثر.

- بل. أضف: ويسمح لها بالولوج والخروج والاستراحة، ضابط مغارات موكل بحراستها. يشرب ويدخن بمصيبة عاقداً حاجبيه. هذا الشرس المثير للمرارة والضحك معاً، هوذا في النهاية يموت.

- أتكون فاجعة العربي أنه فقد ماضيه ومستقبله؟

- لن ينقرض العربي. فيه دم يثور في لحظة الخطر.

- ولكن هل فوران الدم يصنع التاريخ؟

في نهاية اللعبة تنفجر الأشياء. الثبات ليس قانوناً أزلياً. والذي كان، يمكن ألا يكون، والإرادة البشرية هي القانون: أنت تتأثر فقط.

يقول: أنا أعيش طفولة مستلبة.

وأقول: أنت لا تفهم قوانين التاريخ.

ويلعن التاريخ ويلعني. تجتاحني موجة مرارة فأضغط أسناني بقسوة.

وفي البيت المزول في ضواحي دمر تمزق لحم هدى، بعد أن مزق بكارتها. بالقبضة الوحشية والأظافر والأسنان، هشم لحمها العاري، وفوق البلاط ضوجعت وهي عارية. جرح ثديها وامتنص دمه ثم حملها إلى ضفة النهر وبين الأعشاب مورست محاولة القتل والمضاجعة. وكان معه زجاجة خمر. فوق الأعشاب حاول حرقها فصرخت وتوسلت. كمّ فيها وضغط. واستثير فضاجمها، وإذا حاولت أن تهرب أمسك بها، وسحاول خنقها فصرخت بأثنين إنسان يرفض أن يموت.

ندة الرجل: بعرضك.

وقال له: عرضك بين فخذَي يا جاسوس. متأمر. خائن. إبن قحبة. عروه وجيثوني به. ويسوط أسود موثور يضربه على وجهه وصدره ومعدته حتى يتدمى. أنّ وتوجع فضره أيضاً. وظل يضربه حتى انهال وتكوم رمة فوق بلاط القبور. على رأسه ضربه فانبت الدم، فرفع الرجل يدين منهكين معاولاً حياة رأسه، فانهاك السوط فوق اليلدين المروقتين فسقطتا. زحف. ثل الأرض وقدميه: بعرضك أنا بريئ. بريئ. وصرخ به: اخرس. كللكم كلاب والكلب يُقتل. ضموه على الكرسي الكهربائي.

ومن تحت جلد الأرض تصاعد أصوات حزينة مهانة. أصوات موجعة تحملها

الريح من أقاصي أرض العرب. تصطدم بصوت منى: ألا تسمع؟ كيف يكون حباً في هذا الجحيم القائم؟

أقول: اغفري لهم فهم لا يعقلون.

وتقول بان الزمن يمضي والعربي يحرق الزمن وهو سادر. إنه يمزق القات والأفيون والحشيش ويشرب دم أخيه ولن يلتقي مرة أخرى بالزمن. وكانت تنسحب الآن وتمضي.

وقالت النفس: هي ربح عابرة تسفهم في غفلة الذاكرة. وكنت أمضي. ولم أكن أستطيع فعل شيء من أجلهم. وكانت فلسطين تهوي تحت الاعصار، والاعصار يحمل نشيد «الهاككفا»:

«نعود للوطن

وطنتنا إسرائيل.

إنه الآن صغير

لكنه سيكبر ويتسع،

وسنبنيه بأيدينا

من النيل إلى الفرات».

ومن النيل إلى الفرات كانت الأمامي مترعة بضوضاء الكلمات:

- اشرب. نخب الثورة.

- متآمرون يريدون تدمير الحزب.

- البورجوازية الوطنية تلعب دوراً في مرحلة بناء الثورة الديمقراطية الاشتراكية.

- لكن ماركس قال بالطبقة العاملة الطبقة الثورية الوحيدة.

- وباكونين قال بالفلاحين الطبقة الأساسية.

- تروتسكي رفض الثورة في بلد واحد.

- بينا لينين قال بإمكان بناء الاشتراكية في بلد واحد ونادى بتحالف العمال والفلاحين.

- من الصليب ومن المخطئ؟

- أعتقد بأن البروليتاريا الإسرائيلية ضد التوسع؟

- وهل في إسرائيل بروليتاريا؟

- أنا أعتقد أن النضال ضد إسرائيل لا يفصل عن النضال ضد الأمبريالية والرجعية وبناء الاشتراكية.

- كان عبد الناصر وطنياً وإصلاحيًا لكنه لم يكن كاسترو.

- والجزائر تبعد آلاف الأميال عن فلسطين.

- حسين جاسوس بريطاني.

- يا أخي الأزمة أزمة ديمقراطية.

- لا. أزمة علاقات موضوعية وتفشي الانتهازية والديماغوجية سيحرق الثورة.

- نحن محذوعون.

- بل محاصرون.

- قل معزولون ومحكومون بالعسكريتاريا الانقلابية.

ومن بيته القائم على ضفة النهر إلى دمشق كان يسير بقوة الريح والملوث. مطر ينهر. وسيارات سريعة أضواؤها كانت تواجهه بأشعتها الحادة. ومن الداخل كانت الأحاسيس توالي انفجاراتها مضروبة بأنهار من روائح الماضي مختلطة بروائح الأفيون والجلود المحروقة، والريح تحمل أمواج النور الحاد والصور القديمة. كل شيء راح يهتز تحت العجلات وتحت القبضة التي خدر عروقه الأفيون. وقالت المرأة المذلة: حبيبي وائل انتبه. أنت تسرع.

وكان هناك منعطف لفه شيق. سرعته ازدادت إحتراراً للمرأة. مالت فوق كتفه فتزحها عنه. فجأة بره النور. مليون لون وشعاع رقص على شاشة عينيه فصار أعمى، ودونما شفقة طعته شجرة حور، دمشقية، صلبة، باسقة.

□

في الصباح كان قد انطفأ واستراح. وفي الصباح لم يلبس أحد حداداً. وكانت المدينة مستمرة. بالحادث أخبرت منى فأغمضت عينها لمدة ثانية، قبلت بكل لامبالاتها المهوودة، ودمعها حس الزمن فقتت.

في غرفتي بقيت وحيداً. ثملت. غرقت في بحار من صمت. حملت بمسافات

وهجرات لا تتوقف. شتمت وصرخت وضحكت. ثم سألت الله: لماذا يولد الإنسان إذا كان سيموت؟

وكنت مُهكاً فهويت فوق فراشي البارد.

(وجاءني صوته بعد حين. حزناً مطعوناً مدثماً. على وجهه علامات انكسار وقال: كنت عطفلاً قل للجميع أن يغفروا لي.

وسألته أن يعود، فقال: لا أستطيع.

وسألته: هل هناك جنة ونار؟

فأجاب: بلى.

وكنت خائفاً. وكان هو ملفوفاً في كفني داخل ضباب رمادي، وبدا لي جسده شفافاً، ورأيت قلبه وفي وتينه شرح، وكان القلب كروياً ودمه أسود، وعلى الكفني بقع زرقاء يابسة. وبدا لي يرتعش من الصقيع، بينما يدها غائرتان في بحيرات الضباب.

وسألته: أسأل لنا باريك هل ينقرض العربي من الزمن؟

(وجاءني صوته خائفاً يقول: كونوا مع أنفسكم.

وسألته عن اللعنة التي تحدث عنها الأجداد فقال: الله غاضب.

وأذكر أنه كان شبيهاً بنفسه، سوى قبضه الملوث بالدم. وقلت له: لماذا لم تمت في فلسطين؟

وكالصدى جاء صوته: لم يكن خطئي).

ذا وجه نصير كان. قوياً كهياج موج البحر. وفي جسده التناقص لم يكن هناك خطأ ما. بثقة كان يسير يأكل ويتحدث ويحسن قيادة السيارة. يضاجع ويحلم ويشتم. وبوداعة طفل كان يتم في أواخر الليل. كان يحيا.

في خمارة الواحة صادفت سامر البدوي. سلمت بتقيل من الاهتمام ثم خلعت معطني: أين أنت أيها الخنزير البري؟ وإذا لم أجب سأنتي أين أمضي أيامي لت قرفاً: الوظيفة والشارع والخارات.

وحديثي أنه هلف إلي، ولديه أشياء جديدة يريد أن يوج بها فقلت: إنك تكذب وتبالغ وجديك لن يكون أكثر من امرأة أوحادثة عابرة. وقدم لي كأساً، وكنت متقبضاً وفي أعماقي ميل لإلهاته وشربت بنهم وقال: أنت لست على ما يرام

وقلت: أنا على ما يرام. تماماً. وسألني أسئلة عادية عن منى وأمينة، ثم انتقل للحديث عن ذاته العليا وقصائده الجديدة. وإذ حشا نصف رغيف لحماً وراح ينشه، انتهت إلى الموسيقى.

كان قد مات إذن. وإذ بدأ يقرأ أشعاره فكرت بالموت الذي ارتسم على شاشة الذاكرة وشيا لا يريد أن يقدّر. سمعت بعض المقاطع من قصيدته عن الموت الفجائي والزمن الطاعن في الغفلة. وأوغل في مناه سريالي لا يدركه إلا هو. بعد أن انتهى من طقوسه الشعرية سأله إن كان قد سمع بالحادث، فتناول كأسه وغبّ برغبة رجل يخاف الموت وسحب لفاقة أميركية أشعلها، ثم زفر الدخان وتأوه: أجل. مات هنا.

- ككلاب جربة سنموت جميعاً هنا.

وانتهت إلى جمليتي العقلانية فتناولت الكأس وصبيته في عروقي. وسمحته يثرثر عن القصور والخلل في الجليل الناقص، المقتول وهو حي. الجليل الذي قال عنه رائي: لا أرض له ولا آفة.

وقلت بأن إرث الوحل والشمس يسري في دمانا منذ ألف وثمانمئة عام وهذا مهين. وتحدثنا عن الرجل الذي مات في ذلك المساء، حديثاً حزناً له رائحة الموائي. وفي تلك الليلة شرب سامر حتى البكاء. وغب ذلك غادرت الواحة باتجاه حجرة أمينة.

[

هي ذي دمشق للمرة المليون، وأنت التائه في دروبها المتشعبة. عن أي شيء تبحث وإلى أين؟ ودمشق في الذهن، غبطة سارحة كبرى في مواسم الفيض، وفي التاريخ حجر صلب، رُسيّت عليه فائحة يمسحها المطر في الشتاءات القاسية. ودمشق مرسى ومسرّى، حكايا وحجارة، صمت وزمن يخترق المقام في أزمنة النسيان. والرجل الباحث عن بديل أبيه ذئب صَبَّحَ قطيعه، وأضاع الدرب إلى البيت. وإذ حاول أن تسأل في السر: ما الذي يحمله المستقل؟ تطوّلك الريح واللحظة التي تخفي.

مضيّ. مضيّ. من رصيف إلى آخر. تيه يقدّظك في تيه. والذي يراك فوق الأرصفة في أواخر الليل يهزأ، وأنت تقول: الأشياء ليست هي الأشياء. ومن مكان ما يقدّظ أيوب السرحان كلما كرمصص.

الحوار الذي بدأ قبل سنوات، منذ منتصف القرن العشرين، ينمو في الدم، يطلع سقوطاً وصعوداً. أحياناً تتداخل الأجيال فتصعب الرؤية وينعدم التمايز. وفي تلك اللحظات تنفى منى قصير غريبة في بلادها.

صوت أيوب اللاشعوري يود الإفصاح: لن تكون سيد العالم ومتمضي.

- لكن العالم لا يتراجع.

- العالم يهزأ. والعربي يعبر زمن الموت.

- للقصاص زمن ثم يأتي زمن الصحو والعالم لا يعود نحو الخلف.

- لستم أكثر من قافلة عابرة في صحراء الربيع الخالي.

- أجيال قادمة تولد.

- سنسلك طريق وائل وسامر.

- لم ينكشف العالم لوائل.

- كلكم هو.

- دم الضحايا لا يُسَى.

- لكنكم سترحلون يوماً عن دمشق.

- دمشق للفقراء.

والنساء والخمر والسيارات وكراسي السلطة والأرصدة والإرث الناقص؟ هذه

فخاخكم ودمشق المقبرة.

- ثمة منى!

- منى نجم بعيد. سراب تلهوّن خلفه يبتعد ليظهر من جديد.

- أستنجد. تتسارع خطاوي. ربح حارة تلفحن.

- آه. أين أنت منى؟

رذاذ رطب. عذب كسفة التلّ في العروق، يشعر بك بخصوصية المدينة.

مدنيّ الآن. تطوّقي رطوبة الطفولة في الخيمة البحرية.

[

ها هم يعمرون ضفاف السواقي. مجاريفهم ومعاولهم فوق أكثافهم. أسمع

خطواتهم وأنا مستلق في خيمة القصب. عبر سواد الليل يخون الخطأ وهم حفاة وقد شقروا حتى الركب. الشوك والحجارة تجرحهم. أرجل وسواعد مرشومة بالوحل. مع الماء يمشون نحو الأراضي العطشى. الأراضي التي ستطعمهم العشب والمواسم. والماء ليس ملكهم، بضمن المؤونة اشتروهم من جلاذيتهم عندما كان الزمن كالماء سائياً مفتلاً منهم.

مع الشفق يمشون وهم يغنون، والعالم سلام وغبطة. السهول اخضرار مده البصر، والبحر والقرى ساكنان، والصيادون ينشدون عبر البحار الزرق، والرجل الصلب الغاضب من عصره وناس عصره، قائم هناك بين الشفق والأرض، يضرب الأرض ويغني ويصلي، من الخيمة أسري صوبه فيسألني لماذا أتيت فأقول: لأساعدك. فيقول: إذهب ونم. أنت ما زلت صغيراً يا حبيبي.

- ولكنك وحيدك وتعب.

- عندما تنمو وتشب تقدم نفعاً.

- أستطيع أن أراقب لك المياه في المسكية. بمنع وصلاية يحرف بمعمله الأرض. في عروقي ين صوت الضربات وجرف الحصى. صوت الوحل وصوت الرجل وهو يغني زمانه الخائن. ومن الفضاء الربح المزروع بالنجوم يأتي صوت طائر المهاجرات. نحو السماء أرنو بجأ عنه فلا أراه. السهول الملونة تمتد موصولة بالبحر الأخضر. أشباح الفلاحين تعبر ماضية في الغلس. تحمل الريح رائحة عرقهم منحلة برائحة الخضرة والبراري ونشيش المياه في عروق الأرض. يختلط هذا الجمال القاسي برائحة الفضاء والسكون والغدا البشري ورائحة أبي الذي يستلقي مع الفجر قربي، بارداً، منهكاً، مستسلماً للسكينة الهابطة عليه في أواخر الليل.

- أنت يا أيوب حكاية قديمة ولدت في أحضان المسرة والريح والغزاة.

- وأنت يا بني عاشق ملهوف لزوجتي وعلى حوافي جسدها تنطفئ رائحة أحلامك الكبيرة.

□

بيني وبين نفسي بحث أخيراً بجي لديانا. حدث ذلك قبل اكتشاف الخلل. وإذ تذكرت عجزها عن العطاء غضبت من نفسي ومن مسرور وغفرت لها. لأول مرة وأنا استحضّر معرفتي بها أتذكر كلمة راني عن الضعف البشري.

ديانا مجد جسدي يريغه مسرور وأنا. وديانا غائبة عن جسدها منحلة في الثياب والثرثرة وتأثير بيتها، تود أن تفاخر به أعرق العائلات الدمشقية الفارقة بين المسلمين والبروكار والكريستال.

وإذ أدرك أن كل قوى العالم قاصرة عن تحريك سكينة مسرور واعتناقه جسد زوجته، أشعر بشفقة. لست أدري كيف تصورت أن ذلك الجسد لولايه وسار به نحو ربي فلسطين أتراه يتأخر لحظة عن المضي إلى (عين الغزال) التي تهودت الآن؟

وهي تربني آخر أثاث جاءت به، سألتها: هل تعتقدين أنك مستقران؟ وبإسماة نصف بلهائ زورتي، وسألتني: لماذا أفكر فقلت بالاستقرار فعلاً ثم استطردت: هلا تذكرت يوماً أنك زوجة لاجئ؟

وباستغراب هائزٍ وسحتني بأني مصاب بلوثة السياسة مرضي المثقفين العصري، ولما ألقت عظمتها: عليك أن تفكر بأمر أكثر جدوى. سألتها عن الجدوى في حياة الناس الذين لا وطن لهم وعن التفكير المرضي بالوطن.

وقالت: لم أعن الوطن. إنما هذه الحمى التي تتأبكم جميعاً.

وقلت: الحمى تسببها إذن؟

وسألت: ماذا أصيبا؟ أنتم مهووسون بحالة تنفّص الطعام والشراب والملبس على الإنسان. أما عاد في العالم شيء آخر غير فلسطين والثرثرة؟ وسألتها إن كانت تعرف لماذا تفكر الإسرائيلية. فقالت بأن لها مباحثها التي لا تقبل التنازل عنها: بيت وسيارة وخزانة ثياب وأحذية وعطور ومهرات وبساتين.

بحسب: لكنها تحمل السلاح أيضاً!

وقالت: في الساعات الحاسمة لن تتأخر عن حمل... واعتزضت متمماً الجملة: الحقائق. وابتسمت بأسى. في الخارج تعول الريح. أنين الريح مؤثّق. يندفع الغثيان نحو الحلق. صوت الريح عذيف جنازي في ليل فجره لن يطلع قريباً. وهذا الفجر تقاوته مضمخة بدماء رجال لما يتقدموا بعد.

ديانا تسأل: لماذا يموت الإنسان مجاناً بينما يرحل الآخرون؟

أقول: تريدين مسروراً لك؟ تؤكد ذلك. أسأله: لماذا قاتل أبوه في الماضي؟ تقول: كانت مرحلة مختلفة.

واذ أقرر أننا تحت الاحتلال واننا مهددون بالإبادة وأن لا نكون. تسأل :
لماذا لا يقاتل جميع الناس؟

- لمسرور بيت وأرض اغتصبت!

تصفعني: فلسطين الآن ودمشق غداً!

- ٢ -

العالم الذي تصورته كاملاً منسجماً، شارفت فوضاه على الاكثال. لقد بدأ
أولى انهياراته. كل ما حيكت خلال العمر من نسج العنكبوت في سقف المغارة،
ينقطع الآن تحت أشعة الشمس المتسللة من الفجوات: باطل. باطل الله والإنسان
وكل ما على أديم هذه الأرض من أباطيل.

- عصور الضوء راني متى تقبل؟

- عندما ينثى الدم أكثر.

- أما كفانا ما أهرق العربي من دماء؟

- الدم الآن مستقبل العربي.

(درب طويل وعمر. العالم ظلام. صمت الظلام يمزقه أنين مجموعات
تنناكب. الطريق بلا نهاية ينحدر كأنه شق عميق يخترق الأرض من القطب إلى
القطب. جموع مهددة بالظلمة والتعب. فوق الراحة توابيت قتل عارية
من أكفانها. لا أحد يعرف إلى أين تمضي والذين يعبرون الوعر لا يعرف أحدهم
الآخر. لا يسمع أحدهم الآخر، ضمهم المنحدر وهذا الليل لكأنهم آثمون
مأخوذون بذنوب لا يذكرونها. الأحياء والأموات معاً في ليل عابق بالأنين ورائحة
البخور. أحد ما لا يسأل الآخر إلى أين يمضي. لا علامات لهم. مجرد اشباح
متحركة تهوي. الأموات فوق الأحياء. لا أحد يتقدم ليعين الآخر. المكان موحش.
لا خضرة. لا ماء. لا امان. ممر خائف يزدهم بالأنفاس والأجساد الدبقة. فجأة
تسمع فرقة سوط. الذي هوى تدوسه الأقدام العمياء. طلفات. الذي ينزف ينز.
يطلب ماء فلا يلقي. ينكس سافاً تراب الوعر. القافلة بطيئة. يزداد انحدار الأرض
والهوي متلاحق. تختلط ضربات السوط بدوي الطلفات. كثيرون يهرون وكثيرون

بلا كلمة أهرب. أمتطي الشوارع. الريح مرة أخرى. ريح مسمومة. الاختناق
فوق أرصفة المدينة. المدينة ضيقة والوطن ضيق. العالم ضيق وأنا محاصر، معتقل
داخل نفسي. أمضي في الشوارع الضيقة فيطلع وائل من جدران المدينة جريحاً فوق
شاشة المضي. ويدق صوت راني: دعنا نخرج من أزمة الانحطاط.
- محال. محال. كالجحازان سنموت في المصيدة. يقول سامر. وأحس قلبي
بخفق بشدة. وأسمع موسيقى التابو والرقص الشهوي للأجساد النازعة إلى المضاجعة
بحرارة من يرفض الموت.

أصوات. أصوات عن التحرير. أصوات عن الماضي. صوت خبيب فرس
موسى بن نصير وهي تشق عباب البحر. أصوات الفلاحين في الليالي الفلسة.
أصوات ملايين اللاجئين المذعورين يديرون ظهورهم لمواطنهم باتجاه بلاد الأمان
والرصاص، وصوت مناجم يبغض يطاردهم. ثم صوت مني الذي لا صدي له.

يداسون وكثيرون يلقون دماهم الممزوجة بتراب الوعر ووحده الأئين مجدوهم.
انفجار يهز ضمير الأرض ثم لا شيء).

في ذلك اليوم هفت منى. كنت متقبضاً يومها من أثر الكابوس. قالت: أنا
حزينة وكسيفة. هل ما تزال غضباً مني؟

وقلت: أبداً.

وذكرتني بجادة الأمس، حيث وسمتني بأنني تافه في حالة نرق. وقالت بأن
الكلمة سقطت سهواً منها، وكانت تود استعمال كلمة أخرى لم تواتها في تلك
اللحظة، وسألني عن شعوري بعد مغادرتها فقلت: الأسف. وأصرت أن تعرف
لماذا فقلت: لأنك تحشرين جميع الناس داخل زجاجة مغلقة وتقذفين بها إلى
البحر. وسمعت ضحكها على الهاتف. واستعادت الحديث بمواساة: ولكنك تعرف
قيمتك الحقيقية في نفسي!

- يوماً ما لم أشعر بهذه القيمة كما ينبغي.

وبرضى أكدت: حتى لا تصاب بمثل ما أصيبوا به من غرور ونسيان. ينبغي
أن نظل في أفسى حالات اليقظة. ويحت لها بأنني عرجت أمس على بيت أمينة
وإذ رأيته كثيراً خفت عني وألحت أن أنام معها حتى الفجر، ولكنني غادرت بعد
ساعة تقريباً، وأتني حملت تلك الليلة حلماً مزعجاً سأرويه عندما نلتقي.
وانفقتا أن نلتقي ظهر اليوم التالي في غرفتي قبل أن تسافر من دمشق.

□

هذه المنى. التسع الصاعد عبر الجذور. الاخضرار ورائحة التراب والحب
الجام في عروق الفلاحين، طائر المجرات الذي أسمع صوته ولا أراه. أقول ذلك
لنفسى كل يوم في أماسي التوحدة، فيعطيني هذا المخدر بعض القدرة على
الاستمرار، ويمجنني ذكر اسمها أماناً صغيراً يبعد عني شبح فكرة الانتحار. وتقول
النفس: لا بد من زوال هذا الكابوس والخروج من هذه المناهة يوماً.

فوجئت بأبواب السرحان مرفصاً في غرفة أمينة يشعل. لم يسألني كيف فتحت
الباب. كان يدرك بالحدس أن مفتاح الغرفة معي مذ قررت أمينة هجرانه وعزله في
الغرفة الأخرى. ابتسم من أعماق كئيبة وحاول أن ينهض: مساء الخير. أهلاً. أهلاً
بالمهاجر.

وقلت: لن تنهض. تقدمت وضغطت كفه. وسألني: لماذا هجرتنا هل أسأنا
لك؟ فقلت: أستغفر الله. أبداً. إنما ضغط العمل في هذه الأيام.

وقال: العمل أحق. الله يعطيك العافية. الوطن بحاجة لهمتكم. كيف
الأحوال؟

- لا بأس. الحال ماشي.

جلست قربه. ومعه احتسيت كأساً. كان في حالة غريبة. حالة شبه موتية.
حمرار وجهه بمزج باصفار رمادي. وبداه ترتعشان على نحو متواصل، كأنما دهر
من الحزن جثا فوقه وراح يغور فيه. وكعادته ثرثر عن تاريخه منذ الأتراك حتى
الفرنسيين وبداية الاستقلال الوطني، وإذ وصل إلى العصر الحاضر راح يدهان
ويخايل. وسألني إن كنت أستطيع مساعدته لاستعادة بعض أراضيه التي انتزعها
الفلان من. وسألت إيهامه بأن الموضوع شائك، وتخرج عن نطاق إرادتي وأنه
تابع لحاكم الدولة، وإن كان مظلوماً عليه أن يرفع ظلامته إلى هذه المحاكم. كنت
أدرك جيداً هذه المقايضة التي تأخر الإعلان عنها، وحديثي عن الرعاء الذين كانوا
يحلون الأمور بهاتف أو ورقة صغيرة بعيداً عن تعقيدات المحاكم الروتينية، وقلت بأن
الأمر مختلف الآن، وتشعب الحديث نحو حياته التعيسة التي أعاد موسيقاها على
مسمعي مئات المرات.

وإذ لم يدخل علينا أحد ولم أسمع حركة في البيت سأله: متى نام أهل
البيت؟

تأوه بانكسار: ما عاد في البيت أهل.

استفهمت فأفادني بأنهم غادروا منذ أسبوعين أثر شجار حاد كادت الجريمة
تؤجه. وبدا يريد كتمان السبب في البدء. لكنه أفصح بعد فترة صمت قصيرة بأنه
رأى المستأجر الذي يسكن في البيت يتسلل من غرفته في الساعة الرابعة بعد
منتصف الليل.

كان الدمع محتبساً في عينيه، ذل معاند لاج في انحرار المقلتين. وراح يعيد
أسطوانة كراهيتها له بعد أن جرد من ملكيته. حكى عن طقوله وتضحياته في
سبيلها. وكيف عيدها لكنها كانت عاقاً وعينها للخارج، وكيف غطى عينيه
عن الناس الذين كانوا يدخلون البيت لأنه أحبها أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن
يصدق أنها تحونه: أمية امرأة جميلة لكنها شريرة. لعن الله النساء. جلد ناعم

كجلد الأفي لكن الثاب مسموم. كان واضحاً الآن في وجهه الخروش بالزمن والعار وعينه الموشكتين على الانطفاء وارتعاش يديه، انه على الحافة وأول هبة ربح ستهوي به إلى القاع.

ولأول مرة ربما، يثير أيوب السرحان حزني وشفقتي وهو يروي رحيل أمينة بعد أن كنت أثاث البيت وتركت له بساطاً مهلهلاً وسيراً عتيقاً، حتى أدوات المطبخ أخذتها، وهو الآن وحيد.

وأنا مبتل بالكتابة سأله عن سمية. فأجاب: أخذتها معها. البنت رضعت حلب كراهيتي من التجنة أمها. في الأيام الأخيرة كانت ترمقني بنظرات مليئة بالاشمئزاز والاحقار. وتهد بقهر: يا إلهي كيف ستعيش تلك الطفلة بدون أب! نصف ما في كأسه جرحه مرة واحدة، فكادت الكأس تسقط من يده. حاول أن يصب لي كأساً ثالثة فاعتذرت وألح فرفضت. ومن لفافته أشعل أخرى وزفر الدخان.

بعد لحظة صمت عاوده الأنيب: كما ترى الآن.. وأمام عيني راح يفتل اللقافة وسخرية قال: إيه يا للدنيا كيف تبدل من «الوكي سترابك» إلى دخان «الناعورة» ومن الجوليوني وكر إلى عرق الكبريت.

واستمر يمز رأسه بحسرة.

وقلت في سري: وقيل أن أرى. من الست زينب إلى الزمرة، ومن الزمرة إلى باريس ولندن، ومن باريس ولندن إلى البرلمان، ومن هناك تمت مقايضة فلسطين واللواء، بالوسكي والنساء والوكي.

وتابع أيوب: الزمن خائن. يوم معك ويومان عليك، وأمينة كانت مع الزمن علي.

كان الجو ثقيلًا ككتل من رصاص، وأيوب بدأ يدخل بوابة هذيانه، وخيل إلي وأنا أشهد اهتزاز العضوي، أن مراكزه العقلية تهتز هي الأخرى فاقدة أية قدرة على التركيز والهاكمة وضبط الأشياء.

في ساعة متأخرة بعد أن أوشك الشجر والقرف على الانفجار في عروقي، غادرته وأنا مزج النفس بينه وبين قفادي لأمنية.

المدينة هادئة، شجرها ساكن. أحس الصمت يتغلغل في روحي. إيقاع الخطوات متعب والصدر ضيق. هي الأخرى رحلت أخيراً ولم تترك كلمة. ربما بلا ندم. لعلها اكتشفت في النهاية سر اللعبة بيننا، انعطفت في طريق جديدة لا تعرف إلى أين تقودها. الآن أتذكر جيداً أحلامها القديمة عن السفر والبيت الجميلة الموثقة والسيارات ورؤية العالم الشاسع المسكون بالفرح والحرية.

كان ذلك في ليلة نحاصمتنا فيها. لامتني لأنني أعترتها ضجعية في الليالي فقط، وأذكر أنها طلبت مني أن نذهب معاً إلى البحر ونمضي أيامنا هناك بين الشاطئ والريف، وأنها منذ زمن طويل تحمل برحلة كهذه معي، وفي تلك الليلة اعتذرت ووعدتني أن يتم ذلك في مستقبل قريب، وفي تلك الأيام كنت أعاني حزناً داخلياً سببه حالتي المرضية مع منى، وجهتي بأن رقصي يعود إلى خجلي من الظهور معها أمام الناس باعتباري فتية وهي في سن أمي. وزادت قائلة: إنك كن لي احتقاراً دفيناً لأنني أخون زوجي. وجاهدت حاولت إقناعها بأنها تتوهم أموراً غير موجودة، وأن الموضوع لا صلة له بالاحتقار، وحاولت بتبسيط ممكن، إفهامها عجزني عن ابتناء صلة دائمة، وأن حياتي سلسلة من الفوضى وعدم التركيز، وكنت ألح بذلك إلى استحالة الزواج منها أو من أية امرأة في العالم لأنني لست سويّاً كما يعتقد الأطباء والناس. وائر ذلك حدثتني عن شاب ثري يهجم بها منذ زمن، وانها تصده وقد عرض عليها مالا وسيارة، وهو على استعداد لاصطحابها معه إلى نيويورك حيث سيتم هناك دراسته الجامعية، وقد رأيت أن تعرض الأمر علي لأفهم بأنها ترضي من أجلي بأحلام لا ترفضها امرأة في عالمنا.

وفيها بعد بمسرحية مضحكة، حاول الشاب الانتحار ليثبت صدق حبه لنا. لقد جرح إصبعه بطلقة مدس صغير. وإذ قالت بأن أيوب هرع إليه وضمد جراحه، أدركت أنه الطالب الذي جاء به أيوب وأجره الغرفة المجاورة لغرفتي. وفي تلك الليلة اكتفيتا بقبيلات مينة ومداعبات باردة وكنا كتيبين، ويومها على غير العادة خرجت من غرفتي باكراً.

هي ذي الشوارع تمتد. خارجة من شبكية الذاكرة إلى شبكية العين. تثير المرارة وحسّر فقدان. فوق هذه الأرضة قدتها. تبعثك كما يتبع عبد سيده. خلفك صعدت سلام مجهولة والخوف منبس في خطواتها، وإذ كانت الأبواب ترتج تلقت. خائفة داخل الغرف الغريبة. تسأل: أمتأكد أن البيت خال؟ وإذ تجيبها: اطمئني. تنفّس روحها المرصودة بالخوف. تقدم نحوك مادة ذراعين ناعمين

لها ملمس حرير فخم. بكل جسدها تحويها وتضغط فتحس بأن أفراح العالم تطوقك الآن.

في آخر لقاء كان سلوكها غريباً، فلأول مرة شربت خمرًا حتى ثملت ومن عينيها شع فرح لا مثيل له، وعبر ثرثرتها قالت بأنها ستقدم لي هدية جديدة من النوع الذي لا ينسى. كحلّم ثائي الحادثة. حلم لا يصدق يخرج الآن كجرح على شاشنة الذاكرة. لقد بدأت التعري كما لم يحدث في تاريخ علاقاتنا، وبعد أن انتهت تقدمت نحوّي وهي تبتسم، وراحت تفك أزراري حتى عرّني. وجهاً لوجه عارين. تناولت كأسها وناولني كأسي، جسدي يوازي جسدها ويلاصقه. رفعت كأسها عاليًا وقالت وهي تضحك ضحكة غريبة: نخب العري، وشربت وأنا مأخوذ بحالتها. وإذ أخذت ترقص ممسكة بيدي ملتحمة بي مبتعدة، بدت كأنها أصابها مَس.

بعد أن أنهكت بالرقص والدوار في مساحة الغرفة الضيقة، استلقت أرضاً وكانت ثلثت وجسدها يختلج وتداهاها يخفقان في مهب ربح الجنس، وإذ تباطأت في الإقبال عليها، انقلبت على بطنها وراحت تصدر أصواتاً شهوية موجعة، وكنت مشدوهاً وهي تتحرك أمامي. نخبو على ركبتيها وهي ترتعش كمن يحتضر، وأسمعها تنتم: أعرف أنني لا أستحق. أجل أنا تافهة ومنحطة.

وأقول: أنت مخظنة. أنا أرى فيك ملكة من نوع خاص. وصرخت: لا. بل أنا أخقر من ذبابة. وبدأت تنشج بشكل مثير. وتقدمت منها ومسحت دمعها. مشّت أنا ملي فوق ظهرها الياقوتي، ونحو ضميمتها وكنا نخبو على البلاط البارد، واستلقينا. ولما تجاسدنا انبثقت منا رماح من نار، وفي ذلك النهار تعرفت فيها على معنى الحياة والموت وكأنما لأول مرة يولدان من جسدينا، ويومها كانت فرحة حتى الأفق، ولم أكن أدري أن تلك اللحظة المباغنة ستكون الأخيرة. ونحن موبغان أخبرتي أن كل ذرة في جسدها ستظل تذكرني وقالت سنستائي يوماً لكي لن أستطيع أن أنساك.

وفي حالة بدء الصبح، تحدثت بأنها لم تكن تتصور أن الخمرة تثير إلى هذه الدرجة وقلت: ليست الخمرة فقط. وأشرعنا ضحكين، ولم تكن ضحكنا كاملة، وعقيت: الآن نفهمين لماذا كنت أتيك مخموراً في الليالي الماضية.

وفي ذلك اليوم بقينا معاً من الظهرية حتى المساء في بيت أحد الأصدقاء، وفيها بعد أدركت أن غياب ذكر أيوب والزواج، كانا من أسباب الفرح في نصف النهار ذلك.

ها هي الآن في هذه اللحظة مجرد ذكرى مضت، بعد أن داومت عليها كما بدوام رضيع على ثدي أمه. والآن أنت في فراغ دمشق تطوقك النعاسة التي تقدم غب كل الأفراح. تعبر الشوارع القديمة التي عبرتها مئات المرات وذهبت عابق بحكايا مضت تخرج مع هبوب ربح الياسين. تدور. تدور. لافاً منعطفات لا نهاية لها. وتحت الشبايك التي عرفك تمرّ ولا أحد يعرفك أو يشعر بوجودك. غريب غريب وروائع الياسين تحملها ربح رحاء. والروائع تذكر بما مضى فيأتلق الحنين إلى الجسد الدمشقي الذي غاب الآن، وفي ليالي الشتاء والأصباغ الرطبة كانت المولل والحضن الأمومي بعد أن اجتث الزمن وطن الطفولة.

غريب وحزين، كما ينبغي للغرباء والخراني أن يكونوا في مثل ليلتك هذه.

والمكزون وأبا نواس والشيرازي، معتقداً أنه بين أناس يرجعون من ليس على شاكلتهم.

ومن الوظيفة إلى البيت، ومن البيت إلى الخارة والشوارع. وزمن العربي ليس ملكه. ملكه الريح. ومعه سهم ورمح، والحرب ساحتها النفوس التي سمعت صوت مناجم يبن: «سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بنامها إلى الأبد وسوف يبنى الهيكل وتشرق الشمس ثانية على بني إسرائيل» ثم ما لبث أن نسيت. وفي الشوارع والختارات والبنوك والفضضاء وأحضان النساء، راحت تغرز رماحها. وتساألني متى ما الذي تفعله في أزمنة الخن؟ فأقول: أثل وأغني. أشاهد وأناقش وأنوح.

تقول هازنة: عربي مثالي.

ولما حاولت الدفاع عن نفسي بأنني أعزل وحيد، خسرت وطني في معركة لم أنضها، وإن حركة التاريخ تدار من القمة وأنا لست أكثر من حجر شطرنج، سألتني: لماذا لا تعود من حيث أتيت أو تنتحر؟

وقلت: لكن الاغتراف يحدث باسمك.

واعترضت: أنا خارج الأشياء مثلك.

وقلت: دعينا إذن نهرب إلى الجبال لتعيد صنع العالم بطريقة جديدة؟ هزئت: يا غلام، الشعراء لا يصنعون العالم. وإذا سألتها: من يصنعه إذن؟

ابستمت. ضغطت أسنانها ثم مضت.

وأنا مستلق على السرير، هوم على شاشة الذاكرة حلم الرجل الذي قطع أصابعه الخمس، مخاطباً أي: ملعونون. ملعونون أنتم. ملعونون حتى قيام الساعة. فيها بعد مات بالسلم وكان عراف نفسه، والذين سمعوه كانوا من سلالة أيوب.

وأيوب السرحان يسألك أن تعمل له شيئاً لتعود له أرضيه. ها. ها. والراصص لماذا يطلق بغزارة إذن؟ والدم لماذا ينبغي أن ينبثق؟ وهذا القتل اليومي لماذا تُشرع راياته بين عبس وذبيان؟.

الموس والكابوس ولوثة الحس. مبر البقاء ونقيض الموت. كل هذه المسيمات تختل في إسم واحد: منى. معنى جميع الأشياء. كما يستوطن السرطان جسداً ثم يتلفه بعد وقت، هكذا كانت هذه المرأة التي حلمت بها مذ غادرت وطن الطفولة ويُسَمَّت شطر دمشق. مرة واحدة رأها راني فأخذ بها. قال عنها فيها بعد: هذه نقيض جميع العصور المنحلة التي نعيشها. ولأنهم مشهورون عرفتهم جميعاً: شعراء وضباط ومديرين ولاجئين وفلاحين. باسمها تحدثوا في مجالسهم وباسمها عُرفوا. وأذكر يوماً أنها صرحت لي: أنا منتهمة بعلاقات مشبوهة مع الآخرين لكني أؤكد لك أنني بريئة من كل ذلك.

وتحدثنا عن راني بعد أن صارحت برأيها فيها، فابستمت ووصفته بأنه إنسان طيب وضعيف، يعيش قيماً تجريدية معرضة للاهتزاز والتناقض لكنه ككل المحققين، دعيّ وجبان. وحاولت الدفاع عنه: راني جاع في طفولته وحرّم من الحنان. فقالت بمجانبة لا متناهية: عندما يشع ويعانق ليناه من يفسن أنه لن يكذب ويخون؟

في ذلك الغروب كنا معاً في مقهى الشعوع، كانت الأضواء خافتة، وقربنا كان عشاق مراهقون، وجوههم متحاذية تهمس كلمات مبهمة عن الحب. وسألتها عن رأيها بشخصي فقالت بأنني حالة مرضية خاصة: مزيج من الفوضى والحرية ووردود الفعل والغضب. وابستمت وهي تلخص: الحق أقول لك أنني لا أفهمك. إنني أنسام أحياناً ما هو الوضع الجديد بين التمرد والثوري؟ وأذكر أنها عانقتني وقالت: قبلي على خدي. وإذا سألت لماذا الخد. قالت: آدم يقبل ميسالينا على شفتينا.

عزّة حالة هذا المفقود. العربي المهجور وقد ضيع قومه وضعوه. وعجز أكثر ذلك الرجل الذي قتلته الشمس والتعب، وعاشر صمت الليالي وقرأ ابن الفارض

فانبطحت على السرير. فكرت بنى وأمية وسامر، بدمشق والعالم، بجاني المُرَجحة بين الممكن والمستحيل. وفي سمي ضج صوت السيناتور منحبح ييغن مرة أخرى. كانت دمشق خارجاً. تسير بمشينة أخرى، ولم يكن بيتي في دمشق ولا هناك، وغمرني حس الغربة صلباً قاطعاً كشفرة موسى، وقال الذي ليس أنا: لم يكتمل الوقت والجسد بعد. ورن جرس الباب. فاجاني وجه سامر البدوي. سلم بشمته وهو يتقدم عابراً الصالون نحو الحجر. دارت عيناه في الفرفة: أهذه غرفتك؟ وعلى وجهه ارتسم اشمزاز.

قلت: وماذا فيها؟

- تشبه السجن.

- أنا أتمس من سجين.

وسأل إن كنت وحدي وتناول لفاقة وطلب قهوة وكان منشرحاً. وسأته لماذا أتى في هذه الساعة فضحك: لدي أخبار سارة. وسألني رأيي في قصيدته الأخيرة التي قرأها في الواحة فقلت: كانت سامرية كالمعتاد.

- ماذا تعني بـسامرية؟

- إبحار داخلي في متاهاتك الشخصية.

- إطراره أم تهمة؟

- كلاهما معاً.

وقال: يا أخي أنت مثقف وتذكر جيداً حالة الحلول بين الذاتي والموضوعي بالنسبة للأديب. الشاعر الحقيقي ذلك الذي يرصد العالم من خلال تجربته الذاتية.

وقلت: أولاً أرجو أن تنني عني هذه التهمة المنحطة تهمة المثقف. أنا إنسان عادي يحاول أن يفهم فقط. وثانياً أنا أرفض المركزية الذاتية العاجزة عن الخروج إلى الآخر بإشارات خاصة. أعرف جيداً ماذا تود أن تقول غير أن ما أريد قوله: ان سقوطاً آخر، شيئاً آخر سمه ما نشاء يحدث في العالم خارج ذاك الكريمة. صرخ غضباً: سقوطي رمز سقوط العالم.

وقلت متحدياً: لست العالم على ما اعتقد. دودة القز تموت داخل شرقتها وهي تصنع الحرير.

منى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الحرب أو الانتحار. وعلى نحو مختلف كان هذا يعني الخيانة وأنت لست جديراً بها. والجبان يخالط أحياناً بالتحليل والفسقة، يجارب بالكلمات في أزمنة الرصاص: دونكيشوت معاصر. لا بد أن زمناً غريباً، زمناً مفاجئاً عديم اللون يتقدم. سامر البدوي ساء: عصر الكلاب والسفلة. ورائي قال عنه: أنه زمن المقتلة. أعني الزمن الأعمى. إنه يسقط فجأة على ضحاياه دونما ذنب. ولم يسمه أحد عصر الشهداء. والد مسرور كان يحسه كدوي بحر خفي مني بالهياج، وكانت معادلة ربط الماضي بالحاضر، غير منسقة تماماً في رأسه. غير أنه كان يقول: في الماضي كنا أكثر شجاعة منكم. فالذين تطوعوا في جيش الإنقاذ ودخلوا فلسطين كانوا فدايين تركوا بيوتهم وأطفالهم وأرزاقهم واندفعوا نحو الاستشهاد لا يلبون على شيء. كان مفهوم الوطن واضحاً وبسيطاً لا يحتاج إلى محامكات ومؤتمرات وكلام فارغ. أن يذهب الإنسان إلى معركة ويموت بشرف، بذلك كان يتطهر وينقذ نفسه وينقذ الوطن. أنتم ماذا تفعلون في هذه الأيام السود؟

غير أن ما هو واضح في ذهنه، كان الصدع القائم بين الشجاعة بمفهومها البدائي، وبين تكون الإنسان الجديد الذي ما عاد شجاعاً. كان الصدع في الزمن النفسي لا في الزمن العضوي، وكان من السهل الحديث عن الموت المجاني بتلك التلقائية الشريفة وللحمية التي حدثت في فلسطين وفي تواريخ الأمم. لكن الذي كان صعباً هو كيف نرد بشكل علمي وحضاري على تصريح زعيم حزب حيروت الذي قال أيضاً: «لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ولا حتى للعرب ما دمنا لم نسدد وطننا بأجمعهم حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح».

□

أنهض نشيطاً. جو الفرفة حامضي وكتيب. أفتح النافذة فأفاجأ بجارتي لأول مرة على الشرفة بثوب النوم، تستحم في شمس دمشق الدافئة. شعرها مضطرب لكن النصف العلوي لتدبها بارز فوق حافة الشرفة. وددت لو أرقتي إليها، أعرفها بنفسي: أنا جار تيمس هجرته عشيقته والآن وحيد فهل يمكنك إيناسي؟ سحجت أسناني قرفاً وجارتي تنسحب مرثجة الباب بعنف إذ رأيتني أرنو إليها. شعور بالقوى فاجاني وأنا أعب الصالون. انجهمت نحو المطبخ ورشقت وجهي بالماء فازداد حس الغثيان. في المراض تقيأت. كان ذهني مشوشاً، وشعرت بأن لا شيء يعمل

وبدا محاصراً فقال: ينبغي أن أرحل. أنت لا تطلق. وقدف أمي بشتيمة قدرة.

وقلت: ترحل أو لا ترحل هذا لا يهم. ما يهم أن عليك أن تتعلم الاستماع إلى غير الإطراء الذي يقدمه الكذبة والفريسيون. أنت شاعر بالإحساس لكن جيوبك مليئة بالرايا. تركته مختماً ونهضت أعد له القهوة وإذا عدت كان يتصفح أوراقي. ابستمت هائلاً وأنا أقدم له القهوة فرنا نخوي مستهفماً فقلت: غريب! منذ متى تقرأ دفاتر الآخرين؟ شتم. دخن بعصية. احتسى قهوته. وأطلق خبره السار: طلقت اليوم. وتحدث عن فرحه بالخلاص من خيوط العنكبوت، وأنه يشعر الآن وكأنه خارج من مشفى، وأخبرني بأن تلك مخلوقة التعيسة كانت على حافة الحنون، وقال: بأن الحب حالة مرضية عائرة ابتليتا بها سوية في صباح ما في الجامعة. لا نستطيع أن نتصور ذلك الحب الذي كان. الجامعة تحدثت عنه لسنوات.

وصمت. كنت أتملاه. في عينيه حزن وتعب وفي وجهه صحة. وهو ينهض عن كرسيه كان يضع يده على قلبه: كيف حدث تبدل من أقصى الحب إلى أقصى الشفقة والازدراء مع المرأة نفسها؟ أي ترميز يفعله الزمن في النفس؟ وتحدثت عن ولادته الجديدة في هذه السن المتأخرة، وتساءل إن كان قد بقي له زمن بعد هذه الرحلة الشاقة، ثم تحدثت عن الإنسان الذي يشبه الشجرة: أنا الآن أشبه السديانة الهرمة. يوماً أثر يوم أحس بجدوري تنقطع. وانعطفت أكثر نحو الوحش الذي يراه في الحلم واليقظة والذي يسري في دمه، وعلى قلبه ضغط أيضاً: في الختام تطلقاً جميع الأضواء. أية مسرحية مفاجئة ومضحكة! وما كان متوجاً بالكآبة كما هو الآن، وبعين أخرى لحت وحش الموت يستل الرغبة من بدنه، ولم ينتبه لرشة أصابعه وهو يتناول القهوة، وكنت متأكداً بأنه لو لمح ذلك لتناول فأساً وقطعها ورماها إلى كلاب الشوارع.

لست ذاكرةً لماذا كان لقائنا جافاً في ذلك الضحى. إنني أذكر جيداً حديثي الآخر معه حول ما سميت التوازن الخاطئ للتلازم مع العالم، وإن هذا التوازن لا يحس إلا بعد فوات الوقت، وأذكر بأنه قال: حتى أنت تهتم؟ وقلت ما معناه بأن الحياة في أصلها ربما كانت خطأ، ونحن واقعون في بئر هذا الخطأ من الأساس، وأنت عندما حاولت الاحتجاج على هذا الخطأ وقعت في خطأ آخر، وكثيرون لم يفهموا لماذا طعنت بقسوة رحم العالم المقدس وجعلت من حياتك جحيماً ومظهوراً داخل جسد واحد. وإذا تحدثنا عن أمور كبيرة لها صلة بالتاريخ احتج على فكرة:

بأنه ليس أهلاً في هذا الزمن لأن يسهم في خلق التاريخ. ثم أضفت. أعني ربما كنت سابقاً في الوقت. وربما تصلح لزمن آخر غير هذا الزمن. وقال: أنت تدبيني إذن! فقلت: أنا أحاول فهمك فقط، وإذا حاول أن يعيد أسطوانة الرغبات التي تنفجر في الداخل والتي تبحث عن مخرج في عالم مسدود، وإن الإنسان إما أن يعيش كما ينبغي أو يتنحر، قلت: كلنا نخطئون على ما يبدو في هذا العصر.

وبشدة رفض ذلك، وتحدثت عن الثورة ضد القيم الكاذبة والتاغلة في دماننا: الصدق مع الذات هو الثورة، لكن الغباء السياسي قاصر عن فهم مثل هذه الحالة النفسية. يريدون أن يجعلوا منا ثوريين بمضمون كهنتي وهذا ليس مناقضاً للحقيقة الثورية فقط، إنما معادٍ للوجود الإنساني في العالم. لكي أكون ثورياً ينبغي أن أكون أنا بكل العري المطلق من الداخل والخارج. وبألم حكى عن شعوره بالنفي، وانهم هددوه بالفصل من الحزب إذا لم يغير حياته الفوضوية، وقال: الحزب في دمي ماذا يبقى لنا بدونه؟ الحزب أبي وأمي وزوجتي التي أشتي الزواج منها يوماً بعد أن طلقت. وأذكر بأنني جابهته بأنه ليس جديراً بالحزب فامتعض. شتني واتهمني. وإذا حاولت توضيح فكرتي عن الطبيعة المناقضة لتكوينه النفسي مع طبيعة الحزب، وإن ثمة فرقاً شامعاً بين المناضل السياسي الذي يتجاوز رغبته الذاتية وبين الشاعر، هزئ من فكرتي، كما أذكر أن أصواتنا ارتفعت أكثر مما ينبغي حتى أن جازني خرجت مرة أخرى إلى الشرفة تستطلع الشجار. كان غضبه قد وصل إلى أقصاه، وبدأ وجهه في لون النار والرماد عندما بدأ بصرخ كحيوان مطعون ويضرب الطاولة بقبضته المتوحشة. أثر هياجه صمت. لم أنبس حرفاً. فقط استلقيت على السرير أحقد في السقف. وإذا صفق الباب بعنف سمعت مقطعاً من جملته الأخيرة: كلاب. أوباش. كلكم هكذا!

فوق عظام تأخت الآن مع التراب وائلحت فيه ، وغير باقة من ربحان توضع فجراً فوق حجارة القبر في مواسم الأعياد وفي المساء تذبل وتموت .

ونسير ، كأن حلماً بلقنا ، مأخوذِين بهذا العبور الزمني الأخير ، تأسرنَا معاً تلك اللحظة الغفل التي ظلت مغلقة منا فلم نغسك بها يوماً ، والتي كان يمكن أن تكون بريق توصلنا المركزي الذي انفجر الآن .

هل قلت أن أصابعنا كانت مشبكية في عتاب سري ، وإن زندي طوق خصرها النحيل على الأرصفة ، تحت بريق الضحى ، والناس يرمون بنا ونحن لا نرى غير حلمنا الوادعي الأخير؟ كل هذا يضاف إليه عناقنا وقلباتنا الشمسية لا تحدياً ولا تآزراً ، إنما شعور عفوي صدر منا بغتة في تلك اللحظة الخاطفة . آه كم تمنيناها أن تطول ، وتطول ، لتدحر كل الحزن وكل الفصام اللذين قطعنا نفسيهما بسكين أحد من الموت .

كم طالت المسيرة؟ كم كلمة ألقينا؟ متحاشين الحوارات العقيمة الماضية . كيف اخترقنا جدار الزمن الذي كسرنا في ختام اللعبة؟ كل ما أذكره بعد ذلك أننا أتمنا مراسم الحلم في غرفة مضيقية فيها سرير أبيض موشاة بستائر برتقالية ، ففتحنا نوافذها واستلقينا على السرير عارين ثم انفجرنا في نسيج حارٍ وطويل .

(شاطئ) مرمل ومعبش . البحر هادئ يسبح فيه أناس لا أعرفهم . بناء شامق قرب البحر يشبه القلاع القديمة . داخل البناء مظلم ورطب تذكر هندسته الداخلية ودهاليزه بسجون القرون الوسطى . البناء من الداخل ضيق ذو طابقين وأنا في الطابق الأعلى . ثمة سلّان متقابلان . يوديان إلى أسفل حيث يقوم بئر عميق مظلم وأنا محاصر داخل مساحة بمحجم السحن وخائف . امرأة تقف على سلم خشبي . أراها تضغط شيئاً ما فيساعدنها السلم على التزول إلى أسفل . أصرع للمرأة النازلة أن تساعدني في الهبوط . تنظر غوي بلا مبالاة وصمت وتحنني . بعد حين تصعد من السلم الآخر امرأة أخرى « النساء يبدون كعمراضات في مستشفى » .

المرأة الصاعدة ترتقي بيسر السلم البشري «أحس داخلياً أنني عاجز عن هذا الارتفاع السهل» بعد أن تخرج من فوهة البئر ترتقي درجاً لسلّم خشبي أنا أفق في أعلاه ، خائف من السقوط فأميل إلى الجانب الأيسر بحيث لو سقطت فعل السطح الداخلي للقلعة . بعيداً عن فوهة البئر ينظر المرأة الأخرى ترتدي رداء أبيض . أناوب النظر بين المراتين فيزداد دعري «أحس كأن شيئاً مريباً ضدي سينفذ بعد حين» تبادل النظر ثلاثتنا . تسحبي قوة خفية وأغيب في ظلام مسدود .

ذلك اليوم لاينسى : أنصوره الآن في تلك البقاع الشديدة الحساسية من ذاكرتي ، ملوناً ، عاصفاً ، محضوياً بالدمع والشفوه . كنا نسير في الضحى تحت شمس دمشق ، وخريف المدينة بذلك الهبوب الحزين لنسائمه يسبح وجهينا ، وثمة حبات من العرق راحت تولد تحت الجلد الذي أتعبه المسير .

في البدء كنا نتوجه نحو بيتنا القديم ، وهناك في ذلك المكان المهجور ، كان علينا أن نقيم الطفوس الأخيرة لحكاياتنا التي ولدت وماتت ، ثم سجلت في أرشيف الضمير الزمني للمدينة التي لا تنسى . برغبة لا شعورية صدرت الأوامر لخطواتنا كي نغير الاتجاه فانعطفنا نحو الدروب القديمة . بدا بيد تارة ومطوقين أخرى ، وفي الأعماق نشيد من الفرح الجنائزي يجبو فوق نلال نفسيهما الكسيرتين .

ونحن نطوف داخل كعبة الذكريات ، كان الصمت يرتل النشيد ، تحرقه بين حين وآخر إيقاع خطوات الرائدة الهامسة بالوداع ، والحركات الموجعة للأصابع وهي تسري مع الأصابع ، ولراحتي اليدين الملتحمتين المسترعتين ، والمدانتين كبقايا أوراق شجرة داهما شواء عاصف .

بومبي وغير وعي عبرنا فوق جميع الأرصفة . مست أطراف شعرنا الذؤابات المتدللة لصفصاف بردى ، قطفنا زهرات ياسمين كانت رواحتها قد امتصتها أشعة الشمس . تعرفت داخل كفتينا ثم ما لبثت أن ذبلت كريش نورس طعن للتوفهوت فوق الأسفلت . ذاكر الآن كيف كانت تلك الجائزة تنج نحو المقبرة وليس خلفها إلا بعض الفقراء من الذين أحبوه ، رغم أعاصير غضبه التي كانت تنجناح كل شيء عندما تهب . لقد مددوه بعد الغسل في تابوت خشبي عتيق وكفنه ، ثم تهدجت أصواتهم متغلغلة عبر البيت المترب المدعم بالحطب : وعنت الوجوه للحق القويم وقد خاب من حمل ظملاً . الله حي . الله الباقي . آجروا يا أخوان . آجروا . وفوق الراحات حملوه . من كل تاريخ ذلك الرجل لم يبق الآن غير تلك الحفرة المردومة

في الحلم نفسه أرى البحر مرة أخرى. القلعة اختفت. في البحر سفن عربية. لقد تحول البحر من سكونه إلى وضع مضطرب هائج والسفن تشقه. أهجس بأن إسرائيل ستغير بطائراتها على السفن العربية لتحطمها في موانئها وبذلك تشل عمل الأسطول البحري. أسمع دوي طائرات مغيرة. أرى السفن تفرق وتغوص إلى الأعماق. الطائرات العربية تشتبك مع طيران إسرائيل. جنود عرب على شاطئ البحر. بنادقهم مسددة وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً. أعرف بعض الجنود. أصيح بهم ألا يطلقوا النار علي. نتعارف ونسير باتجاه البحر.

أعود إلى وضيي في القلعة ومعي حطام بعض الطائرات داخل سطل كبير. أعتقد أنها حطام طائرات إسرائيلية (لا أتذكر تماماً). أقف في نافذة القلعة. على الأرض أرى ممرضة كأنها قادمة لتناول السطل. أقذف به نحوها فيرتطم بالأرض محدثاً ضجة. يتناثر الحطام فإذا هو جثة داخل كفن أبيض. أراني قرب الجثة والممرضة تنزع النظرييني وبين الجثة. فجأة اسمع رعداً ساوياً تهتر القلعة منه. تميل ولكنها لا تسقط. أحاول أن أجري فلا أستطيع. الرعد يزداد وأنا في مواجهة البحر. موج البحر كالجبال. الأفق الأسود. الموج يسد المدى. يقذفني موج البحر الغاضب فأغيب في اللج. ثم لا شيء).

عندما استيقظت، كنت وحيداً، مغطى حتى نصفي. الغرفة مغلقة والستائر مسدلة، وفي فراغ الغرفة يسبح صمت جنائزي يشي بأصداء امرأة عبرت هذا الفراغ ثم مضت، مخلقة رائحتها ودمعها في ذرات جميع الأشياء القائمة هنا. ومع أنني كنت مُهكاً مشوشاً بالكابوس، والنفس قد ران عليها غيش من مرارة الفقد، غير أنني كنت في تلك اللحظة في أكثر الحالات تركيزاً وهدوءاً. كنت قد خرجت الآن من المعركة كجثة الكابوس وكانت غبطة غريبة تهزني. غبطة المأساة المتخفية وراء جميع الفواجع، والتي تفاجئني بنوع من سلام هادئ لا لون له ولا طعم ولا رائحة، سلام ساكن يقول جملة مبهمة: وأخيراً انتهى شيء ما.

على مهل نهضت. ارتديت ثيابي. على الطاولة تحت دفتراها. تناولته. ومن جديد استقبلت نهار دمشق الكائي.

الفصل الخامس

فوق المشرحة ممدد. نصفه الأعلى عار. مجلل هو بملك الموت وقلبه ساكن
كحجر في قاع بحر. وحده يموت ودمشق لا تبلس حدادا، لكن عينيه المادنتين
وسكينة وجهه ترسمان اشارة الاستفهام الأبدية: لماذا يموت الانسان ؟

وفي عصره كان اميرا. من سلالة اعترضت الحياة جاء. ابتغت ان تقول شيئا
خاصا لكن الزمن حكم عليها بالسقوط، اخترقها كالرمح من الخاصة الى الخاصة
اذ تصدت لقانون الزمن. هوذا راقد شاعر الوقت الملعون. شاعر الجسد والأزمة
الراحلة. فوق البلاط البارد مسجى وفي الجانب الأيسر من صدره علامة طليقة مرت
عبر الأذنين، مزقته ومضت، لكن الجسد ما زال حاراً تحت اصابعي.

فوق الجسد الذي تألق في ليالي دمشق زمناً، تقف الزوجة التي كانت وحدها
تنتحب من بين كل النساء الدمشقيات، ووحدها المرتدية سواداً يحاكي سواد العصر
العربي. وحول الجسد ايضا رجال غرباء صامتون، وممرضات مُحجَّلَات بالصمت
والخزن. وفي الطرف الآخر من المدينة نقيم منى، نعرف من المسجى لكنها
لا تقرب. نعرف القتييل والقاتل وتندثر بالصمت والخذلان.

عن شجاري الماضي اعتذر واصابعي الخمس تلامس وجهه، وتمسح صدره
العاري العريض المكتنز: هو هنا الآن اذن ! شيء آخر مختلف تماماً. بل هو
نفسه. بهيته وأبهة جسده الذي مال أخيراً وهوى، وغير الحركة لا ينقصه. لماذا هو
هكذا غير ما كان ؟ أي خطأ يكمن فيه ؟ لماذا لا يقوم ؟ لماذا لا يكون العازر ؟
- باسم الآب والابن والروح القدس أدعوك ان تقوم. باسم الحزن ودمشق
أدعوك.

يزداد شهيق المرأة. يرتفع غفرانها فيرميها فوق الجسد الأبيض. يتغطى الجسد
بكآبة المرأة وتروح شفتاها تلتان الصدغ والوجنتين والشفنتين والعنق، ثم تجمدان فوق
بوابة الطليقة.

في الخارج طلاقات. دمشق محلة، تزغرد محفلة بأعراسها الموسمية. للتاريخ تقدم ابناهما وامرؤ القيس مقتول. والثأر بلد ثاراً حتى في القرن العشرين، ومناحم بيغن ينادي: «هذا زمن سقوط العرب وانحطاطهم». والذي اصاب سمعه الوقر يتخفل في بيته، يحضر رغبته ليطلقها عبر جسد ديانا المولع بالبروكار.

- اسبوا نساء دمشق رداً على سبابا بابل. يهجس جبل السيناتور مناخم.

وسامر البدوي ارتاح، كما ارتاح وائل، لكن المدينة المتعبة ما زال يسكنها الرصاص والثأر: هل ترتاح دمشق يوماً؟

- «هذا عصر الجنود لا عصر الشعراء. تمّ يا البازر تمّ. فلسطين لا تريد مسيحاً في هذا العصر الدامي». وأغادره شارفاً دمعاً تود ان تغفر، فتلقاني الريح. وحيد. دمشق انوارها مطفأة. صمت الليل يسري في شرايينه الفزع والتوجس. وبين لحظة وأخرى تمزق وتين الليل والصمت طلقة. انفجرت دمشق أخيراً. فزعا اجتاز بوابة الليل. ولا أمان. بنادق سريعة الطلقات يتأبطها الجنود. والأحذية الثقيلة تفرع الاسفلت بفتحة العمياء بعد أن تلقت الأوامر باحتلال المدينة الآمنة.

بيت مسرور كهف امان. انسرب وخوفي فوق الدرج وسريعين تضغط الجرس بتواصل. تسحب سقاة الباب. وجه ديانا يطل كمنارة لسفينة ناثية، ومن الداخل يأتي صخب وموسيقى.

ملئاً والبصر في البصر. وجه مشتعل مقابل وجه تابوتي، وبينها رغبة قديمة مكبوتة: أهدأ أنت ! ؟

ترنح على العتبة. تسمر لحظة: انت ثمة ؟ ورويداً تغلق الباب. لاشعورها سيد حركاتها. طاغيا طفا الآن، وكلانا في الخارج، تحت الدرج، في العم. كيف مزقنا ستارة الخوف التي ارتفعت كل تلك الشهور فأخفت وجدنا الذي اشتعل الآن ثم أتحدا ؟ وقالت بانها جاهدت كثيراً لتلا يحدث هذا الشيء، وشعرت بدمعها الحار ينسكب فوق صدري، وفي الظلام سمعت صوت انتخابها واذا قلت لها: هذا لم يعد ينفع. قالت: لكن هذا مؤلم لمسرور. مؤلم !

وانا أزيح صورة سامر، وما يحدث عبر شوارع المدينة المتوجة بالرصاص، حاولت تهدئتها بان ما حدث لم يكن أكثر من تجسيد لما في الذهن، وان ما يفرع في الأمر قد تم منذ زمن طويل عبر الأحلام. الى صدري ضمنتها فعادت رائحتها الأولى تنتشر في جسدي. وطويلاً قبلتها قبل ان ندخل.

ناس وضجيج. رقص عشوائي. وموسيقى. يزعق مسرور وراني بشنينة ويطوقان عني. ارسوم ابتسامة ميتة، واطوقها ثم تسقط الأذرع منسجبة على سجينتها بعد احتفال الكذب المفاجيء.

الرجال والنساء يرون نحو الغريب الذي ولج فرحهم فجأة. للحظة ويعود النسيان واللامبالاة. ويستمر كما كان. ثمل مسرور حتى العمى، ينتقل من امرأة الى أخرى مستعرضاً فضله العنصري في اتقان الرقص، وهو يصيح ويلع ويلع ويهبط، ثم يدور لكنه لا يقرب من ديانا.

يتقدم راني نحوي. يجاهد ان يكون مستيقظاً، ويوشوشني: لحم. لحم. قُم واغرف. العالم مُحِب. لم يبق الا اللحم.. انبسم لكلمته. واشرب نخبه ونخب اللحم: استمر في فرحك ودعك مني.

ويقتل فارشاً ذراعيه ويبدأ رقصة مشوهة عن «الفلامنكو» الاسبانية. يجاذي امرأة فيطن مؤخرتها، ينخطأها آخذاً بكلتا ذراعيه ظهر أخرى، وفجأة يقف امام ديانا. بكآبة ترفع رأسها رفضاً. في وجهها أرى الذل والحزن. تنسكب العيون في العيون عبر الصخب والذل، فيأخذني تيار راعد بأننا خننا مسروراً في النهاية. هتز سؤال: لماذا حدث ما حدث ؟ ويقرب مسرور مني. يتاولني كأسه: اشرب يا ملعون اشرب. الخمر هي الله.

اشرب. وهو واقف فوق كشجرة عملاقة، وانا مكؤم في الكنية اشعر به كالضمير. أسأله: هل شربت ديانا كثيراً اليوم ؟ هتز وهو يضرب ساقيه بالأرض: شربت حتى صارت تهذي. واستطرد: ذكرت آلاف المرات. على اياك اللعنة وعليها. وأترع كأسه حتى القطرات. قال وهو ينحني فوقي: اسمع جيداً لكن لا تقل لها. ديانا لا تحبني هل تفهم ؟ انها عاشقة وتحتاج ان اقلنها. هذه حقيقة انت لا تعرفها. هُش.

على في وضع كفا واصبعا على فم: انها تتق بك ولكن اياك ! وانقلل يعني: والرمل مايعجب/والشوك ماينداس/والسر ما ينطعي الا لناس وناس.

نحت المسيح المصلوب على جدار القبو، وقبره المرأة الرونزية العامرة بالشهوة مستلقية على بطنها شباب البحر، فتذكرت امينة في آخر لقاء.

فقلت : الليلة .

يخرق ناي رائي الحدران . ناي فراي وحيد . يغني لنا ولصور المستقبل ،
ناسيا الفشل العظيم القادم .

وأسأل ديانا : لماذا عليه ان يغادر دمشق ؟ فقول بسخريه : لبشترك في الذي
يسمونه النضال السري والعمل الفدائي .

على وجهها يرسم اشتمزاز ، واغبرار جاف .

وانا اعيد ادارة القرص اقول لها : عليك ان تتحملي . رفاقه سبقوه .

- أتحمل ماذا ؟

- حياة هذا الرجل الذي لا وطن له .

وكمن يشعر بأن شيئاً ما يُنتصب منه ترفض : لكن دمشق صارت وطناً !

وأرؤو البيا ضاعطاً ساعة الهاتف : وفلسطين ؟

- لم تعد تعني مسروراً وحده .

- لكلك ترفضين ان يفعل شيئا من اجلها !

- اما آن له ان يستقر . الى متى يظل يهاجر ؟ تزوجته بعد ان خرجت من

ديني اليه كي نغيا بأمان ويكون لنا بيت واطفال ومستقبل .

- مسرور ملتزم بالحزب . اعطاه نفسه وهو الآن يدعوه للعمل .

- هناك عمل وهنا عمل . لماذا يذهب ويبقى غيره ؟ لن نترجح من
دمشق .

انتهي من المخاطرة وانا اضغط احتقاري . اهز رأسي بأسف . انفض ماراً
قربها . تلفحنى راثحتها . رائحة خائفة . وامضي . في الممر يتلقاني مسرور : أيا
الاباحي كنت تغازل ديانا .

- مسرور هل انت مخمور كثيراً ؟

يرفع حاجبيه استنكاراً . يقتل نصف دائرة ، فيعود الى مواجهتي : صدقتي اني
أحبك . دعنا نرقص سوية تعبيرا عن الحب الصامت بيننا .

- لماذا لا تراقص ديانا ؟

كان الضوء خافتا في تلك الليلة العجيبة ، ومسرور فرح وحزين يرقص مع
جميع النساء الحاضرات . يضاجعهن بخياله منتفها من ديانا ومن الماضي المهيمن .
يرقص بطريقة عرجاء تدعو للشفقة ، واذ يبلغ التعب أوجه برائي ، يتناول نايه عن
المكتبة ، يشبب موالا لأحزانه الداخلية .

يتقدم مسرور صوب امرأة شقراء فاتنة فيطلب مراقبتها . واذ تدعن له
بإتسامتها الغيبة ، بطوقها ، ويستمر رأني موقعا الأسى في فضاء مسجون .

- «كنا نتقدم نحو حيفا كما نتقدم السكين في قرص من الزبدة» .

تنهد ديانا وهي تدخن . وحيدة رمية في فراغ الأريكة وفخذها يلمعان تحت
الضوء الأحمر ، وجلبة الحضور تمنحها . تسألني عيناها : هل كنا آثمين ؟ أشيح
ببصري نحو مسرور المبتل بنشوة الرقص والنسيان ، وبراحة كني أحاول مسح الضيق
عن صدغي .

مسيرة الشوارع عبر الليل الرطب ، ورائحة الياسمين تدخل مسام القلب فتندغم
برائحة ديانا . توقع . والمرأة التي سارت عبر دروب دمشق الليلية ، صارت هاجسا
ينغص النوم والحركة . دخلت بحكم قوانين السير والروائح ، شبكية الرغبة ، والرغبة
قاسية ، ملحة ، تشبه حالة بدوي قتل أخوه والقاتل حي . في ليلة شفاقة قرأت ديانا
مذكرات مسرور الخاصة جداً والتي تتحدث عن خليلاته السريات والآلم المهجرة ،
وعن طفولتها تحدثت بشفاقة لا عهد لك بها ، وكانت ترتدي ثوب نومها الشفاف
المحسور ، وفخذها المسبوكان بمجد تكوينها الخاص ، يبرقان فوق الشبكية . حتى
ساعة متأخرة سهرت معك . كتنا متحاذيين على الديوان ، وحركات جسدها تثير
الوجع . سكبت لك خمرنا وباحت بأسرارها الملقعة تحت تلج الزمن .

في المكان نفسه حيث انفجر غضب الديودي واستراح الثأر ، واثنا عائدان من
المسيرة ، قبلنا في العم وداعبت الزند الأملس ، والوجه المتهقن بالعذاب والشهوة .
وليلنا ارتعشت كغصن في مهب إعصار . جرت على الدرج فتحت الباب وانارت
الممر وجميع الغرف ، واذ حاولت ان تطفئ الأنوار صرحت : لا . لا . ارجوك دع
النور مشتعلاً في كل البيت . سبأني مسرور قريباً . وفي غرفة النوم وأنت تدير قرص الهاتف
أقربت : يطلبون من مسرور ان يغادر . كانت تطل عليك وانت على حافة السرير ،
شبيبة فينيوس . يداها مبلبلتان ولكن نفسها مبتورة ، وفي وجهها ضراعة وتخللان .

وسألنا : متى طلبوا منه ذلك ؟

ولا يجب. مما نرقص بين جدارين ضيقين. في حميا الرقص أسأله: هل سترحل؟

- الى أين؟

- ديانا أخبرني.

- الكلبة.

- لكن ديانا ضعيفة. حاول ان تفهمها.

- افهمها! ثلاث سنوات وانا انام مع جدار. ديانا خائنة. خائنة هل تفهم ذلك؟

- تفهم زوراً. اعتقد انها تحبك.

ويضحك على نحو غريب. فيبدو وجهه ممتعماً. يتحول رقصه حركات تشنجية. رقص اشبه بالموت.

- هل ستفقد؟

تبدأ رقصته بالتخامد. يتعم: لا أدري. لا أدري!

على مقربة منا تقف ديانا. وعلة مقهورة تفجر صبا وعافية، عيناها تنوسان علينا، بيتا يلوح مسرور منهكاً كأنما أخرج لثو من تابوت.

اخطو باتجاه الباب فيقف مسرور. يمسكي بزندي: ما الذي حدث؟

- شيء تافه.

- انت تفادرن؟

- أحس صداعاً.

- آنت مؤذى منا؟

- ابدًا. كل ما في الأمر انني اشعر بالاختناق ولا بد من الريح.

- هل أساءت ديانا اليك؟

- لا. الانسان يسيء الى نفسه.

كان يرتد وفي عينيه المنمكتين ذعر، وهو يرى ديانا ملتصقة بالجدار كمنج مصلوب يحملها حزن واحتقار.

- انتظر!

وبحوية غريبة وُلدت بغتة وثب مسرور الى المطبخ. ورفعت ديانا عينين ذابلتين وارتفع صوت الناي جريماً كريخ في غابة من القصب.

- مسرور...

مع الصرخة انهر النصل في عتق ديانا. ضارعة صرخت ثم هوت فهوى فوقها وراح يطعن النحر والصددين والقلب والوجه، وكاللمع راحت المذبة ترتفع وتسقط والضحية تتملل وترتمش وتفرغ. كبرق خاطف حدث ذلك واذا حاولت ان اسجبه وانا اصرخ: مجنون. مجنون. مسرور. لا. لا. طعني بحركة خلفية خاطفة دون ان ينظر نحو في فأسابني في ذراعي، وتابع طقوس القتل واصابني رشاش من دم ديانا واضطرب العالم عبر بصري، وزجر جرحي أكثر، ودامني دوار واندفعت الى الداخل ممسكاً بالجرح وصحت: مسرور ذبح ديانا...

عندما خرجوا، وصاحوا، وانتهوا، كانت طقوس مسرور الشجاع قد انتهت. في حين كانت ديانا أخرى تختلج فوق بلاط الممر وسواني الدم تنحدر بطيئة نحو المطبخ والغرف، والجدار زركشه الدم، بيتا الفارس يتكئ على الجدار وبين اصابعه المدلاة سكين دمها غص، وفي عينيه انهار.

التعذيب. مات من مات، وقُتل من قُتل كان لا بد من ذلك، لكن هذه الأرض
خصبة لا تموت. دعينا ننحُ بعيداً عن دمشق !

— كيف أثنى بك ؟

— هذا دمي !

ولم تثق بي. ومضت.

رطوبة المدينة أحسها فوق بقايا الدمع وفوق شجر السبكي. اصوات وطلقات
تدوي قادمة من كل اطراف المدينة. وحدي في هذا الظلام الصلب، والطلقات تتر
منقطعة ومتواصلة بين حين وآخر. سيارات مطلية بالوحل والغبار والدم، تمزق صدر
الاسفلت والصمت.

— دمشق تُرَفُّ.

(صحراء لا يحدها البصر، تلوح على شاشة الذاكرة. ظلال قديمة من أزمنة
غيرت. تأتي حادة في صورها التي ترسم، ومتوحشة. لم تكن هكذا في الكتب.
كحكايات خرافية فيما مضى كنت تتذكرها. لماذا تعود الآن بهذا النبض المتوحش.
كالومض تمر عبر عجاج رمادي داخله فرسان يمتطون صهوات خيول رمادية وقرمزية
وصهب. الآن تندمج الطلقات بصوت الصهيل، وحركة السيارات الجائعة فوق
الأرصعة تشبه وثوب الخيل وانغراس حوافرها في الصدور التي تنقصف، فتموت
صرختها مع الدم المعجون بالغبار. الريح القاسية نفسها تسقط رايات وترفع أخرى،
والرمل الأعلى يدرج بين برائته التاريخ والقتل الذين بدوا مصلوبين على أرض
الصحراء، وغير مميزين تماماً. لكنك تعرفهم جيداً حتى الجاهلون الذين نسبت
الكتب اسماؤهم. رأس الحسين المفصول المرغ، يبدو جمجمة يجعلها سامر البدوي
في يده فتتحول دورقاً للخمر. الآن سقط جسده بعد ان تسمم بالخير والنساء
وأفنى الزمن. صار حجراً تقاذفه السنايك، ثم ذرة تضاق الى ركام الرمل المتعرج
هناك عند أفق الصحراء. وحيداً يترنح مسرور، تائها في شعاب الصحراء. ينوح
كوحشي الذي قتل حمزة ضارباً صدره ندماً. يبوي اخيراً ثم يضع بين الغبار
والرمل. ومن بعيد يتأذى صوت ناي مومج يحلو مرثي الحرب. أيضاً توضع الظلال،
وينجلي رويداً الغبار فيبدو سيف أبي العباس، ورمع الثقي أخذاً الرقاب التي حان
قطاؤها، وجلد عبدالله بن الزبير وهو يسليخ بعد أن صلب على أبواب مكة. قبض ابن عفان
مضجُ بالدم يلوح في يد عائشة، ومعاوية يقتصب الخلافة بقوة السيف والمكر. وخيول

— ٢ —

هأنذا في ريح المدينة. محمول فوق زمان عصي على الفهم. في في المראה
والدم، وجرحي يترأى، ومشهد القتولين في ليلة واحدة يكاد يخرج من الريح
والشجر، من الأشياء وتنفسي.

مضوا. والذي ظل، المدينة والزمن.

آه. بالدمشق العريقة بمراسم الدفن !

واحداً تلو الآخر مضوا. كما تمضي الريح، كما يمضي غيم الصيف بمشيئة
الريح.

« نحن الاسرائيليين محكومون بالنصر والعرب محكومون بالهزيمة ». أمير تاريخ
العربي بدور الاغدار حقاً ؟ لكن السوس أين يكن ؟

وانت يا فشل العصور ما الذي تستطيعه لا يقاطئ العربي الغائب ؟

ومن قلب الريح ورائحة الدم تنبثق مني.

امسك بها : خطاة نحن فاغفري لنا. عودي. ما زال في الدم حنين اليك.

أهم ان أروي لها ما حدث. تسرده لي وتقول : ما الفائدة. الا تسمع طقوس
الموت ؟

الساناتور مناجم قال : « كنا نتقدم في حيفا كسكين في قرص من الزبدة ».

تبسم : وسكين مسرور كيف تقدمت في عتق ديانا ؟ شجرة الحور وطلقة
سامر كيف اخترقنا الخاصرة ؟

— سنبداً من جديد وبطريقة مختلفة مني !

— هشمتي العشاق الكذبة. الى الجحيم هذه السلالة.

بعنف رجل يرفض الاستسلام اهزها : مرة اخرى اخرجي من غرفة

هولاكو تضرب بهمجية صدر العراق. يثب الدم من ظهر دجلة. تختلط السيوف بالرماح بالاكباد التي تُلَاق تحت أسنان النساء. ينحدر الزمن، ينحدر. تنقلص الصحراء. تقترب. يدفعها زلزال مجنون. يصل بها مشارف الشام. ثم يتحد الزمن ويتكثف متحلاً في بؤرة الذاكرة).

□

اتابع مسيري وسط دمشق الحزينة. في ممرات الموت. لا بيت. والدعر سيدي الذي يسوقي، وفي سمعي وانني الروائح والطلاقات، والتواييت المحمولة، آتية من كل فج عميق.

كالموت هادئة ذاكرة التاريخ. راقدة تحت قدمي قاسيون. عين مغمضة وعين مفتوحة ابدا.

عبر هذا الجنون اطل وجهه ومعه سفر الزمن القديم: عد الى السهول والأرض. عد الى بيتك القديم.

- انت رجل مات من سنين وانا أرفضك.

وقال: لست جبل الحرية والمطر وقرءاء الأرض.

- من أكون اذن؟

- عابر في تاريخ الدم ولثارات.

- اهذا عصر السناور متاحيم؟

- انت لا تريد ان تكون واقعياً. أنت في عصر الخيانة والموت.

- اغرب عن وجهي ايها الرجل العتيق.

- انا أبوك.

- من ألق عام مات أبي.

- لكنه كان رجلاً.

- كان بدوياً يصلح لمصره.

اسير. انعطفت من شارع الى آخر، ماراً فوق الدروب قرب جميع المحطات التي عرفتنا.

موجة ريح تلتفني فيتغلغل في وطن النفس صفاء مبارك. تحمل الريح رائحة

منى العذبة. أوشوش للرائحة: باسمهم ساعبتنا يا عزيزتي. وفي ليل الرصاص ينحدر الدمع.

المدينة دوي. والنفس تحمل الجنازة مرتقية بها نحو قاسيون. أمر على منازلهم وراقى ممراتهم. تحت الاشجار، فوق الحجارة، حاملاً عبق الصحاب الذين تحدثوا عن منى وما عرفوا سرها. صحابي الذين احببت. أحبابي الذين تاهوا في الصحارى بعد ان فقدوا ذاكرتهم فالتقطتها في الغلة دمشق، وما بكث عليهم. وتنهر الطلقات فأحسها تترقق في جدار جمجمتي. أبرياء آخرون يهون في المنحدر العميق، العميق. والسيناتور يبين يقهقه. كالطلقة أسمع صوته: «العرب يمرون في دور الشيخوخة وهذه الدورة للعبرانيين».

- «لم ينته الزمن وروح الديو سارية في الريح والنسل». صدى صوت خفي قادم من عصابة الأرض الداخلية.

ويتوقف ناي راني عن النشج، يتوقف الرقص، ثم يطل فوق جسد ديانا المطعون.

في ليلتي الأخيرة امضي، بعد ان عرفتهم عن كتب وبعد، ودمشق ما تزال ترخّ رصاصاً وقلبي يزخ أسي، ذاكرة الآن وداع امي القديم ودموعها: أنت تذهب الى بلاد بعيدة مجهولة. ما الذي لك فيها؟

- قديمة انت يا أمي وانا لا استطيع ان اشرح لك لماذا امضي.

- اعرف. انت مثله. تضع روحك على كفك. لن تعود الا محمولاً.

- لو تفهمين معنى الوطن يا أماء!

□

(بيت قديم مبني بدعامات من حطب. مطلي بالحوار. الدعامات تبدو مائلة، والحوار عتيق كشط الزمن مناطق منه، والبيت يبدو مائلاً وشيك السقوط. هكذا بدا لي من الخارج. أرى نفسي داخل البيت. معي أخي ونسوة أخريات يبين امرأة تشبه امي لا أعرفهن. البيت من الداخل رطب مظلم منهزماً، يحتوي سراديب مجهولة. اتوقع داخل الحلم انه مسكون بجن أو حشرات فأبدو خائفاً. انا واخي نطعم طائراً جليلاً على الأرض. بعد حين أرى الطائر يثب نحو سلة في الجدار ويتكؤم على نفسه وينام. بين لحظة واخرى اتوقع حضور أبي. وداخل الحلم

أدرك انه ميت . اشم بالضيقة وأنا أشم رائحة روث الحيوانات فأرى نفسي في الخارج فوق أرض صغيرة محروقة نصف حرائة فيها شجرات متفرقات . تين . مشمش . دراق . أحاول ان أقطف فأرى الثمار تسقط على الأرض . الثمار تبدو صفراء وكأنها سقطت من زمن بعيد . قربي يمر رجل . احس انه ابي . أحاول مناداه فلا أقوى . معصوب ومضمد في أكثر من مكان من جسده . شعور خني يتناهي انه عائد من المقبرة . مرة أخرى انظر الى البيت الموشك على التداعي فتتناهي حالة غم . في لحظة هلامية تعادل عشر الثانية تخرج صورة البيت بصورة أبي المضمّد بضادات بيضاء . مرة أخرى أرى نفسي في الداخل . البيت نفسه . للحظة أتمنى لو انني املك بيتاً قوياً جديداً غير هذا البيت . أبي يتحرك داخل البيت القديم ولا يتكلم كأنما يريد اثبات وجوده بيننا وأنه لم يمُت . لا أتحدث معه ولا ألمسه . فقط أراه وفي داخل كل منا احساس بأنه الآخر قد تغير .

مر قرب البيت . نخرج من البيت ونعبر الممر . انظر الى ابي فلا أراه . لا أهتم لغيبابه . فجأة يحدث هرج ورج وصخب في ساحة مجاورة . في السماء غيوم كالحلّة . الناس يصرخون ويولون الادبار . قنابل وطائرات . يداهني شعور داخلي دون ان انظر الى الوراء بأن البيت هدمته رجّة القصف .

في ساقية جوار الساحة أرى ابي ممدداً . مرة ثانية مات . أحاول ان أرفعه عن الأرض فلا استطع . جسده ثقيل وقاس كعمود من الجبس . الناس رحلوا . هذوه جنازتي يسود المكان المقفر . اشم رائحته في الفراغ والأرض . الجنة ما تزال في الساقية . أتركها وأسير وحيداً . تواجهني حديقة السبكي بكل حقيقتها . قليل من الناس عبروا جوار الحديقة . عبرت الصالون . كنت أرى جيداً الآن . استلقيت على السرير بكامل نياي . وما عدت أتذكر شيئاً .

ملاحق خاصة

من مراني إرميا

«كيف جلستُ وحدها المدينة الكثيرة الشعب
كيف صارت كأرملة العظيمة بين الأمم.
كلُّ أصحابها غدروا بها. صَارُوا لها اعداء.
طُرِقُ صهيون نائحة لعدمِ الآتينِ إلى العيد. كلُّ أبوابها خربة. كَهَتْهَا
يتهدون. عذاباها مُدْلَةٌ وهي في مرارة. قد أدركها كلُّ طارديها بين الضيقات.
صارت رؤساؤها كأيائل لا تجدُ مرعى فيسيرون بلا قوة أمامَ الطارِدِ.
صارَ مُضَايِقُهَا رُؤَسَاءَ، واعدائها أيسرَ، لأنَّ الربَّ أَعْتَمَهَا لكثرةِ معاصيها.
اطفأها سَارُوا مسبيينَ أمامَ وجوهِ المضايِقِ.
بَسَطَتْ صهيونُ يديها. لا معزَى لها. أَمَرَ الربُّ على يعقوبَ أن يكونَ مُضَايِقُوهُ
حواليه.

ملحق (١)

اسمعوا يا جميعَ الشعوب. وانظروا إلى حزني.
عذاري وشبَّاني ذهبوا إلى السبي.
كيف غطى السيدُ بغضبه ابنةَ صهيونَ بالظلامِ.
ألقى من السماء إلى الأرض فجرَ إسرائيل ولم يذكرْ موطنه قديمه يومَ غضبه.
ناخَتْ في الأرض أبوابُها.
أهلكَ وحطَّمَ عوارضَها.
أنياؤها أيضًا لا يجدونَ رؤيا من قبلِ الربِّ.
نحني عذارى أورشليمَ رؤوسهنَّ إلى الأرض.
كَلَّتْ من الدموعِ عيناها. غَلَّتْ أحشائها.

انسكبت على الأرض كبدي . على سُحْقِ بنت شعبي لأجل غَشْيَانِ الأطفال
والرُصْع في ساحات القرية .

يقولون لأمهاتهم أين الخطئة والخمرُ ، يفضي عليهم كجريح في ساحات المدينة
إذ تُسَكَّب نفوسهم في أحضان أمهاتهم .

يَا سِوْرَ بِنْتِ صِهْيُونَ اسْكُبي الدَّمْعَ كَثِيرَ نَارًا وَلَيْلًا .

اضْطَجَعَتْ على الأرض في الشوارع الصَّبِيَّانَ وَالشَّبِيحَ .

عذارى وشبابي سَقَطُوا بالسيف .

قد قُتِلَتْ في يومٍ غَضَبِكَ . ذُبِحَتْ وَلَمْ تُشْفَقْ .

الذين حضنهم وربيهم افناهم عدوي .

لصَقَ لِسَانُ الرَّاغِبِ بِمَنَكِهِ مِنَ الْعَطَشِ .

الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم .

الذين كانوا يأكلون المأكَلَ الفاخرة قد هلكوا في الشوارع .

الذين كانوا يترنّون على القُرْمَزِ احتَضَنُوا المَرَابِلَ .

وقد صارَ عقابُ بِنْتِ شعبي أعْظَمَ من قِصَاصِ خَطِيئَةِ سِدُومَ التي انقلبتْ كأنه
في لحظةٍ ولم تَلَقَ علياً أبداً . كان نذرها انقضى من الثلج واكثرَ بَيَاضاً من اللبن .
واجسامهم أشدَّ حمرة من المرجان .

جرزهم كَالْيَاقُوتِ الأزرقِ .

صارت صورتهم أشدَّ ظلاماً من السواد .

لَمْ يُعْرِفُوا في الشوارع . لصقَ جلدهم بعظمتهم . صارَ يابساً كالخشب .

كان قَتْلُ السيفِ خَيْراً من قَتْلِ الجوعِ لأنَّ هؤلاء يذويون مطعونين لعدمِ انْخِافِ
الحقلِ .

أَيَّادِي النِّسَاءِ الحَنَائِنَ طَبَخَتْ أَوْلَادَهُنَّ .

صاروا طعاماً هَرَنَ في سَحْقِ بِنْتِ شعبي .

أَنْتُمْ رَبِّ غِيظَةٌ .

سَكَبَ حَمَؤُ غَضَبِي واشلَعَتْ نَارًا في صِهْيُونَ فَأَكَلَتْ أُنْسَهَا .

من أَجْلِ خَطَايَا انبِيَائِهَا وَأَنَامِ كَهَنَتِهَا السَّافِكِينَ في وسطها دَمَ الصِّدِّيقِينَ .

تَاهُوا كَعُمِّي في الشوارع وتَلَطَّخُوا بِالْدمِ حَتَّى لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَمْسَ
مَلابِسَهُمْ .

قُرِبَتْ نَهَائِنَا . كَمَلَتْ أَيَّامُنَا . لَأَنْ نَهَائِنَا قَدْ أَتَتْ .

قد صارَ ميراثنا للغرباء .

أَبَاؤُنَا اخْطَأُوا وَلَبِسُوا بِمُوجُودِينَ وَنَحْنُ نَحْمِلُ آثَامَهُمْ .

جلودنا اسودَّت كَتَنُورٍ من جِوَارِ نِيرَانِ الجوعِ .

أَذَلُّوا النِّسَاءَ في صِهْيُونَ . العذارى في مَدِينِ يَهُوذَا .

اخْذُوا الشَّبَّانَ لِلطَّحْنِ وَالصِّبْيَانَ عَثَرُوا تَحْتَ الحَطَبِ .

مضى فرح قلبنا . صارَ رَقَصُنَا نَوْحًا .

سَقَطَ اكْلِيلُ رَأْسِنَا .

وَيْلٌ لَنَا لِأَنَّنَا قَدْ اخْطَأْنَا .

من أَجْلِ هَذَا حَزَنَ قَلْبُنَا .»

«الكتاب المقدس اصحاح ١ و٢ و٥» .

للحزن وقت وللرعد وقت

- ١ -

مَنْ يَعْبُدُ الْفَرْحَ لِلَّذِينَ غَمَرَهُمْ حُزْنٌ
مَنْ يُلْحَمُ الْأَجْزَاءَ الَّتِي مَزَقَهَا الرِّصَاصُ وَالرَّيْحُ
مَنْ يُطْعَمُ الْخَبَازِينَ خَبِزَهُمُ الْمَجُونُ بِجَرَارَةِ دِمِهِمْ؟
مَنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا
جَسَتْ الْمَدِينَةُ.

الشوارع والمخادع والمطقات
عصور الصعاليك

وعصور الفتن
الرافين وأزمة الحكمة،
سألت: كيف حدث التحول؟
الليل والنهار
الجفاف والبرق

جلد الأرض المشقق والمطر
سألها: لماذا؟

الصمت مدينة عربية مغلقة
والأرض ضائدت فوق جرح ين
والليل والنهار
زهرة براعمها بالقتل تنفتح،
يا لها من أجوية موسيقاها

ملحق (٢)

رَحَافَةٌ بِالْحَزْنِ
فِي زَمَنِ الْعَرَبِيِّ الْأَقْل.

- ٢ -

مُرْتَجَّةٌ تَبْدُو الْمَسَامَ
وَالْعَطْبُ شَرَاغُ مَجَرٍ.
مُلُوكُ الزَّمَنِ الْغَايِرِ
سَفِينَةٌ مَصْدَعَةٌ
وَالْبُرُّ بَعِيدُ
أَه. مِنْ يَوْفَتْ هَذِهِ الرِّيحِ الْعَمِيَاءُ.
دَوَارُ الْبَحْرِ أَصَابَ الْبَحَارَةَ
وَالْمَوْجُ هَاجَمَ كَهَضَابٍ مَتَحَرِّكَ.
الْمَرَاثِي غَمَرَهَا الضَّبَابُ وَضَوْضَاءُ الْبَحْرِ،
وَهَا هِيَ الْأَفْرَاشُ التَّهْمَةُ تَلُوحُ بَيْنَ تِلَالِ الْمَاءِ.
لَوْ أَنَّ الْمَدَنَ تَصْنَعِي
لَوْ أَنَّ الضَّبَجِجَ أَقْلُ
لَوْ الرِّغْبَةُ نَجَدَتْ دَرِيهَا دَاخِلَ الْمَسَامِ
لَوْ ذَلِكَ الْمَأْخُودُ يَطْرُقُ نَعْوِي بِالْبَصْرِ
لَقُلْتُ....
لَكِنِّي وَحْدِي خَارِجَ حُلُقَاتِ الذِّكْرِ،
خَارِجَ الدَّوَارِ
وَالضُّوْضَاءُ تَتَنَامَى.
الرِّغْبَةُ الْمَخْصِيَّةُ أَنَا
وَالْمَأْخُودُ فَارِسُ أَعْمَى
يَدُورُ
وِظْلَامُ الْإِرْثِ الْقَدِيمِ يَبْكُ
يَجْتَرُّ عَتَقَ الْحَرِيَّةِ فِي وَضْعِ النَّهَارِ.

- ٣ -

عِنْدَمَا عَشِيقْتُ قِرَاءَةَ التَّارِيخِ
نَسِيتُ نَفْسِي
بِطَارِقِ وَالتَّنْيِ زَعْمُوتُ بَيْنَ النَّاسِ،
قُلْتُ: أَمَا ذَرَّ سَيِّدُ الْعَدْلِ الْمُنِيِّ
وَحِمَزَةُ فَتَى الْفَتِيَانِ.
قَلْبُ الصَّفَحَاتِ مِنْ مُحَمَّدٍ حَتَّى الْحَجَّاجِ
وَتَلَوْنُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبِ
فَأَعْطَانِي الْمَعْلَمُ بَطَاقَةً تَشْجِيعُ،
يَا اللَّهُ مَا كَانَ أَعْظَمَ كِتَابَ التَّارِيخِ
أَه. كَمْ كَانَ فَرْحِي الْقَدِيمُ عَظِيمًا.
أَيُّهَا الْإِبْجَادُ الْمُتَأَلِّفَةُ كَجَرَحِ
أَيُّهَا الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الَّتِي مَا كَانَتْ تَغِيْبُ الشَّمْسُ عَنْهَا
يَا ظِلَالُ الْأَسْلَافِ الْمُنْسِيْنِ،
هَلْ تَرَيْنَ جَيِّدًا أَيْجَادَ الْيَوْمِ
وَهَلْ تُمَيِّزِينَ تَمَامًا لَوْ هَذَا الزَّمَنُ؟

- ٤ -

لِمَاذَا جَلَدِي مَوْشُومٌ كَأَفْمَى
وَلِمَاذَا أَبْوَابِي ضَاعَتْ مَفَاتِيحُهَا؟
مَنْ الَّذِي كَسَّرَ رُحْيِي وَدَفَعَهُ فِي الرَّمْلِ
وَلِمَاذَا أَقُولُ: الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا خَمْرٌ؟
صَوْنِي هَلْ هُوَ صَوْنِي
وَهَلْ حُرِّي هِيَ الْحَرْبُ إِيَّاهَا
أَلَا مَا الَّذِي دَهَا الْقَبِيلَةَ
وَلِمَاذَا رَبِيعَةُ بَنِ مَكْدُومٍ عَادَ فِرَاعَةُ طَيُورِ

لا حباً ولا ميناً يخيف؟

كل ذلك الزمن المتألق :

العشق والتراويل والفتوح،

الشعر والشجاعة والسخاء،

هزائم كبرى وقصر وريشارد قلب الأسد،

تطفو الآن على سطح النيل والأردن والفرات

زوارق أطفال في نهار محتل.

الآن ما لون هذا الزمن

الآن ما لون العربي؟

لو أن هنا انساناً

لاجتاحه غصَب.

الأرض لا تدور

الشمس لا تشرق

القمر لا يطل

الانسان لا يغضب

فني أي أوقيانوس نحن

وما اسم هذه القارة؟

- ٦ -

عوني هنا ولترحل كل القوافل

فأنا لا قبيلة لي

وتقضي عارياً إلى هذه الصخرة

امضوا في مهرجان الربيع.

خذوا أكفانكم وكل مجلد الاسلاف

خذوا الرايات وكتب التاريخ والمحقات

وامضوا،

ستوني الميت الحي

وامضوا،

اغيدروا صوب المنجي

واتركوا لي رائحتكم

وصفة من رماذ الدين المحترقة.

خذوا غالي الثمن خفيف الحمل

ودعوا لي الأرض ولعب الأطفال،

المصاحف والأناجيل خذوها أيضاً

واتركوا لي رائحة النساء في أثواب العرس

حلوا لي الموسيقى.

- ٥ -

غير الصدى لا أسمع

مبحوحاً داخل الأوردة

غير الظلال لا أرى،

شموسنا انكسفت

جياح ومقرورون عبر صحارى الثلج

وما عاد للإنسان بيت.

تبه والعربي بلا مدن

وطن دامس ولا نجم

زمان موجش ولا أنس

صحراء... صحراء. والرياح عفت آثار الإبل،

ألا من ينزع من عروق القلب هذا البيض المسنون؟!

لو ان الأرض تدور

لأشرفت الشمس.

لو أن الشمس تظهر وتختفي

لأطل القمر،

- ٨ -

كعدراء تحت جسد مُتَّصِبٍ ساديٍّ
تهوي أرضُ السلامِ والشمسِ ،
فوق سهوب المدينةِ المأسورةِ الفقيرةِ ، الخضراءِ ،
المدينةِ التي لم تكنْ تملكْ حتى الأكتافَ لموتها ،
يتشترُ جراد ،
حنةٌ أخرى تدقُّ أبوابَ العربِ
ظلام جديد يخبئُ على البلادِ الحزينة .

- ٩ -

في وطنِ الغاباتِ
القاتلُ هو السيدُ ،
في زمنِ النسيانِ
النصرُ للذاكرةِ ،
وفي زمنِ السجودِ الخانعِ
الظهورُ للعقلِ .
في ذلك الزمنِ المُختلِّ
والرصاصُ يُتخَرَّ في المستودعاتِ السريةِ
والنادقُ من ما وراءِ الحارِ تُحشى
داخلِ صناديقِ الزهورِ
وبين قُمصانِ الأطفالِ ،
كانتِ مدنُ العربِ تهتزُّ في حلقاتِ الدراويشِ
وفي سرِّ النساءِ المُستحياتِ
بالخليبِ والوسكي .
في ذلك الزمنِ الضائعِ الاسمِ
كانتِ شمسُ الصحراءِ النبويةِ
معلقةً على هامِ أميرِ

على هذه الصخرةِ باقٍ
في مهبِّ ربحِ الغزوِ باقٍ
عني ممدود
ووجهي للموتِ مُشْرِع ،
عيناي بحرٌ تودعانِ شمسكُم الآلةِ
وقلبي حامةٌ خضراءِ ،
تنظرُ الطفلة .

- ٧ -

ها هم قادمون ،
أعرفهم من نشيدِ «الها تكفاه»
نحتَ آباطهم سيفٌ وكتاب
وفي عيونهم وميضُ القتلِ .
من ضفافِ المسيحي والرايين
طلأُ بعثِ روثيلد تفتحهم ثغورَ الفقراءِ
نحتِ رايةَ صليبٍ جديد .
ها هي الأسطورةُ القديمةُ تُبعثُ
تصيرُ مجداً مُخضَّباً بالغزو .
بحيرٍ من أوردةِ الأطفالِ
يُسجَلُ التاريخُ
والحقُّ الذي عفا عليه الزمنُ
يطلعُ من سطورِ التوراةِ
رصاصاً ومستعمراتِ .
ها هم يقتربون
أصواتهم رعداً : «أنا احاربُ إذن أنا موجود»
وأنا هنا موتى... موتى .
لقد وصلَ الغرباءُ ، المنفيون ، القتلُ .

يحرُسُ الوطنَ والنيّ،
وفي ذلك الزمنَ الخائنِ
بيعَ اللهَ والوطنَ
بثلاثينَ استرليني.

مغلوبةٌ كانت المدنُ
والفقراءُ مُهانونَ
مُغلَقاً كانَ للمستقبلُ
والمفتاحُ في رأسِ ميناخِمِ بيغن
التوقدِ الذاكرة
ليلٌ خريفِيّ كان يوئِي
وصباحُ أحمرُ كان ينبُجُ:

- واذلّاه

من كانَ فاتحاً بالأمسِ
هوذا يُفَتَحُ الآنَ.

- ١٠ -

على الحجارةِ وأبنا مروا
رسموا وشتموا،
المطرُ والعشبُ وتقاويمُ الفصولِ
حتى الريحُ، سَمَّوْها.
صادوا الفرحَ من حناجرِ الأطفالِ،
وبين أفضاخِ الفتياتِ الحارِ
زرَعوا العارَ،
في الأطمعةِ دسوا الحزنَ
وبدلَ الملاجمِ صيروا الأشعارَ
مراني،
في الحلمِ هبطوا

حوّلوا الرغبةَ إلى كابوسٍ،
بين الفتى وعروسه
انتصبوا كالرُبعِ
وكرّامٍ لا يخطئُ طعنوا رُشّةَ الجنسِ.
بين العربيّ وجذره
وقفوا.
سدّوا سريانَ النسخِ
وضوءَ الشمسِ حجّيوه
لقد بدأ فصْدُ الدمِ من النيلِ إلى الفُراتِ
في ذلك اليومِ الجارحِ.

- ١١ -

يا أطفالَ المدنِ العريقةِ
يا مَنْ كانَ مِن نيلِكُم رجالاً أشيْداءُ في ماضي الأزمنةِ،
لا تنسوا الدَمَ الذي ساحَ عِبرَ آلافِ الأعوامِ،
الدَمَ الذي غارَ في الأرضِ
وسقَى السَّوعَ،
الدَمَ الذي سَرى مع الجداولِ
فأحيا الزرعَ ولَوَّنَ الأراضيَ،
دَمَ الفلاحينَ، والغزو، والثاراتِ،
وتذكّروا أكثرَ دَمِ التاريخِ الحديثِ
الذي أهرقَ صباحَ خاميسِ من حزيرانِ.
في ذلكَ الصباحِ الشمسِ
غارَ دَمٌ كثيرٌ عِبرَ شقوقِ الأرضِ.
على القتلِ لم تُتلِ آيةٌ
قربِ الأقواهِ المشققةِ من الظمأِ
سُفِّحَ الماءُ.

الأَرْضُ ارْتَوَتْ

لَكِنَّ الْجَرْحَى - وَاسْفَاهُ - نَفَقُوا

بالعطش.

في ذلك الصباح المشمس انكسر رمحُ العربي

وكنا جواداً آخر،

لقد بدأ الاغتصابُ

في الظهيرة هذه المرة.

- ١٢ -

المضي موتٌ والبقاء موت

وأنا آخرُ الصَّقُورِ

عناداً أنا باقٍ هنا

وليس من أجلِ النصر

يسألني الغزاة: أين قومك؟

أقول: بالرمْلِ والريحِ امتزجوا

صاروا البحر.

- ولمْ يَفْأُوكْ وحْدَكَ؟

أقول: أنا والصحراءُ شمسٌ وأشعة.

- ما عادة لكم زمن.

أقول: زماني يمضي بعد الموت،

من الرعدِ يولد ومن البحر.

من الشمس يأتي ومن الصدى.

الحياةُ في الموت

والموت هو المهدي.

- وصيتك؟

- أنْ أشاهدَ المدينةَ المُتجاثرة

- وبعدها؟

- احرقوني ثم ذروا رمادي في الصحراء.

- ١٣ -

في الظهيرة عبرتُ المدينة،

سيرتُ تحتَ وشاحها الغسقي

هبطتُ حزنها،

تحتَ الاغتصابِ كانت ممددة

وساؤها الحِداد،

وهادئة بدتُ وكالبحرِ صامتة

لكن عينها كانتا تلمعان

مثلَ حدِّ السيف.

على جبينها قرأتُ وشمُ المغول،

وفي خطوطِ الجبين سمعتُ نغاءَ الأطفال،

الذين قطعَت أبايهم وأرجلهم ورمُوا في الآبار.

بين التدين انتصبَ مشوهو النابالم

الرجالُ الذين قتلهمُ الظمأ

استحالوا مائدةً شهيةً للنسور والكلاب.

تحتَ أظافرِ أَرْضِيتها المقتلعة

سمعتُ أنينَ الأمواتِ - الأحياء

الذين حملتهمُ شاحناتُ اشترين والهاعانا

إلى ساحاتِ الاعدام.

على أسلاكِ الكهرباء

كان كلُّ الوطن

مدلّى.

أوغلتُ،

دخلتُ باطنها البعيد

مَفْتَشًا عَنْ بَقَايَاهُمْ .
 دَلُونِي عَلَى رَجُلٍ مَلَامَتُهُ غَرِيبَةٌ
 يَقِفُ فِي سَاحَةِ وَيَصْرُخُ ،
 بِدُهُ تَرْتَعَشُ بَيْنَ مَقْبِضِ السِّيفِ
 وَمَقْبِضِ الْخِزَانِ
 يَبِيعُ وَيَشْتَرِي ،
 يَحْمِلُ لِمِ يَنَامُ مَلَأَ جَفُونَهُ .
 مَسْمُوسٌ هَذَا الرَّجُلُ
 وَضَجِرَ
 يَغْنَى وَهُوَ يَبْكِي
 وَيَضْحَكُ وَهُوَ يَتَرَفُّ
 وَإِذْ يَمْلَأُ الْعَايَةَ
 يَنْتَضِي سِبْقَهُ الْخَشْيَ
 وَيَسْتَجِرُ .

- ١٤ -

حَزِينَةٌ كَانَتْ الْمَدِينَةَ
 وَفِي نَاصِرَتِهَا جُرْحٌ .
 سَأَلْتُ الْجُرْحَ : أَهَذَا زَمَانُ السَّيِّئِ ، زَمَانُ التَّيْهِ ؟
 هَلْ عَصُرَ الْعَرَبِيُّ يَوْمِي ، وَهَلْ آذَنْتُ
 شَمْسَهُ عَلَى الْأَفْوَلِ ؟
 طَوِيلٌ هَذَا اللَّيْلُ طَوِيلٌ
 وَالْفُصُولُ بَطِيئَةٌ .. بَطِيئَةٌ
 فَهَلْ احْتُلَّ الزَّمَنُ أَيْضًا ؟
 ضَيْقَةُ مَفَارِقِ الدُّرُوبِ
 وَالْغَضَبُ ضَاقَ
 نَاسُ الْآنِ ضَاقُوا .

الْأَحْيَاءُ بِالْأَمْوَاتِ تَسَاوَوْا ،
 وَالْخَطَوَاتُ بِالْخَطَوَاتِ تَعْتَرُ ،
 الْعَيْنُ مِنَ الْعَيْنِ تَخْجَلُ
 وَالْوَجْهُ فِي الْوَجْهِ تُهَمَّةٌ
 حَتَّى الْقَهْرُ لَمْ يَعِزْ بِحُدِّ دَرَبِهِ
 دَاخِلُ الْمَسَامِ الْمَرْتَجَةِ
 حَزِينًا وَعَمِيقًا أَتَانِي صَدَى الْجُرْحِ :
 لِلْحَزَنِ وَقْتُ
 وَلِلرَّعْدِ وَقْتُ .

من مذكّرات مَنى

«في برودة مفاصلي عُرِّي لا حدود له. ممرغ جسدي على اجمل الدروب ونور
عنتق أحسه في الهواء وفي مفاصلي. تسلفت أعماقي الملوثة بالسادة والفقراء، وظللتُ
نفسي بفرسان لا وجود لهم. بحثت عن نفسي في الشوارع والمطحات في البشر والام
فا لقيت في طريقي غير الزمن الخائن. وجدت طفلاً يرقص كهلولان، ويهزج.
عيناه برّاقتان وعميقتان كما البحار تماماً. توقفت عن الرقص وتوقفت عن الغور في
أعماقي ومشيئنا. كانت حدود أرصفتنا دماء وغباراً ورملاً. آه. ما أروعنا في هذا
المضي السريع. ما أعظم ان نلتقط ممأ موسيقى الشرايين ونحطم العتمة ونغشي
متسلفين قرون الحكمة، متعرجين بدماء القدر الضبابية لنجد أبعد ما نريد ونحن
لا نريد شيئاً حقاً.

ملحق (٣)

تمسكتُ بمعصمه وشددتُ، وتمسكُ بشناشيل قديمي المثقوبين وارنقي معي
درجَ الزمان. هذا الصبي المعقود الأصابع توقفَ عن الغناء عندما توقفت عن
البحث. التصق بي كالموت والتصقت به كالأفكار وخرجنا من سهادنا البالي من
أجل ولادة مغتسل بالثلج والشمس. اتنا نتم بالراحة ونوشي أجسادنا بالفضة
والنجوم، ونظهر أمام بصر العالم حيتين من رمل فوق شطآن عارية ساخنة. نشبعُ
بوجهينا عن العالم والزمن ونقرأ ممأ الكلمات المتدفقة من الفصون، وكأننا ضباب
عذب يمضي يمسد الحياة».

١٠/٢٧ الساعة الثالثة بعد الظهر

«أين أنت أيها الشاعر الرقيق فانا بحاجة اليك أكثر من ذي قبل. بحاجة لأن
تضميني إلى صدرك. بحاجة إلى أن أبكي فوق عنقك أكثر من بكاء كل أطفال
العالم لأشعر بعدها بالراحة والفرح، لا تغل شيئاً أيها الشاعر فانا ما زلت سكرى
بحبك الأبيض. أين أنت الآن. في أي مكان؟ سكين الفصام تكوي نفسي،
ومذبة الرحيل والمسافات تظعن جسدي. لماذا أنا وأنت غريبان؟!»

«فراغ.. فراغ. ظلمة موحشة كالقبر تخيم على روحي. ارتعاشاتُ الدم في مفاصلي نثر الجراح التي انفتحت منذ الازل.
سأحفرُ كهفًا في هذه الأرض المطعونة. سأحفره في جدار العقم الحاضر على مستقبلٍ يظل بعد ليالي الألم».

«صامتة، كاتمة أسراري، أجوبُ العالم. ليس من أحد يدرك حقيقيتي. لكنك قد تعلمين وأعلم أنا. وربما لا تعلمين ولا أعلم أنا. لماذا أحب من أحلى ساعات نومي للأرض وأتابع الصمت والاختلاء التي تترافق على شاشة الذاكرة! بإمكانني في هذه اللحظة معاينة أية طفلة أصادفها وأناديها: ابني. اذ ذاك متبارك النجوم المتأللة فوق رأسي صدقُ مشاعري. أي حلوتي! ما الليل؟ ما الموت؟ ما الحب؟ ما الخطيئة؟ ما الخوف؟ ان فرحي بمودتك يساوي لقاء المحارب العائد لبيتِهِ القديم».

«عندما يرتفع الجدار بيني وبينك يستعملُ حزني. لا استطيع ان أفصح لك ولهذا لا أجعلُ لي ملجأ إلا الحرب منك. كم أود وأنا جالسة الآن في هذه الباحة ان تمر في شارعي علَّك ترى وجهي الموشى بالكآبة، وقلبي الذي يرتعش بجبك بشكل خاص».

«قائلة من الدموع تنهرُ في قلبي، وآلامي تشع كالأضواء الذهبية. أواه ما أوسع الكون وما أضيق فرحي. لا أريد أن أترك خلقي أي شيء وأنا هاجر. الليل تلاحى والنهار مغطى بأقنعة رمادية وأنا أندفع رويدا رويدا في طريق الموت. الموت جليلٌ وكريه بدرجة واحدة. أريد أن أموت في أي مكان. في أي شارع. ولا أريد أن يعرفَ ذلك من تحبه نفسي».

«نفسي حزينة وعلى روحي يخيم ضباب عميق. أخاف السفر إلى البلاد النائية ومع ذلك فهذا حلم جميل عذب».

«في لحظات يأسي أرى رؤى جديدة. رؤى عن البدء الاول. أنا وأنت آدم وجواه في جنة مات كل من فيها. ونحن نعيدُ صياغة العالم من جديد. آه. العالم

القديم كم أشعر بالجزن عليه وبالشفقة. انني أكفُّه بالرحمة وهذا أقصى الحب. أسير بزهو في تلك الجنة. أبحت عن منابع القلِّ ورائحة الأطفال. أنمرغ فوق العشب. العشب الذي يشبه في طراوته وحانه ذراع رجل أحببته. إن قلبي ضائع إلى ما لا نهاية. أبه. شاك يدبك يدي واضغطُ خفيفاً ودغ أعماقي تهتز بالجزن البعد. فعمًا قريب ستفترق».

سقوط

«متعبٌ هي الشمس فوق مدينتي. انها تسير بترهل يشي بالموت. قلبي امرهقٌ وعياني تبحثن عن عينيك في صحارى مجهولة المدى. انظر إلى النجوم هذه الحقيقة القديمة التي نعرفها جيداً. لننسها قليلاً ونزّن إلى الأرض علنا نكتشف كماكن الخلل في نفوسنا. النفوس التي اعتكرت بطغي الزمن. آه. انظر أيتها العاشق الوحيد كيف يتشكل الحزن عبر أيامنا كما يتشكل الطحلب على جدران القلاع العتيقة. ان ذلك يمزق القلب ويهقر العقل. ترى أحياناً مجرد سقوط متواصل؟

جملة

«زخّخ هذه الصخرة القاسية عن قلبي، فلن أكون بعد ذلك عتيدهً ولا مبالية. سأكون لك وحدك في ذلك الوقت».

هزيمة

«ما دام الموت يزيّننا في أي مكان فلا بأس أن نعيش حياتنا كما نريد».

بلا تاريخ

«النسيان، مجرد وهم. قَبْرٌ لأفكارِي ومستقبلي. انني غارقة في قرار سحيق والحب المتنوع يغريني من الداخل. أحلم بأزهار وعشب وريح ملونة لأن الموت هو الحقيقة النهائية. قبل أن تأخذني الى كهف بعيد وترسني على التراب، أريد أن أكتب قصيدة طويلة مُصاغّة من أشعة خالدٍ ربما تصمّد جروح الآخرين. وتذكرهم بأن عليهم أن ينعموا بحياتهم إلى أن يأتي زمن الاحتضار».

كَمَنْ الذِّكْرِيَات

«من يشترى مني ذكرياتي بحبِّ أبيض وشوقٍ أحمرٍ وفقرٍ سوداءٍ ورغباتٍ رَماديةٍ. أنا هنا على رصيف الحياة أمشي تحت أبط الزمن وكأنني في صدر حبيبي. من منكم يشترى؟ الأسعُرُ مَنَاهُودَة والذِّكْرِيَات كثيرة وأنا أعيش في زمنٍ مَفْاجِيءٍ. أبيعُ أملاكي قبل الرحيل. أنا على قارعة الطريق شجرةٌ بلا حارس. أنشر ذكرياتي كما ينشر الباعة المتجولون بضائعَ عَرَبَاتِهِمْ».

١٢/١٣

بصخب الريح العاصفة أمشي اليك. بولعٍ أودُّ لو اقسامك عواطفك أيها الصديق. الشوارع التي عبرنا تتبع برائحتنا، وكلثنا القليلة امتصتها الأشجار والجدران في ذلك الشتاء الحزين. سلاتك في دمي. فجأة قررت ان اعطيك طفلاً وأنا أعرف مَنْ ذلك. إنني مشتة في هذه الأيام لكن فكرة انتقال دمك إلى صليبي تملؤني بزهو يقارب احتفال الموت. رحلة مباغنة كسبت منها الكثير. البحر والبراري حيث أوغلنا. أعطيتك في لحظة كالبرق جسدي ونفسي. من زمن بعيد وأنت ترغب ذلك وأنا أقول لك لا جدوى من هذا الالاحاح، لكن حزنك العميق يرمذك اجتاحتني حتى الحَمَل.

كل شيء لديّ ملوّن ومنعش. كل شيء مضيء الآن. آه لو تستطيع الآن أن تحضّر لثفتي سريعاً سريعاً خارج هذه المدينة المسمومة. خارج هذا الزمن الخائق. ثمة أفكار قديمة. ذكريات مصبوغة بالدم تحاول أن تطلّ عليّ في هذه اللحظة وأنا أحاول إبعادها. العالم الجديد الذي تحدثنا عنه يهبّ في نفسي. بعيداً. بعيداً. قرب خلجان مغسولة بالموج والشمس. جبال نائية وأدغال وموسيقى تنبثق من العشب والفرح الجديد. آه. أي شيء أبدع من هذا. ان نعيد حكاية الكون من جديد.

استطرد

بيني وبينك برزخٌ وأنا عاجزةٌ عن العبور اليك.

١/١

لقد نَعَنَ الفرح في هذا الزمن الضيق. وكل الألوان استحالت إلى لون

القرار. الصوت منحوق على حواف الحنجرة. والجميع أصبحوا عشاقاً يحملون مرايا، وكلّ يقول في غرفته الخاصة: يا ربّ نفسي. لقد امتلأ العالم بالخونة والسفاحين وباعة جرائم الشرف المتنهك. لا أحد يمرُّ أن يقول: لا. الشوارع معبأة بمكسوري الظهور. العيون خبا وميضها. صارت كهوفاً للذلّ من كثرة ما مارست غصّ الطرف. الغصّ في كل مكان. في النفوس والاجساد. في الكلمات والمواقف. الشجر والحجارة والريح تضحّ بروائح قدرة لا تطاق. وقلب الانسان هنا يقايس من أجل زوجته. آه. الوطن معتلّ فهل من يغسل الهواء؟

اعتراف

عندما تتظنني ولا آتي، أستطيع أن أحسد بأحزانك القمرية. أنا لن آتي. تاريخنا المشروخ يقول ذلك، والعيان المائلتان في عصر العيون المطفأة تقول ذلك. وأنا أعرف ذلك، ولماذا أهو اليك بصمت دون أن أفصح. ان تسلك يستلني في بخار دمي. تسلك الفقيء المنسي من الله والزمن. من ألوف الأعوام أعرف مدى حزنك ولغفلك لاعتافي. لكن حبنا البائس ليس أكثر من صبيحة مذعور في وادٍ خالي. آه أنت مقيم وأنا مسافرة. سأعجزكم جميعاً تاركةً لكم الدم. لقد أحبيتك وكرهتك بدرجة واحدة. هل تستطيع أن تغلّ هذه المعادلة؟

هروب

ربما كنتُ أنتمي يجسدي فقط إلى هذا العالم. هل هذا يفسر انشطار الانسان هنا بين الحاضر والمستقبل؟

يوم خاص

الحزن يعمّ الأرض. الآلام تتعرّ كما الشمس، والأطفال حزاني في مخابهم السرية حيث يتوسدون أرض الموت والحياة. أين طفلي الذي أكله العنكبوت والنسلين. طفلي الذي مرّته الشارط.

قبل لحظات كنتُ أتوسّد منضدة العمليات في غرفة محشوة بالسكاكين ورائحة الكلوروفورم. أوثقوني بالأحزمة وفتحوا ساق. أيها الطيب الجزار: قف قليلاً قبل أن تحرك آلاتك الحادة. هناك بعض لحظات أريد أن اكتشفها. فجأة اقتربت امرأة مشحونة بالسواد ووضعت المخدر على أنفي. امرأة قاسية الملامح لا تعرف كيف

تبتسم. وهذا الرجل الانساني الذي يعرف بمهارة كيف يمزق الرحمَ ويشرطُ
الأطفال دون أن يرفُ له جفن. بيروود يدسُ رزمة من النقود في جيب زوجته.
هل سيففر لي العالم ما حدث. لا بد من ذلك يا صديقي لا بد.

ارتقيت درج المشرحة وتوسدتُ بهدوء. اقترب المخدر ممدوداً كالنطع بين يدي
المرأة القاسية الملامح. ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦... الغيبوبة. نصف غيبوبة. شيء
حاد كالسيف يخترقني فيسري الألم من الرحم إلى القلب. دوائر مسكون بالفولاذ
يسحقُ جسدي الذي أحببت. كوابيس ونعوش محمولة نحو مقابر بعيدة مظلمة.
صوتُ طفلنا الذي سيولد مشوهاً يصيحُ فلا يُسمعُ صوته. ما الفائدة؟ لن تكبر ولن
تنمو. مثلك مثلُ أطفال بلادي الذين لا يُنمُون. لن تقرأ أشعاراً وترى وشم الدم
على جباه الملايين الذين قضوا وهم أحياء. لن تدخن وتشمَل وتطارَد الفتيات، ولن
تكون لك أحصنة وسيوفٌ من خشب.

انني أستيقظ بعد أن انتهى كل شيء، كما ينتهي الربيع وأيام الأحاد العذبة.
لقد انتهت المذبحة، والطفل الذي وُلِدَ الآن مرمي في صينية بيضاء. كتلة من اللحم
والدم المعزق لا علاقة لها بالآدميين. لقد ولدت الأرض المطعونة طفلاً عليل الجسد
عليل النفس.